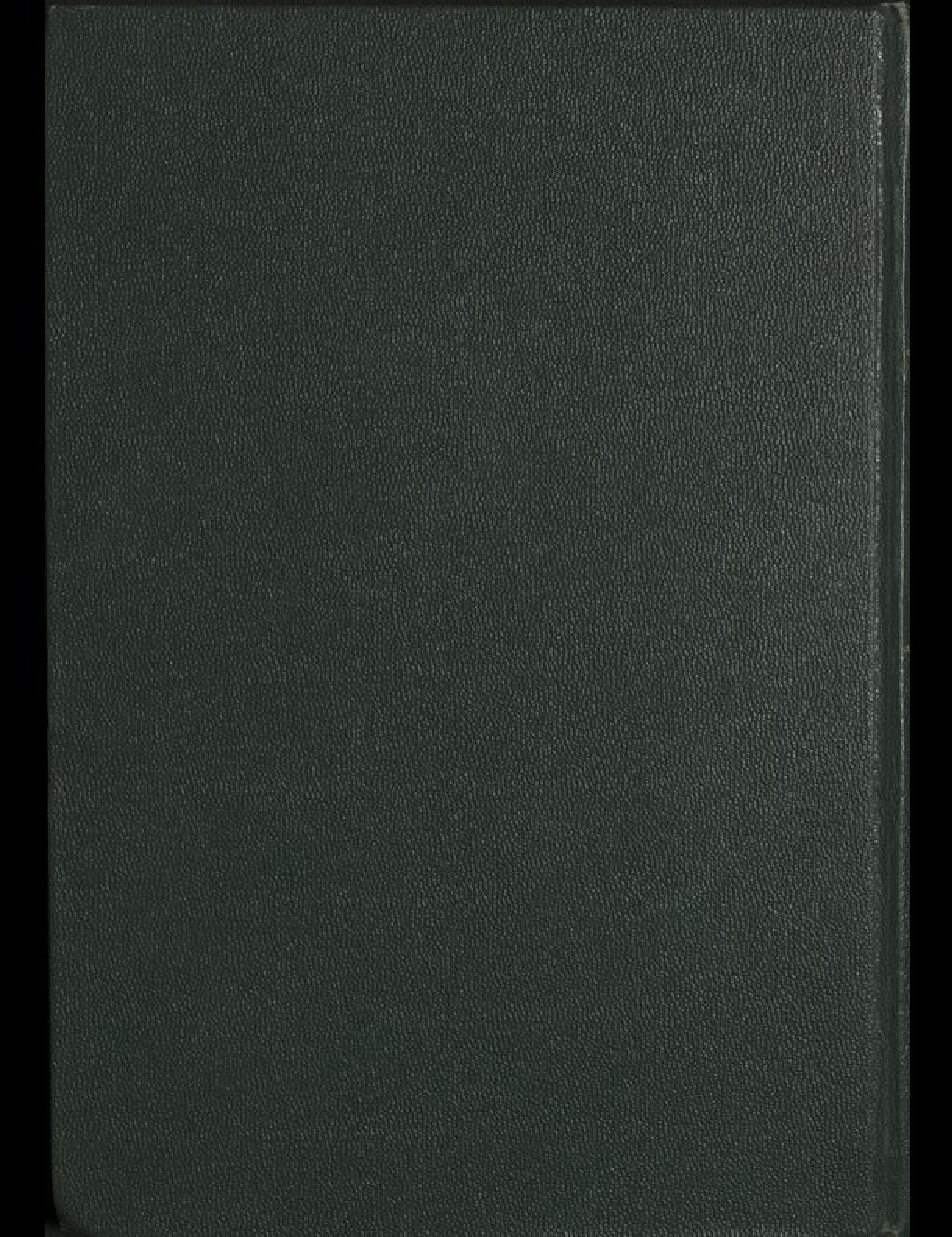


مباحث اجنبية في تاريخ لبنان

ثلاثة أعوام في مصر وبر الشام

بقلم

س. ف. فولني

نقلها الى العربية

ادوار البستاني

الجزء الاول

منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة

عنوان الكتاب بالفرنسية

VOYAGE

EN SYRIE et en EGYPTE

pendant les années 1783, 1784 et 1785

par

M.C.-F. VOLNEY

PARIS, 1787

(Edition Originale)

avec Approbation et Privilège du Roi.

الطبعة الاولى ، بيروت – لبنان ، ايلول ١٩٤٩

كلمة المعرب

هذا الرجل البحاثة العبقري « فولني » الذي جاء الشرق في اواخر القرن الثامن عشر ، لم يأته كسائر رحالي الفرنجة الذين تدافعوا اليه على التوالي بسائقة الفضول ، مشغوفين بصوفيته الغامضة ، وروحانيته المبهمة الغائمة . بل انما انطلق اليه بقصد معين ومهمة اناطتها به حكومته عهدئذ لاستطلاع احوال السلطنة العثمانية في ذلك الشطر من العالم الذي ما برح مطمح الفاتحين ومحط اطماعهم منذ اقدم العصور والازمنة . على ان الذي يعنينا من الامر ، وقد انقضت على رحلة هذا العالم الكبير مائة وست وستون سنة ، ان نستجلي ، على ضوء معلوماته الدقيقة ومباحثه الرصينة ، حقبة من تاريخنا الحديث اصبحت ، على قرب عهدنا بها ، محاطة باحجبة الشك والابهام ، وتكاد تطفو على حقيقتها الاظانين والاساطير . فقد خالط هذا الرحالة السكان وعايشهم وشافههم بمعزل عن التراجمة لانه تعلم لغتهم واتقنها كتابة ومكالمة . وتوغل في اطراف البلاد واقاصيها ، والمّ بعاداتها وشرائعها ، واستطلع دخائلها ، فضاف رهبانها ومشايخها ، وحلّل طبائع رجالها ، وتسلل بالدرس الى اخدار نسائها بما عرفه عنهن من الفرنجيات المقيمات في البلاد . فلم تخف عنه شاردة ولا فاتته خفية . بل يدهشك ان

تراه ، وهو الاجنبي الفرنسي ، قد سبر غور تلك الاصقاع الشرقية ، وكشف النقاب عن احوال واخلاق وشيم وعادات دقت معرفتها على مؤرخي ذلك العصر الذي كانت تسوده العنصرية الذميمة وتتحكم في مقدراته عصبية الدين والطائفة والمذهب .

وها نحن نفتح دفتي كتابه امام قراء العربية .

دير القمر ، ايلول ١٩٤٩ .

ادوار البستاني

المقدمة

تشرين الاول ١٧٨٦.

منذ خمس سنوات — وكنت في مطالع الشباب — قدر لي ان احصل عن طريق الارث على مقدار من المال تملكني الحيرة في وجه استعماله . واراد بعض صحبي ان استمتع به بذلاً وانفاقاً ، في حين ان بعضهم الآخر نصح لي ان استفيد من ريعـه . ورجعت الى نفسي ، فوجدت ان المبلغ اضعف من ان يزيد على دخلي شيئاً محسوساً ، وانه مع ذلك من الضخامة بحيث لا يجوز لي تبديده في نفقات لا طائل تحتها . وكانت احوال حسنة الطالع قد عودت شبابي على الدرس والاطلاع ، فتذوقت الاقتباس حتى كلفت به . ورأيت في ثروتي وسيلة جديدة لارضاء نزعتي ، وفتح آفاق اوسع لثقافتي . وكنت قد قرأت وسمعت بالترداد ان السفر انجع الوسائل لتجميل العقل وتهذيب قوته المميزة . فصممت على السفر ، وبقي علي ان اختار ميدانه . واردته طريفاً زاهياً معجباً . فبدت لي بلادي وما جاورها من البلدان شيئاً اعرفه او تسهل معرفته . وجذبتني تجربة نحو اميركا الناشئة ومتوحشيها . بيد ان اعتبارات أخرى صرفت عزيمتي الى آسيا . وبدا لي ان سوريا ومصر ، بماضيها وحاضرهما ، حقل صالح لما اردت الانصراف اليه من الابحاث السياسية والاخلاقية . وقلت في نفسي « ان معظم

المذاهب التي تسوسنا قد نشأت في تلك الاصقاع . ومن هناك انبثقت الافكار التي أثرت ابلغ التأثير في خلقياتنا العامة والخاصة ، وفي شرائعنا ، وفي مجمل احوالنا الاجتماعية . فمن الجدير بالاهتمام اذن التعرف بالاماكن التي توعرعت فيها تلك المذاهب ، وبالعادات والاخلاق التي عملت على تكوينها ، وبذهنية وطبائع الامم التي دانت بها . ومن الجدير بالاهتمام ايضاً البحث في تلك الاخلاق والعادات الى اي حد تشوهت او بقيت سليمة ، والتنقيب عن مدى تأثير المناخ ومفاعيل الحكم واسباب العادات ، وبكلمة موجزة ، النفاذ الى حالة العصور الغابرة على ضوء الحالة الحاضرة .

وقد تبصرت ، من ناحية اخرى ، بالاحوال السياسية التي تحيط بالسلطنة العثمانية منذ عشرين سنة ، وتأملت النتائج التي قد تسفر عنها ، فوجدت موضوعاً لدغدغة فضولي في استقصاء المعلومات الدقيقة عن نظامها الداخلي ، لاخلص منه الى معرفة قوتها ومواردها . ووضعت هذه الامور نصب عيني عندما ارتحلت الى مصر في نهاية السنة ١٧٨٢ . ولبثت في القاهرة سبعة اشهر ، فاعترضتني خلالها عقبات جمة حالت دون طوافي داخل البلاد وتعلم اللغة العربية . وتحولت الى سوريا . وكانت الحالة في هذه الولاية اقل اضطراباً ، واكثر موائمة لمقاصدي . فقد اقمت ثمانية اشهر عند الدروز في دير عربي (كذا) ، مما جعلني آلف اللغة . وقد يسّر لي هـذا الامر التنقل بحرية عبر سوريا طوال سنة كاملة . ولدى عودتي الى فرنسا ، بعد غياب ثلاث سنوات ، حسبت ان مباحثي قد تعود ببعض الفوائد ، وعزمت على نشر دروسي عن الحالة الراهنة في سوريا ومصر . وقد شجعني على ذلك ان المعلومات

عن تلك الامصار قليلة ناقصة ، بسبب ان الرحلات اليها كثيرة المشقة . وقد عني معظم الرحالين بالابحاث الاثرية اكثر منهم بوضع البلاد الحديث . ولما كان اكثرهم قد اجتازوا البلاد على عجل ، فقد اعوزتهم الوسيلتان الاساسيتان لمعرفتها ، عنيت الوقت والالمام باللغة . فلا يمكن ، بمعزل عن اللغة ، تقدير عبقرية امة وطبائع اهلها . وما كانت ترجمة المترجمين لتفضي يوماً الى ما تفضي اليه المشافهة المباشرة . ولا يمكن ، بمعزل عن عامل الوقت ، ابداء الحكم الصادق السليم ، لان منظر الاشياء الجديدة يثير الدهشة لاول وهلة ، ويلقي التشويش في العقول ، فيخلق بالرائي والحالة هذه ان يتريث حتى تهدأ الجلبة ، وان يعمد الى تكرار الملاحظة ليثبت في الصواب . والنظرة الصائبة فنٌ يقتضي من الممارسة فوق ما يحسبون .

تبين لي عند رجوعي الى فرنسا ان رحالة سبقني الى التحدث عن مصر في كتاب اول سماه « الرسائل » ، ثم اعقبه بنشر جزئين آخرين . على ان الحقل واسع خصب ، وفي بعض اقسامه الجديدة مجال للحصاد . هذا ، ولا اخال ان استماع شاهدين اثنين عن اشياء معلومة مما يغضب او يسيء .

ان سوريا لا تقل عن مصر إغراء واستمالة . الا ان في موضوعها بحثاً اكثر جدة . وما كتبه عنها بعض الرحالين قد تقادم عليه العهد ، بل يشوبه النقصان . وكنت قد آليت على نفسي بادىء ذي بدء ألا اتكلم الا بما شاهدت بام العين . على اني رأيت ، في سبيل ارضاء القراء ، ان استكمل صورة هذه الولاية بما دونته عن غيري كلما تمكنت التثبت في صحته بالمقارنة والمقابلة .

وتوخيت في سرد الوقائع المحافظة على الروح التي سادتني عند بحثها، عنيت بذلك حبي المجرد للحقيقة. وقد منعت نفسي الصورة التخيلية، وان كنت لا اجهل افضليات الوهم عند جمهور القراء، لاني ارى ان الرحلات ملك التاريخ لا الرواية. واذن، فلم امثل البلاد اكثر جمالاً مما بدت لناظري، ولم اصور الناس احسن حالاً او اكثر شراسة مما رأيتهم، بل احسب انني كنت في وضع تمكنت معه من رؤيتهم كما هم، لانني لم الق منهم حسنة ولا سيئة.

اما فيما يتعلق بصيغة هذا الكتاب فانني لم اعتمد فيها طريقة السرد المعتادة، وقد تكون ابسط الطرق. ونبذت، تحاشياً للاسهاب، الترتيب والتفاصيل السفرية، وكذلك الحوادث الشخصية. فلم اطرق المواضيع الا رسوماً شاملة تستوعب الاكثر من الوقائع والفِكَر. وكنت حريصاً على وقت القراء تجاه هذا السيل من الكتب المتتاليـة. وقد شفعت بحثي عن مصر وسوريا بخرائط جغرافية زيادة في التوضيح. اما خارطة مصر المتعلقة بالدلتا وصحراء سينا فقد وضعت بناء على المعلومات الفلكية التي نشرها المسيو نيبوهر Niebuhr رحالة ملك الدانمـارك في السنة ١٧٦١، فهي احدث وادق ما نشر بهذا الصدد. وقد اسدى لي هـذا الرحالة مساعدته في وضع خارطة سوريا التي استكملتها بما اخذته عن خارطة دانفيل Dainville وعن يوميات رحلتي. ورأيت، اخيراً، ان هواة العاديات يسرهم ان اضم الى الرسم وصفي الذي دونته عن اجمل خرائب آسيا اي خرائب تدمر وهيكل الشمس في بعلبك. ويلوح لي ان شداة الفنون الحديثة ينظرون بارتياح الى اللوحتين اللتين تمثلان هذه الآثار.

الجزء الاول

القسم الاول

طبيعة مصر

الفصل الاول

مصر عامة ومدينة الاسكندرية

من العبث ان تهيء مطالعة الكتب معرفـة العادات والاخلاق عند الامم ، فثمة مجال بين تأثير الانباء على العقل وتأثير الاشياء على الحواس . فالصور المرسومة بالاصوات تعوزها الدقة في التصوير والحيوية في التلوين وتعلق في لوحاتها هنـات غائمة لا تترك إلا اثراً هارباً سريع الزوال . وانا لنستشعر ذلك خاصة اذا كانت الاشياء المراد تصويرها غريبة عنـا ، لان المخيلة اذ لا تجد حداً للمقابلة كامل التكوين فهي مضطرة الى جمع اعضاء شتيتة لتركب منها اجساماً جديدة ، ومن الصعب عليها في هذا العمل المبهم المفروض الذي تباشره بعجلة ألا تخلط بـين الخطوط وتشوه الاشكال . أنعجب بعد ذلك انها، اذا رأت المثل ، انكرت ما تمثلته عنها وتقبلت منها تأثيرات جديدة كل الجدة ؟

هذه هي حال الغربي الذي يصل عن طريق البحر الى تركيا . فعبثاً يكون قد طالع التواريخ والاخبار ، وعبثـاً يكون اعتماده على وصفها في محاولته تصوير هيئـة الارض وترتيب المدن والازياء واساليب السكان : فجميع تلك الاشياء جديـدة في نظره . وفي

تنوعها ما يبهره ، وما تصوره عنها يذوب ويضمحل ، فيبقى تحت سيطرة شعور المفاجأة والاعجاب .

وقلما وجدت مكاناً كالاسكندرية يحدث فيك هـــذا التأثير المزدوج ، هذه المدينة التي يذكّر اسمها بعبقرية رجل عجيب ، واسم هذه البلاد المتصل بالعديد من الحدثان والافكار ، ومنظر المكان في اطاره الرائــع ، وذلك النخل المنتصب كالمظال ، وتلك البيوت ذات السطوح وكأنها لا سقوف لها ، وتلك السهام الدقيقة تعلو المآذن وتحمل الشرفات في الهواء ، كل ذلك يدل المسافر على انه في عالم آخر . فاذا ما انحدر الى الارض احاطت بـه مجهولات عديدة من كل ناحية ، فثمة لغة تخيف اذنه باجراسها البربرية ونبراتها الحلقية النابية ، وثمة ازياء عجيبة الهندام ووجوه تتسم بالغرابـة . وعوضاً عن خدودنا العارية ورؤوسنا الكاسية الشعور وقبعاتنا المثلثة الزوايا ، وثيابنا القصيرة الضيقة ، تراه ينظر بدهشة الى تلك الخدود المحروقـة المسلحة باللحى والشوارب ، وهذا الاطار مـن القماش المتجعد الذي يعتّم به رأس حليق ، وهذه الجبة المستطيلة المنحدرة من العنق الى الكاحل ، فتبدو وكأنها للجسم ستار لا ثوب يرتديه ، وتلك الغلايين ، بطول عشر اقدام ، ولا تخلو يد منها ، وتلك النوق الكريهة التي تقل الماء في نحى جلدية ، وتلك الحمير المبرذعـة الملجومة الـتي تنقل برشاقة راكبيها المتنعلين الخفاف ، وهذه السوق العامرة بالتمر والخبز المستدير المسطح ، وهذا الرعيل القذر من الكلاب التائهة في الازقة ، وتلك الاشباح المتنقلة ، المغطاة بثوب واحد ، التي لا يبوز مـــن شكلها الانساني غير ناظرتي امرأة .

وفي وسط هذه الجلبة ، ينصرف بكليته الى حواسه فيما ينصرف

عقله عن التأمل ، ولا يهدأ روعه حتى يبلغ مقره المشتهى ، فيتبصر عندئذ تلك الازقة الضيقة غير المبلطة ، وتلك البيوت الواطية التي تحجب العرائش ضوءها النادر ، وهؤلاء الناس الهزلاء ، المشربي البشرة بالسواد ، الذين يسيرون حفاة ولا رداء على اجسامهم سوى قميص ازرق يشد وسطه نطاق جلدي او منديل احمر . فلا يلبث ، وقد شهد هذا المشهد العام لشقاء البشر والاسرار التي تغتمر المنازل، ان يستشف ما هنالك من ظلم جشع الى جانب عبودية حذرة متيقظة .

على ان ما يستوعي اهتمامه ، بعدئذ ، واسعات الخرائب التي يراها من ناحية البر . ان الاخربة في نواحينا امرٌ يستوعي الفضول ، اذ يندر ان تعثر في الاماكن النائية على قصر قديم ، ان دل تهدمه على شيء ، فعلى هجر سيد القصر لا على فقر المكان . اما في الاسكندرية فانك ، بالعكس ، لا تكاد تخرج من المدينة الجديدة صوب البر ، حتى يجبهك منظر ارض فسيحة الجنبات تغطيها الخرائب . وانك لتمشي مسافة ساعتين ، متتبعاً خطين من الجدر والابراج ، هي اسوار الاسكندرية القديمة . فالارض مكسوة بانقاض القبب ، والجدران والقناطر والشرفات المتهدمة ، وثمة حجارة قرضها النطرون وشوّه فيها . وتجتاز ساحة داخلية واسعة تثلّمها الحفائر والآبار ، ويقوم فيها ركام الجدران والعمد القديمة . وهناك الجبانات الحديثة والنخيل والصبار حيث لا ترى من الكائنات الحية الا بنات آوى والبواشق والبوم . اما السكان ، وقد الفوا هذا المشهد ، فهم لا يتأثرون به قط . ولكن الرجل الغريب الذي تثور فيه التذكارات، فانه يستشعر غصة كثيراً ما تتحول الى الدمع وتفتح امامه مجالاً

لتأملات تشد القلب بكآبتها بمقدار ما ترفع النفس بجلالها .

ليس لي ان اكرر هنا ما وصف به جميع الرحالين عاديات الاسكندرية المدهشة . فقد أفاض نوردن Norden وبوكوك Pocoke ونيبوهر Niebuhr وسافاري Savary (في رسائله الاخيرة) في ذكر حمامات كليوبطرة ومسلتيها والدياميس والآبار والعمود الموسوم خطأ باسم بومبيوس . ان لهذه الاسماء وقارها . غير ان نظرك الى التصاوير يختلف عن نظرك الى حقيقة الاشياء . فالعمود بارتفاعه الجريء ، وبحجم استدارته ، وبالعزلة التي تكتنفه ، يطبع فيك شعوراً بليغاً من الاعجاب والاجلال .

ان الاسكندرية في حالتها الحاضرة محور تجارة عظيمة . فهي باب جميع السلع التي تخرج من مصر عبر المتوسط ، ما خلا ارز دمياط . فللاوروبيين هناك متاجر تصرّف فيها بضائعنا عن طريق المقايضة . وانك لتشاهد باستمرار سفن مرسيليا وليفورنو والبندقية وراغوز وغيرها . على ان الاشتاء فيها محفوف بالمخاطر . فالمرفأ الجديد ، وهو الوحيد الذي ينزل منه الاوروبيون ، قد امتلأ بالرمال الى حد ان حيازيم السفن تصطدم بقاع البحر في ابان العواصف . ولما كان الغور صخرياً فان حبال المراسي لا تلبث ان تتقطع بفعل الاحتكاك ، حتى اذا افلتت سفينة تندفع على أخرى وهذه على ثالثة ، وهكذا دواليك ، حتى تغرق السفن جميعاً . وقد وقعت سابقة مشؤومة منذ ثماني عشرة سنة اذ تحطمت اثنتان واربعون سفينة على الرصيف في عاصفة هبت من الشمال الغربي .

أما المرفأ القديم الذي تقوم على مدخله رقعة الارض المسماة رأس التين ، فهو غير معرض لمثل تلك الكوارث . على ان

الاتراك لا يستقبلون فيه الا سفن المسلمين . وقد يسأل سائل في اوروبا : لماذا لا يرممون المرفأ الجديد ؟ ذلك ان الاتراك يتلفون ولا يرممون . وسيهدمون المرفأ القديم ايضاً حيث ترمى صوابير السفن منذ مئتي عام . ان ذهنية التركي هي ان يهدم اعمال الماضي وآمال المستقبل . وما من غد يرجى للجهل والبربرية .

ان الاسكندرية لا تحسب شيئاً من الناحية الحربية ، لانك لا ترى فيها اي تحصين ، حتى ان المنارة بأبراجها العالية غير جديرة باسمها . فهي لا تجنحها مدافع صالحة ولا مدفعيون يقومون على ادارتها . اما الانكشارية الخمسمائة الذين يجب ان تتألف منهم الحامية فقد انزل عددهم الى نصفه . وهم عملة لا يحسنون عملاً الا تدخين الغلايين . والاتراك مرتاحون الى ان مصلحة الفرنسيين قائمة في عدم التعرض لهذه المدينة . ان باستطاعة دارعة تنطلق من مالطة او من روسيا ان تحولها الى رماد . على ان فتحاً كهذا لا فائدة منه ولا يجدي . فالاجنبي لا يطيق الاقامة فيها ، لان الارض تعوزها المياه ويقتضي جرها اليها من النيل بواسطة ترعة او قناة طولها اثنا عشر فرسخاً يسيل فيها الماء كل سنة عند الفيضان ، فيملأ المستودعات الارضية والآبار المحفورة تحت المدينة القديمة ليخزن فيها حتى السنة التالية ، ويشعر الاجنبي انه لو اراد السكنى هناك لسُدت بسببه القناة .

ولا يصل الاسكندرية بمصر إلا هذه الترعة . فان هذه المدينة ، بموقعها خارج الدلتا ، وبطبيعة ارضها ، تتصل في الحقيقة بصحراء افريقيا . والضواحي ارياف رملية مسطحة مجدبة لا شجر فيها ولا مساكن ، لا تعثر فيها إلا على نبتة يستخرج منها ملح القلى ،

وخط من النخيل يتأثر مياه النيل عن طريق الخليج .

وانك لا تدخل مصر حقيقة حتى تطأ بلاد الرشيد حيث تهجر الرمال التي تتميز بها افريقيا ، وتنتقل الى تربة خصبة سوداء هي خاصة مصر المميزة . وعندئذ ، ولاول مرة تقع العين على مياه النيل الشهير . فترى مجراه بين ضفتين عموديتين ، وكأنه نهر السين Seine بين اوتوي Auteuil وباسي Passy . امـا غابات النخيل الـتي تجاوره ، والجنائن التي ترتوي بمياهـه ، واشجار الليمون والبرتقال والموز والدراق وغيرها ، فانها تسبغ عـلى الرشيد من اخضرارها الدائم جمـالاً يستمد رونقه خاصة من مقابلته بالاسكندرية وبالبحر الذي تركه المسافر .

وانك ، في اثناء هذه الرحلة اذا تتبعت النهر في اتجاه منبعه ، تصورت لك فكرة عامة عن الارض والمناخ والمنتجات في هـذه البلاد الشهيرة ، وليس يماثلها في المنظر كغياض نهر اللوار الادنى او سهول الفلاندر ، اذا طرحت جانبـاً منازل الحقول المتعددة والاشجار واحللت محلها بعض غابات النخيل والجمـيز ، وبعض المزارع الترابية القائمة على مرتفعات مصطنعة . وجميع هذه الارض هي من التساوي والانخفاض بحيث ان الواصل مـن البحر ، اذا ابتعد ثلاثة اميال عن الشاطىء ، لا يلبث ان يرى في الافق النخيل وما تحتها من رمال . والنهر هنا في انحدار لطيف لا تجاوز سرعة مياهه الميل الواحد في الساعة . امـا منظر الحقل فقليل التنوع ، وهو عبارة عن اشجار نخيل منفردات او متجمعات يندر وجودها كلما جئت بك القدم ، وقرى مبنية بالطين عليهـا مسحة الخراب ، وسهل لا حد له يتحول حسب الفصول من بحر امطار الى مستنقع

موحل ، الى بساط اخضر او حقل غبار . وفي كل النواحي افق سحيق بخاري تقف دونه الابصار وتقل . واخيراً تلوح لك عند ملتقى ساعدي النهر من جهة الشرق جبال القاهرة ، وفي جهة الجنوب المائلة للغرب كتل ثلاث منعزلة يدلك شكلها المثلث الزوايا على انها الاهرام . وتدخل هنا في الوادي بين سلسلتين من المرتفعات المتوازية . فسلسلة الشرق التي تمتد حتى البحر الاحمر جديرة بان تسمى جبلاً بسبب ارتفاعها المفاجىء ، وان تسمى صحراء لمنظرها العاري الوحشي [1] . اما سلسلة المغرب فليست إلا ذروة صخر تكسوها الرمال ، وما احسن ما اسموها بالسد او بالرصيف . فاذا ما شئت ان تصور مصر بكلمتين فتمثل من ناحية بحراً ضيقاً وصخوراً ، ومن ناحية اخرى سهولاً من الرمال عظيمة ، وفي الوسط نهراً يجري في وادٍ طوله خمسمائة وخمسون فرسخاً بعرض ثلاثة فراسخ الى سبعة ، لا يصل الى مسافة ثلاثين فرسخاً عن البحر حتى ينشطر الى ساعدين تصل فروعهما في ارض عديمة العقبات تكاد لا تنحدر .

ان تذوق علم الطبيعيات الذائع في هذا العصر يتطلب ولا شك تفاصيل عن طبيعة الارض والمعادن في هذه البلاد الواسعة . على ان ما يؤسف له ان طريقة الاسفار فيها لا تؤاتي لمثل هذه المباحث . وليس الامر في تركيا شأنه في اوروبا . ان الاسفار عندنا نزهات مستحبة ، اما هنا فانها اشغال شاقة خطرة . وهي كذلك بنوع خاص للاوروبيين الذين يتصلب الشعب الموسوس في نظره اليهم

[1] وتسمى بالعربية المقطم او الجبل المقطع (المقطم) .

كسحرة يأتونه لينزعوا بالرقى كنوزاً تحرسها الارواح تحت الاخربة .
ان هذا الاعتقاد المضحك ، على كونه متأصلاً ، اذا اضفت اليه حالة الحرب والاضطراب المعتاد ، ينزع كل وسيلة احتراز ويحول دون اي اكتشاف ، فلا تستطيع ان تنتحي الحقل وحيداً او ان تصحب اليه احداً ، بل تجدك محصوراً عند ضفاف النهر وفي سبيل يطرقها الجميع ، وهو مسير لا تفيد منه شيئاً جديـــداً . وليس لك ، حتى تكتسب بعض المعلومات العامة ، إلا ان تضم ما لاحظه غيرك الى ما رأيته انت . وعلى مثل هذا الاساس تراك محمولاً عـلى القول بان هيكل القطر المصري باجمعـه من اصوان حتى البحر المتوسط عبارة عن طبقة من حجر الجص المشرب بالبياض القليل الصلابـة والمتحول من الاصداف التي تجد مثيلاتهـا في البحرين المجاورين [1] ، وانها من هذا النوع في الاهرام وفي الصخور الليبية التي تحتها ، وتجدها ايضاً في الآبار وفي دياميس الاسكندرية وعـــلى صخور الشاطىء حيث تمتد ، كذلك في الجبال الشرقيـة مقابل القاهرة . ومواد البناء في هذه المدينة مركبة منها ، وتتألف منهـا المقالع العظيمة الممتدة من سوادي الى منفلوط على مسافة خمسة وعشرين فرسخاً بحسب شهادة سيكـّار Siccard . ويفيدنا هذا المرسل عن وجود الرخام في وادٍ يمتد عند قدم الجبـال المشرفـة على البحر الاحمر ، وفي الجبال القائمـة في الجنوب الشرقي من اصوان . وبين هذه المدينة والشلال اهم منابت الصوان الاحمر . ولعل هناك منابت

١ هذه الاصداف هي بنوع خاص من القنافذ والاصداف المخروطية الشكل والاصداف المتلاصقة . راجع الدكتور شو : رحلة الى الشرق .

غيرها في جبل سيناء [1] والجبال التي تليه على الضفة المقابلة من البحر الاحمر على مسافة نهارين صوب الشمال . وعلى مقربة من اصوان صوب الشمال الغربي مقلع من حجر الحبة يستعمله السكان غير مصقول لصنع الآنية التي تعرّض للنار . وفي الخط نفسه على البحر الاحمر كان يقوم في ما مضى منجم زمرد قد عفت آثاره . والنحاس هو المعدن الوحيد الذي ذكر القدماء وجوده في تلك النواحي ، وعلى طريق السويس حصى تسمى حصى مصر وان تكن في جوهرها حجارة جص صلبة رنانة . وقد وجدت هناك حجارة يحمل شكلها على الظن بانها عيدان متحجرة . وهي في الواقع تشبه حطباً تتخلله ثقوب كأنها الخياشيم . على ان المصادفة هيأت لي ان اعثر في طريق عرب الحواطات [2] على عرق عظيم من هذا النوع تبينت معه انه من المعدن . وما هو اجدر بالاهتمام بحيرتا نطرون اللتان وصفهما سيكّار نفسه . ويقعان في صحراء غربي الدلتا . اما قاعهما فهو عبارة عن حفيرة طبيعية يراوح طولها بين ثلاثة الى اربعة فراسخ على ربع فرسخ عرضاً . وارضهما صلبة حجرية . وهي جافة طوال تسعة اشهر من السنة . على انه في الشتاء ينبع من الارض ماء احمر بنفسجي يملأ البحيرة حتى عشر اقدام علواً . وعند عودة القيظ تتبخر المياه فترسب طبقة سميكة من الملح بمقدار قدمين ، وهي صلبة تدق بالحديد حتى تقتطع ، ويستخرج منها في السنة ٣٦ الف قنطاراً . وهذا الحدث الذي يدل على ان الارض

١ لون هذا الجبل اشهب على بقع سوداء وفي بعض الاحيان حمراء .
٢ لكل قبيلة سبلها الخاصة بها تلافياً للمخاصمة والنزاع .

مشربة بالملح يتكرر في مجمل القطر المصري . فحيثما تحفر الارض ينبع مـاء أجـاج يحتوي النطرون والملح البحري وبعض البورق . فاذا حدث ان فاضت المياه على الجنائن للريّ ، فانك ترى بعد تبخرها ونشوف المياه ان الملح يطفو على وجه الارض . ويلوح ان هذه الارض كسائر القارة الافريقية والعربية انما هي من الملح او صالحة لتكوينه .

وفي وسط هذه المعادن المتنوعة وفي هذه الرمال الدقيقة المشربة بالحمرة والمختصة بافريقيـا ، تبدو تربة وادي النيـل بخصائصها التي تجعل منها طبقة متميزة . فان لونها المشرب بالسواد وميزتها الخزفية اللزجة تدلنا على اصلها الاجنبي . فالنهر يحملها من قلب الحبشة . وكأن الطبيعة شاءت ان تتفنن في تكوين هذه الجزيرة الآهلة في صقع كانت قـد منعت عنه كل شيء . فلولا ذلك الطين الخصب المؤاتي للحرث لما تهيأ لمصر ان تنتج شيئاً . فهو وحـده يحتوي بذور النبات والخصب ، وهو مدين بذلك للنهر الذي هو علة كليهما .

الفصل الثاني

النيل واتساع الدلتا

النيل علة وجود مصر من الناحيتين الطبيعية والسياسية : فهو وحده يسد اولى حاجات الكائنات العضوية ، وهي الحاجة الى الماء ، وما امسها في المناخات الحارة المتعطشة ابداً الى ذلك العنصر الرئيسي . فالنيل وحده بمعزل عن معونة سماء شحيحة المطر يحمل الى كل صقع غذاء الزرع . فهو بحلوله ثلاثة اشهر على الارض يشربها مقداراً من الماء يجعلها في غنى عنه سائر ايام السنة . ولولا فيضانه لما امكن استغلال الارض الا في بقعة ضيقة الحدود كثيرة التكاليف . ومن الصواب القول انه مقياس البحبوحة والخير والحياة . ولو ان البرتغالي « ألبوكرك » استطاع تنفيذ مشروعه بتحويل مجراه من اثيوبيا الى البحر الاحمر ، لما كانت هذه البقعة الخصبة الا صحراء تضاهي بوحشيتها الفلوات المحيطة بها . ومتى رأينا الى اي مدى يستخدم الانسان طاقة هذا النهر ، لا يبقى في وسعنا ان نلوم الطبيعة على انها منعت عنه المزيد .

وقد حق للمصريين في سائر الازمنة واليوم ان ينظروا الى النيل نظرة اجلال ديني[1] ، ولكن يجب ان نغفر للاجنبي الذي يسمع

[1] يسمونه المقدس والمبارك ، وعند تفجر المياه الجديدة اي عند فتح الترع ترى

تبجحهم بجمالات تلك المياه فيبتسم من جهلهم . فلن يكون لهذه المياه المعتكرة الموحلة قط في نظره سحر الينابيع الصافية والجداول الزلالية . وما لم يكن قد برّح به الحرمان فلن يذكّره جسد المصرية المستقع الراشح بالمياه الصفرائية بالنائيات [1] الخارجات من الابتراد . ومياه النهر طوال ستة اشهر كثيرة الاعتكار حتى انها لا تسوغ للشرب ما لم تصفّ [2] . وفي الشهور الثلاثة التي تسبق الفيضان يقل عمقها وتسخن في مسائلهـــا فتخضرّ وتأسن وتمتلىء بالديدان ، فتدعو الحاجة عنـــدئذ الى استخدام المياه المخزونة في الآبار . اما المترفهون فانهم يقطرون الماء ويبردونه بالتبخر [3] .

لقد كتب الرحالون والمؤرخون كثيراً عن النيل وغرائبه حتى كدت اعتقد بادىء ذي بدء ان الموضوع افضى الى نفاد . على ان الآراء تتبدل في اقل الاشياء تبدلاً . فان لم يكن لديك

الامهات يغطسن اطفالهن في المجرى تبركاً بطهارة المياه وخصائصها الالهية على ما ذهب اليه اعتقاد الاقدمين في الانهر جميعها .

١ النائيات ترجمنا بها كلمة Naiades اصطلاحاً، وهي آلهات من بنات جوبيتر تشرف على الينابيع والانهر .

٢ يدلك الاناء بالمزيج وهو اللوز المر ، فيصبح سائغاً خفيفاً .

٣ يعنون في وضع آنية خزفية غير مطلية بالميناء في جميع الغرف يرشح الماء منها باستمرار ، وكلما رشح الاناء زادت برودته . وتراهم من اجل هذا السبب يعلقونه غالباً في مجاري الهواء وفي ظلال الاشجار . وفي سوريا يشربون الماء الراشح، فيما يشربون في مصر الماء المستقر في الاناء . ومهما يكن من امر فليس من بلد كهذه البلاد في كثرة احتساء الماء . وان اول امر يأتيه المصري عند دخوله الى بيت هوان يقبض على « القلة » ويشرب منها جرعة كبيرة . ولما كان العرق يتصبب غزيراً من المصريين فلا ترعجبهم كثرة الشرب .

في بعض الاحيان جديد يقال ، فلا اقل من ان تصلح ما قيل . وهذا هو شأني تجاه بعض الآراء التي ضمنها المسيو سافاري رسائله وقد مثلت بالطبع حديثاً . فان ما اراد اثباته من امر انبساط الدلتا وارتفاعها يختلف عن النتائج التي ايدتها الوقائع في نظري والاسناد التي يحتج بها هو نفسه اختلافاً يحملني على بسط مناقضاتنا امام الرأي العام . ومتى عرفت ان اقامة السيد سافاري امتدت الى سنتين في تلك البلاد ، بما يجعل لرأيه وزناً لا يلبث ان يصبح حجة راجحة ، تبين لك ضرورة هذا الجدل الذي اباشره . فلنبسط المسائل ولنعالج اولاً قضية انبساط الدلتا او اتساعها .

ان مؤرخاً يونانياً قد ذكر عن مصر كل ما نعرفه عنها تقريباً وما تؤيده الايام . عنيت به هيرودوتس الهاليكرنافي Hérodote d'Halycarnaffe الذي كتب من اثنين وعشرين قرناً ما يلي :

« ان مصر حيث ينزل الاغارقة من البحر (الدلتا) هي ارض مكتسبة ، وهي هبة النهر شأن كل الاصقاع المستنقعة التي تمتد صعداً على مسافة ثلاثة ايام ركوباً في النهر . »

والاسباب التي يحتج بها اثباتاً لقوله تدل على انه لا يسندها الى حكم مبتسر ، اذ يقول :

« وفي الواقع ان ارض مصر التي هي من الطين الاسود الاغضر تختلف تمام الاختلاف عن ارض افريقيا الرملية الحمراء وعن ارض جزيرة العرب الخزفية المصخرة ... وهذا الطين ينقله النيل من اثيوبيا ... والاصداف التي تحتويها الصحراء تدل دلالة كافية على ان البحر ، فيما سلف ، كان اكثر اقتحاماً للارض . »

ان هيرودوتس باعترافه بتخطي النهر ، وهو امر يوائم طبيعة الاشياء ، لم يعين مدى تخطيه . على ان سافاري حسب انه بامكانه ان يفعل . فلنتفحص كيف علل ذلك :

« ان مصر [1] اذا تزايدت ارتفاعاً تزايدت في الطول ايضاً . وبين الوقائع الكثيرة التي اوردها التاريخ اختار واحدة فقط . انه في ايام الملك بسامتيكوس رست مراكب الميليزيين وعددها ثلاثون عند مصبّ بلبطين ، وهي اليوم الرشيد ، وتحصنوا فيها . وبنوا مدينة اسموها متليس (راجع استرابون، الكتاب ١٧) ، وهي « فوّة » التي احتفظت باسم « مسيل » في مصطلحات الاقباط . ان هذه المدينة ، التي كانت فيما مضى على البحر ، اصبحت تبعد عنه اليوم تسعة فراسخ . وهو المدى الذي انبسطت عليه الدلتا من ايام بسامتيكوس الى اليوم . »

اول ما يتبادر الى الذهن ان هذا التعليل في منتهى الدقة . على اننا برجوعنا الى الاصل الذي استقى منه سافاري نجد انه غفل عن الامر الاهم . واليك نص استرابون مترجماً بحرفه [2] :

« بعد مصب بلبطين يقوم رأس رملي منخفض يسمى قرن الحمل وينفذ بعيداً (في البحر) ، ثم يأتي مرقب برسيا وسور الميليزيين ، لان هؤلاء جاؤوا بثلاثين سفينة الى مصب بلبطين ونزلوا الى البر في ايام كسياكسارس ملك الميديين التي كانت ايام الملك بسامتيكوس ، وشيدوا الحصن الذي يتسم باسمهم . وما

١ رسائل عن مصر ، الجزء الاول ، الصفحة ١٦ .
٢ جورجوس استرابونيس، طبعة سنة ١٧٠٧، الكتاب ١٧، الصفحة ١١٥٢ .

انقضى زمن حتى تقدموا صوب سايس وقهروا الجناربس في معركة على النهر ، وانشأوا مدينة نقراطس فيما وراء شاديه . وبعد سور الميليزيين باتجاه مصب (الدلتا) تقع بحيرات منهـا بحيرة بوطس الخ ... »

هذه هي الفقرة التي يتكلم فيها استرابون عن الميليزيين ، ولا نرى فيها ذكراً لمتليس التي لم يرد اسمها في الكتاب كله . وقد استقاها دانفيل[1] عن بطليموس دون ان ينسبها الى الميليزيين . وما لم يثبت المسيو سافاري نسبة متليس الى سور الميليزيـين بتنقيبات قد يكون قام بها في المكان نفسه ، فـلا يجوز التسليم بقوله .

وقد حسب ان هوميروس يسدي اليه شهادة مماثلة في المقاطع التي يتكلم فيها عن المسافة بين جزيرة المنـار ومصر ، وسيحكم القارىء اذا كان هنا اكثر توفيقاً . اني اورد ترجمة مدام داسيه[2] وهي عـلى كونها اقل روعة من غيرها ، إلا انها اكثر تقيداً بالحرف :

« روى منيلاس انه تقوم في البحر مقابل النيل جزيرة تدعى المنار ، وهي تبعد عن احد مصابّ هذا النهر مسافة ما يقطع في يوم واحد مركب تواتيه الرياح ... (وبعد ذلك يقول بروتيوس لمنيلاس) : ان القدر القاسي لا يسمح بان ترى وطنك العزيز ... ما لم تعد مرة اخرى الى النهر (ايجوبتوس) وتقدم الذبائح الكاملة

١ راجع مذكرات دانفيل الرائعة عن مصر ، طبعة سنة ١٧٦٥ ، ص ٧٧ .
٢ الاوذيسة ، الكتاب الرابع .

الى الخالدين . (واستطرد منيلاس) : قال هذا وامتلأ قلبي كآبة وألماً لان هذا الاله يأمرني بالرجوع الى النهر ايجوبتوس الذي تحف طريقه المشقات والمخاطر . »

يريد المسيو سافاري في هذه الشواهد وعلى الاخص اولها ان يستخلص ان المنارة ، وهي اليوم لاصقة بالشاطىء ، كانت فيما مضى بعيدة عنه كثيراً . على ان هوميروس عندما ذكر المسافة من هذه الجزيرة لم يشأ تطبيقها على « الشاطىء » المقابل كما ترجم الرحالة ، بل على « ارض مصر » و « نهر النيل » ، ومن جهة ثانية انه من الخطأ القول ان « نهار الابحار » يعني المسافة غير المحدودة التي تستطيع اجتيازها مراكب الاقدمين ، وكان الاغارقة باستعمالهم هذا التعبير يخصونه بمقدار ثابت هو خمسمائة واربعون غلوة[1] . ويوضح هيرودوتس هذا الامر صراحة فيورد عليه مثلا ويقول ان النيل تجاوز على البحر بالارض التي تمتد صعداً حتى ثلاثة « ايام إبحار » ، وان الالف والستمائة وعشرين غلوة التي تحصل توافق حسابه الادقّ لمسافة الالف والخمسمائة غلوة الواقعة بين هليوبولس والبحر على ما ذكر في مكان آخر . فاذا ما اعتبرنا مع دانفيل ان الخمسمائة واربعين غلوة تساوي سبعة وعشرين الف خطوة[2] ، اي ما يقرب من نصف درجة ، نرى بواسطة البركار ان هذا المقياس يوازي المسافة بين المنارة والنيل نفسه ، وهي تنطبق خاصة على ثلثي فرسخ فوق

١ قلنا غلوة ، وهي مقدار رمية سهم من ثلاث مئة الى اربع مئة ذراع ، ترجمة الكلمة الفرنسية Stade التي تفيد عند اليونانيين مقدار ٦٠٠ قدم يونانية .

٢ الخطوة مقياس طوله ست اقدام واستعملناها لتعريب كلمة toise وهي مقياس طوله ست اقدام ايضاً .

الرشيد ، في مكان يحق لنا بعض الحق ان نُحلّ فيه المدينـــة التي اعطت اسمها لمصبّ بلبطين . ومن الجدير بالذكر انها المدينة التي تردد عليها اليونانيون ونزل فيها الميليزيون قبل هوميروس بقرن ونصف القرن . فليس ما يثبت اذن ان تجاوز الدلتـــا او القارة حصل بالسرعة التي يفترضونها افتراضاً . فاذا سلمنا بها بقي علينا ان نفسّر كيف ان هذا الشاطىء الذي لم يكسب نصف فرسخ من ايام الاسكندرية ، قد كسب احد عشر ميلاً في سحابـــة زمن لا تحسب شيئاً بالنسبة الى الاولى ، قد انقضت بين منيلاس وذلك الفاتح [1] .

وثمة طريقة اصح لتقدير هذا التجاوز في اعتماد القياس الوضعي الذي ذكره هيرودوتس ، واليك النص :

« ان عرض مصر في البحر من الخليج البلنتيني حتى مستنقعات سربونيديا بالقرب من قاسيوس هو ثلاثة الاف وستمائـــة غلوة ، وطولها من البحر حتى هليوبولس الف وخمسمائة غلوة . »

فلنحصر همنا في هذه الفقرة . لقد برهن دانفيل بحذقه المعتاد ان غلوة هيرودوتس يجب ان تقدر بخمسين او احدى وخمسين خطوة فرنسية . فاذا اعتمدنا هذا الرقم تبين ان ١٥٠٠ غلوة توازي ٧٦٠٠٠ خطوة ، اي درجة وما يقرب من الدقيقة ونصف الدقيقة . والحال

١ يؤخذ على هوميروس عدم الدقة بجزمه ان المنارة كانت تقع مقابل النيل . ولكن له عذره في انه تكلم عن مصر كما يتكلم عن طرف العـــالم ، فلم يهتم بالتوضيح الواجب . ومن جهة اخرى فان الفرع القنوبي canopique من النيل كان يجتـــاز البحيرات لينفتح قرب ابوقير ، واذا صح انه مر في غربي ابوقير كما يحملني على هذا الاعتقاد منظر الارض ، يكون هوميروس على صواب بقوله ان المنارة كانت مقابل النيل .

ان الملاحظات الفلكية التي ابداها نيبوهر رحالة ملك الدانمارك في السنة ١٧٦١ [١] تدل على ان فرق العرض بالنسبة لخط الاستواء بين هليوبولس (حالياً المطرية) والبحر هو درجة وتسع وعشرون دقيقة تحت دمياط ودرجة واربع وعشرون دقيقة تحت الرشيد فيحصل من جهة ثلاث دقائق ونصف الدقيقة او تجاوز مسافة فرسخ ونصف الفرسخ ، ومن الجهة الاخرى ثماني دقائق ونصف الدقيقة او ثلاثة فراسخ ونصف الفرسخ . ويدل هذا على ان الشاطىء القديم كان يضاهي احد عشر الف وثمانمائة خطوة فيما تحت الرشيد ، وهذا ما ينحرف بعض الانحراف عن الخط الذي اراه في فقرة هوميروس ، في حين ان التطبيق على فرع دمياط ينزل الى تسعمائة وخمسين خطوة تحت المدينة المذكورة . صحيح ان القياس فوراً بواسطة البركار يجعل ان خط الشاطىء يتصاعد نحواً من ثلاثة فراسخ لجهة الرشيد ، ويقع على دمياط نفسها ، وهذا ما يحصل من حساب المثلث باعتبار الفرق في الطول . ولكن بلبطين التي اشار اليها هيرودوتس تصبح عندئذ خارج الخط ولا يبقى صحيحاً ان بوسيريس في وسط الدلتا على ما ذكر المؤرخ نفسه . ولا ريب ان ما اورده القدماء وما نعرفه نحن عن هذا المكان ليس من الوضوح بحيث يجوز لنا ان نعين بدقة درجات التجاوز المتعاقبة . ولا يستطيع التفكير بجزم إلا من تهيأ له القيام بابحاث كالتي قام بها الكونت ده شوازول Le Comte de Choiseul في مياندريا ، ويقتضي لذلك تنقيب في الارض . على ان اعمالاً من هذا النوع

١ راجع رحلة الى جزيرة العرب ، نيبوهر .

تستدعي تآلف اسباب لا يتيسر وجودها إلا للقليل من الرحالين .
وتشخص هنا صعوبة ناشئة عن كون الارض الرملية التي تتكون
منها الدلتا تتبدل من يوم الى آخر تبديلاً عظيماً ، لان البحر والنيل
ليسا عامليها الوحيدين ، فالريح هنا طويلة الباع ، فهي تارة تملأ
الترع وتدفع النهر على ما حدث للساعد القنوبي القديم ، وتارة تسفي
الرمال وتدفن الخرائب حتى تمحو معالمها . ويورد نيبوهر مثلاً
جديراً بالنظر ، وهو انه يوم كان في الرشيد سنة ١٧٦٢ كشفت
المصادفة في تلال الرمل القائمة جنوبي المدينة عن اخربة قديمة مختلفة
بينها عشرون ركيزة جميلة من الرخام تمت الى الفن الاغريقي ،
ولم يرد في التقاليد اسم المدينة التي كانت قائمة هناك[١] . وقد بدا
لي ان الصحراء المجاورة على النمط نفسه . ان هذه الرقعة التي كانت
فيما سلف عامرة بالترع والمدن اصبحت تلالاً كاسية بالرمال الناعمة
الصفراء التي تركمها الرياح على قدم كل حاجز وكثيراً ما تغمر
النخيل. ولذلك ، وعلى ما بذل دانفيل من جهد ، فلا يمكن الركون
بتأكيد الى مطابقاته بين كثير من الاماكن القديمة والحديثة .

اما سافاري فقد كان اكثر اصابة في ما ذكره عن احدى
ثورات النيل التي يبدو منها ان هذا النهر قد انساب كله فيما سلف
عبر ليبيا في غربي منفيس . على ان رواية هيرودوتس نفسه التي
اعتمدها سافاري تصطدم وبعض المصاعب . يقول هذا المؤرخ نقلاً
عن كهنة هليوبولس ان مينيس اول ملوك مصر قد سدّ الكوع
الذي كان يدور فيه النهر على مسافة فرسخين وربع الفرسخ

١ ان هذا الموقع يوافق كثيراً بلبطين .

(مائة غلوة) تحت منفيس واحتفر له مجرى جديداً شرقي هـذه المدينة . ألا يستدل من هذا ان منفيس كانت حتى ذلك الزمن في صحراء قاحلة محرومة مـن الماء ؟ وهل يجوز التسليم بهـذا الافـتراض ؟ أيصح التصديق بالحرف ان مينيس قام بهـذه الاعمال العظيمة وانشأ مدينة ورد انها كائنة قبله ، وان يكون حفر الاقنيـة والبحيرات واقام الجسور وشيد القصور والهياكل والارصفة ، كل ذلك في بدء نشأة أمة وفي طفولة جميع الفنون ؟ ومينيس هذا هل هو مؤرخ ؟ أليست روايات كهنة تلك الجاهلية من صعيد الميثولوجيا ؟ في اعتقادي ان المسيل الذي سدّه مينيس لم يكن الا انحرافاً في النيل من شأنه ايذاء الري في الدلتا . وما يعزز هذا الافتراض ، على رغم شهادة هيرودوتس ، انك اذا سرحت النظر من الاهرام ، في هذا الوادي ، لا تتبين فيـه اي مضيق يحمل على الظن بقيام حاجز قديم هناك . ويلوح ان سافاري اجهد نفسه ليبين ان الفجوة الكبيرة المسماة « بحر بلا مـاء » اشارة الى كونها مجرى قديماً للنيل ، كانت تنتهي الى السد الوارد ذكره تحت منفيس ، في حين ان جميع الرحالين الذين المع اليهم دانفيل يجعلون نهايتها في الفيوم التي هي تتمة طبيعية لها [1] . ويقتضي لاثبات هذا الواقع الجديد رؤية الامكنـة نفسها . ولم اسمع قط في القاهرة من قال ان سافاري قد تقدم في الجنوب الى ما يجاوز اهرام الجيزة . ان تكوين الدلتا الذي يستدل عليه سافاري من

[1] يدلك تفحص الخارطة على ان مجرى النهر كان في هذا المكان . اما الصواري والسفن المتحجرة التي تكلم عنها سيكار فهي تحتاج الى ان يثبتها رحالون اوسع علماً من هذا المرسل .

هذا التبدل امر لا يعقل ، اذ كيف يجوز لك « في هذه الثورة المفاجئة » ان تتصور « ان وطأة المياه الهائلة التي انصبت في مدخل الخليج قد جزرت مياه البحر » ? ان اصطدام كتلتين سائلتين لا يحدث الا امتزاجاً لا يلبث ان يفضي الى مستوى مشترك بينهما . صحيح ان الرحالة يضيف : « لقد تراكم الطين والرمل اللذان جرهما النيل ، وجزيرة الدلتا التي كانت صغيرة بادىء ذي بدء قد خرجت من مياه البحر وارجعت حدوده . »

ولكن كيف تخرج جزيرة من البحر ? ان المياه الجارية تحدث انبساطاً لا تراكماً ، وهذا ما يسوقنا الى مسألة الارتفاع .

الفصل الثالث

ارتفاع الدلتا

ان هيرودوتس ، الذي عرف عن الارتفاع ما عرفه عن الانبساط ، لم يتطرق الى مقدار كليهما . على انه اورد واقعة يستند اليها سافاري ليخلص منها الى نتائج وضعية . واليك ملخص قوله :

« في ايام مواريس الذي عاش قبل حرب طروادة بخمس مئة سنة ، كانت ثماني اذرع كافية لغمر الدلتا في كامل اتساعها . ولما جاء هيرودوتس الى مصر كان يقتضي لذلك خمس عشرة ، وفي عهد الامبراطورية الرومانية ست عشرة ، وفي ايام العرب سبع عشرة . اما اليوم فالحد المؤاتي ثماني عشرة ، والنيل يضخم حتى اثنتين وعشرين . واذن فقد ارتفعت الدلتا اربع عشرة ذراعاً خلال ثلاثة الاف ومائتين وثمانين سنة . »

نعم ، اذا سلمنا بالوقائع على ما بسطت . بيد اننا اذا استقيناها من ينابيعها نجد ان بعض اللواحق تشوه المبادىء والنتائج . فلنورد نص هيرودوتس :

« يروي الكهنة المصريون انه في ايام الملك مواريس كان النيل يغمر الدلتا بارتفاعه ثماني اذرع فقط . وفي ايامنا نحن لا يمتد على البلاد اذا لم يرتفع ست عشرة ذراعاً او خمس عشرة على

الاقل . والحال انه لم تنقض بعد تسعمائة سنة على موت مواريس حتى يومنا هذا . »

فلنحسب : من مواريس حتى هيرودوتس : ٩٠٠ سنة ، من هيرودوتس حتى ١٧٧٧ : ٢٢٣٧ ، او الفان ومئتان واربعون سنة اذا شئت ، فيكون الجمع ٣١٤٠ .

فمن اين اتت الزيادة (١٤٤ سنة) في حساب المسيو سافاري ؟

ولمَ يعتمد حساباً غير حساب المؤلف ؟

فلنتخطَ ذلك الى التسلسل التاريخي .

في ايام هيرودوتس كان يقتضي لغمر الدلتا ست عشرة ذراعاً او خمس عشرة على الاقل ، كذلك في ايام الرومانيين كان الحد المعين خمس عشرة وست عشرة .

يقول استرابون : « ان الفيضان لم يكن ليعم البلاد ، قبل بترونيوس ، ما لم يبلغ ارتفاع النيل اربع عشرة ذراعاً . » على ان هذا الحاكم كان يحصل عن طريق الفن على ما كانت الطبيعة تضن به . فكان الفيضان يعم اذا ما ارتفع النيل اثنتي عشرة ذراعاً . ولم ينقض العرب هذا القول . فان احد كتبهم ينطوي على جدول مفصل لجميع فيضانات النيل من السنة الاولى للهجرة (٦٢٢) حتى السنة ٨٧٥ هجرية (١٤٧٠) . ويتبين من هذا الكتاب ان النيل ، في احدث العهود ، اذا كان عمق مجراه اربع عشرة ذراعاً ، فالخير والمؤنة مضمونتان لسنة ، او كان عمقه ست عشرة فالمؤنة لسنتين ، ولكنه اذا تدنى عن اربع عشرة او بلغ الثاني عشرة فهنالك قحط . وهذا ما يتفق ورواية هيرودوتس .

ان الكتـاب الذي استشهدُ به عربي اللغة ، ولكن النتائج في متناول الجميع . وحسب المطالع ان يراجع كلمة « النيل » في المكتبة الشرقية لهربلو Herbelot او مختارات القلشندي في « رحلة » الدكتور شو .

ان نوع الاذرع لا يحتمل الالتباس . فقد برهن فريره ودانفيل وبايي Fréret, Dainville, et Bailli ان الذراع المصرية مـا انفكت محددة باربعة وعشرين قيراطاً مـــا يوازي عندنا عشرين قيراطاً ونصف القيراط . والذراع المصرية الحالية مجزأة الى اربعة وعشرين قيراطاً . على ان الاعمدة المستعملة لقياس علو النهر قد طرأ عليها تشويه لا يجوز اغفاله .

يقول القلشندي :

« تبين للعرب ، اول عهدهم في مصر ، ان الناس كانوا يتهافتون على جمع مؤنة السنة كلما ظهر ان النيل لم يبلغ حدّ الفيضـان . وكان هذا الامر يشوش النظام . فرفعت الشكوى الى الخليفة عمر ، فأمر عمرو ان يتفحص الامر . واليك ما بسط عمرو امام الخليفة : لقد قمنا بالبحث الذي امرت به ، فتبين لنا ان النيل اذا ارتفع الى اربع عشرة ذراعاً فالغلة تكفي للسنة ، واذا بلغ ست عشرة ذراعاً كانت الغلال فائضة ، ولكنها رديئة اذا كان الارتفاع اثنتي عشرة ذراعاً او ثماني عشرة . ولما كان الشعب يعرف ذلك بما يذاع عليـــه في الخطب عادة ، فقـــد نتجت بعض الامور التي تعرقل التجارة . »

وقد يكون عمر فكّر في الغاء الخطب تلافياً لهذه المحاذير ، ولكن الامر لم يكن مما يمكن حدوثه ، فابتدع – برأي ابي طالب –

طريقة اسفرت عن النتيجة نفسها . كان مقياس النيل مجزأ الى اذرع واحدتها اربعة وعشرون قيراطاً ، فأمر عمر باتلافه وابدل منه آخر وضعه في جزيرة الروضة ، وامر ان تكون اذرعه الاثنتي عشرة السفلى مؤلفة من ثمانية وعشرين قيراطاً عوضاً عن اربعة وعشرين ، وان تبقى الاذرع العليا على ما كانت عليه من قبل ، اي اربعة وعشرين قيراطاً للذراع الواحدة . وافضى الامر عندئذ الى ان النيل اذا علّم على المقياس درجة اثنتي عشرة ذراعاً كانت حقيقة ارتفاعه اربع عشرة ذراعاً ، لان كل ذراع من هذه الاذرع الاثنتي عشرة كانت تزيد اربعة قراريط اي مجموعاً مقداره ثمانية واربعون قيراطاً توازي ذراعين اثنتين ، بنوع ان الاعلان عن ارتفاع المياه الى اربع عشرة ذراعاً ، وهو الحد المؤذن بغلال « كافية » ، كان يشير في الحقيقة الى انها بلغت درجة « الفيض » . على ان هذه الخدعة التي جازت على الجمهور لم تفت مؤرخي العرب . فقد اضافوا على ما سبق ان مقاييس الصعيد – او مصر العليا – بقيت مقسمة على اساس اربعة وعشرين قيراطاً ، وان الحد « ثمانية عشر » كان دائماً ضاراً ، و « التسعة عشر » نادراً جداً ، والعشرين يكاد يكون اعجوبة [1] .

وما كان الاطراد اذن الا زعماً باطلاً ، وباستطاعتنا ان ندحضه بواقعة اولى هي ان حالة النيل لم تتبدل سحابة زمن معروف يطول الى ثمانية عشر قرناً ، فلماذا تبدلت حاله اليوم ، وكيف انتقل

[1] ان الدكتور بوكوك الذي ابدى ملاحظات صائبة كثيرة على النيل قد ضل كل الضلال في تفسير نص القلقشندي . وقد حسب بالاعتماد على فقرة مشبوهة ان مقياس النيل في عهد عمر لم يكن الا اثني عشرة ذراعاً ، وبنى على هذا الخطأ برجاً من الافتراضات .

منذ السنة الالف والاربعمئة والثلاث والسبعين من خمسة عشر قيراطاً الى اثنين وعشرين بمثل هذه المفاجأة؟ ان هذه المسألة سهلة الحل. ولست ابحث عن تفسير لها في الوقائع الطبيعية، بل في ملابساتها. فليس النيل هو الذي تبدل، بل العمود ومقاييسه. والسر الذي يحيطه به الاتراك يحول دون تثبت الرحالين فيه. على ان بوكوك الذي استطاع ان يراه سنة ١٧٣٩ يروي ان درجات الاذرع كانت مشوهة وغير متساوية. وهذا ما يحمل على الاعتقاد بان الاتراك مثلوا بعمر وشوهوا فيه تشويهاً جديداً. وثمة امر يبدد الشك في هذا الصدد: ان نيبوهر — الذي لا يجوز التريب في ملاحظته — قام سنة ١٧٦٢ بقياس معالم الفيضان على حائط في الجيزة، فتبين له ان النيل قد هبط في حزيران (يونيو) اربع وعشرين قدماً فرنسية، اذا حولتها الى اذرع باعتبار الذراع عشرين قيراطاً ونصف القيراط، حصل لك اربع عشرة ذراعاً وقيراطاً واحداً. صحيح ان النيل يستمر في الهبوط بعد ذلك ثمانية عشر يوماً، ولكن اذا حسبنا درجة هبوطه نصف ذراع بحسب تقدير بوكوك[١] يكون المحصل اربع عشرة ذراعاً ونصف الذراع. وهذا ما يلتقي والحساب القديم تمامــاً.

وثمة زعم اخذ به سافاري لا يمكنني التسليم به دون تحفظ. يقول في الصفحة الرابعة عشرة من رسالته الاولى:

«منذ اقامتي في مصر، درت حول الدلتــا مرتين حتى اني

١ في ١٧ ايار كان طول المقياس خارج المياه احدى عشرة قدماً، وفي ٣ حزيران احدى عشرة ونصف، اي نصف ذراع في مدة ١٧ يوماً.

اجتزنها من قناة المنوفية ، وكان النهر يجري مــلء ضفافه في ساعدي دمياط والرشيد وفي السواعد التي تخترق داخل البلاد ، ولكنه لم يكن يطمي على الارض الا في الاماكن المنخفضـة حيث كانت تبضع السدود لري حقول الارز . »

ويستنتج من هنا :

« ان الدلتا هي حالياً في الوضع الاكثر مواءمة للزراعة ، لان هذه الجزيرة بحرمانها الفيضان قد ربحت « كل سنة ثلاثة اشهر يقضيها الصعيد تحت المياه . »

ليس ما هو اغرب من هذا الربح ، فاذا كانت الدلتا تربح من عدم الفيضان فلاي سبب كان الفيضان مرغوباً فيه في اي زمن كان ؟

يقول ان « المجاري تقوم مقام الفيضان . »

على ان تشبيه الدلتا بغياض السين من الخطأ بمكان . فالماء ليس في مستوى الارض الا حيال البحر ، وهو دون مستواها في اي مكان آخر . والضفاف ترتفع كلما صعّدتَ في البر . واذا جاز لي ان اورد شهادتي ، اثبتُ انني عند انحداري من القاهرة الى الرشيد لاحظتُ في السادس والعشرين والسابع والعشرين والثامن والعشرين من شهر ايلول (سبتمبر) ١٧٨٣ ان بعض رقاع الحقول ما برحت مغطاة ، على كون المياه قد تقلصت عنها منذ خمسة عشر يوماً ، وان الاماكن المنكشفة تحمل آثار الفيضان . فالامر الذي يلمع اليه سافاري ، ان هو الا نتيجة فيضان رديء ، ولا يجوز القول ان ارتفاع الارض قد غير في حالة الدلتا[1] او ان الامر

[1] ان مجرى النهر قد ارتفع ايضاً كسائر الارض .

افضى بالمصريين الى ان يحصلوا على الماء بمجرد الوسائل الميكانيكية وهي مرهقة ومحدودة [1] .

بقي علينا ان نحل مسألة اذرع مواريس الثاني ، ولا احسب ان لها اسباباً من غير هذا النوع . يظهر ان المقاييس قد طرأ عليها تبديل بعد عهد هذا الامير ، فاصبحت الذراع ذراعين . ويعزز هذا الافتراض ان مصر لم تكن في عهد مواريس مملكة واحدة ، بل ثلاثاً ما بين اصوان والبحر . فجاء سيزوزتريس ووحدها بالفتح ، ولكنها عادت بعد هذا الامير الى انقسامها وظلت عليه حتى عهد بسامتيك . ان هذا الانقلاب في المقاييس ينطبق كل المطابقة على سيزوزتريس الذي احدث مثله في الحكومة . فهو الذي جدد الشرائع والادارة ، واقام السدود ، ومهد طرق المدن والقرى ، وحفر من الترع عدداً تمكنت معه مصر من اهمال العجلات التي كانت تستخدم حتى ذلك العهد ، على ما ذكر هيرودوتس [2] .

ومن الحسن ان نذكر ان الفيضان متفاوت الدرجات ، فهو غير متماثل في مصر كلها ، بل يتدرج في الهبوط كلما انحدر النهر . فالطمي في اصوان اضخم منه في القاهرة بمعدل السدس . وعندما يبلغ سبعاً وعشرين قدماً في القاهرة ، لا يكاد يبلغ اربع اقدام في دمياط والرشيد . ومرد ذلك الى ان النهر يرتفع اكثر فأكثر في مجراه الواحد وواديه الضيق برغم كمية الماء التي تتشربها

[1] تروى الدلتا السفلى بواسطة الدواليب لان المياه فيها بمستوى الارض ، ويختلف الامر في الدلتا العليا حيث تستخدم النواعير .

[2] هيرودوتس، الكتاب ٢ . ان هذه الرواية تسوؤ المؤرخين الحديثين الذين يجعلون سيزوزتريس قبل عهد موسى اذ كانت العجلات ما تزال مستخدمة .

الاراضي ، وبالعكس فهو بعـد مجاوزته القاهرة وانعتـــافه من تضييق الجبال عليه وتوزعه بين آلاف الشعاب ، يخسر حتماً في العمق ما يربحه في الانبساط .

'يدرك بما ذكرت مبلغ غرور الذين توهموا انهم عرفوا بالضبط مقدار ارتفاع الدلتا وتوسعها. ولكنني ، وقد نبذت الاحوال التوهمية ، لا يسعني انكار اساس الوقائع نفسها ، فهي مؤيدة بالتعليل وبتفحص الارض . مثل ذلك ان ارتفاع الارض يثبته ، في نظري ، أمر لم يؤبه له كثيراً : انك اذا ذهبت من الرشيد الى القاهرة ، والمياه منخفضة شأنها في شهر اذار (مارس) ، تبين لك كلما صعدت في النهر ان الضفة ترتفع تدريجياً فوق المياه ، فاذا علاها قدمين في الرشيد علاها ثلاثاً او اربعاً في القوّة واكثر من اثنتي عشرة في القاهرة . فاذا علمنا هذا الواقع يمكن الاستدلال منه على ارتفاع الارض بفعل الرواسب ، لان طبقة الطين التي تتناسب وسماكة طبقات الماء الراسبـــة منها يجب ان تكون اكثف او الطـف بحسب عمق الطبقات ، وقد رأينا انها تسير بتدرج مماثل من اصوان حتى البحر .

ويظهر تضخم الدلتا بصورة مدهشة في شكل الارض المصرية على البحر المتوسط . فاذا توسمتها على الخارطة رأيت ان الارض التي في خط النهر – تلك الارض المكونة من مادةٍ غريبة – قد اتخذت نتوءاً نصف دائري ، وان خطوط شاطىء جزيرة العرب وافريقيا التي يضفو عليها تذهب في اتجاه ولوجي نحو عمق الدلتـا يدل على ان هذه الارض كانت خليجاً ملأه الزمن .

ان ظاهرة المَلء ، وهي عامة لكل الانهر ، تجري بطريقة آلية

عامة ايضا ، فمياه الامطار والثلوج المنحدرة من الجبال الى الاودية تجترف ما تقتلعه من الاتربة في سقوطها . اما القسم الوازن من هذه الانقاض كالحصى والرمال فلا يلبث ان يقف اذا لم يدفعه تيار سريع . على ان المياه اذا لم تصادف الا تربة ناعمة خفيفة فهي تحمل منها كميات وافرة وتجر كثبانها بسهولة . والنيل الذي صادف من امثال هذه المواد في بلاد الحبشة وافريقيا الداخلية قد استخدمها لتعجيل العمل . فقد حملتها مياهه وامتلأ منها مجراه ، حتى انه غالباً ما يرم بها وعرقلت مجراه . على انه عندما يستعيد قواه بالفيضان يدفع هذه الكثبان الى البحر ، ويستقدم غيرها في الوقت نفسه للفصل التالي : فاذا ما بلغت الاوحال مصبه تراكمت وتكونت منها رملات ، لان المنحدر يخفف من فاعلية المجرى ، في حين ان البحر يقيم توازن مقاومة . وينتج عن ذلك ركود يضطر العكر الطافي ان ينحدر الى اسفل ويستقر في الاماكن الاقل اضطراباً كالشواطىء . وهكذا يثرى الريف شيئاً فشيئاً من انقاض البلاد العليا والدلتا نفسها ، لان النيل ينتزع من الحبشة ما يعطي الصعيد ، ومن الصعيد ما يعطي الدلتا ، ومن الدلتا ما يدفعه الى البحر . فحيثما ينساب يعرّي الارض التي يغنيها في وقت معاً . فاذا صعدتَ نحو القاهرة ، والمياه منخفضة ، رأيتَ الحوافي المنحوتة عمودياً تنهار رقماً لان النيل يحتفرها شيئاً فشيئاً من اسافلها ، مانعاً تربتها الرقيقة من السند ، فتنهار في مسيله . وعند فيوضة المياه تبتل التربة وتنداف ، ثم لا تلبث ان تتفلّع بفعل الشمس والجفاف وتتساقط رقعاً كبيرة يجرها النيل . وعلى هذه الصورة تكبست الترع الكثيرة واتسع غيرها بارتفاع قعر النهر ارتفاعاً مستمراً . وهذا ما حدث

للترعة الممتدة من النُضير الى فرع دمياط . فهذه القناة التي حفرتها في البدء يدُ الانسان قد اصبحت شبيهــة بنهر السين في اماكن متعددة ، وهي تسد مسد الفرع الاصلي الواصل بطن البقرة بالنضير الذي يتكبس حتى يوشك ان يصبح ارضاً يابسة اذا لم يُستفرغ . وسبب ذلك ان النهر ينزع باستمرار نحو الخط المستقيم حيث هو اكثر ما يكون قوة واندفاعاً . وهو من اجل هذا السبب نفسه قد تحـول نحو فرع بلبطين الذي لم يكن في الاصل إلا قناة اصطناعية .

ويستدل ايضاً من حركات النهر هـذه ان التكبس يجب ان يحدث على خطوط المصـاب الكبرى والتيارات الاشد . ومنظر الارض ينطبق على هذه النظرية ، لان تفحص الخارطـة يدل على ان نواتىء الارض اكثر ما تلاحظ في اتجاه ساعدي دميــاط والرشيد ، ومـا يجاورهما او يتوسطها من الاراضي بقي بحيرات ومستنقعات شائعـة بين اليابسة والبحر ، لان الاقنية الصغيرة التي تتخللها لم يكن في استطاعتها ان تحدث الا تكبساً ناقصاً . فالرواسب والطين تنهد ببطء لا يرتفع بها الى ما فوق المياه ما لم يتدخل عامل اكثر فاعلية وهو البحر . فهو الذي يعمل دون ما تمهل على رفع مستوى الشطوط الواطئة فوق مياهـه . وفي الواقع ان امواجه المتلاشية على الشاطىء تدفع ما تصادفه مـن طين ورمل ، وتركم دفعاتُها هذا السد الطفيف وتكسبه ارتفاعاً لا يتيسر قط في المياه الساكنة . وهذه الظاهرة يتحسسها السائر على ضفاف البحر عند شاطىء واطىء خاسف ، شرط الا يكون للبحر تيارات على الساحل ، لانه اذا كان يجسر في الاماكن

التي تدور فيها مياهـــه فهو يربح حينما تتحرك . ومتى اصبحت الرملات الخصبة في مستوى المـاء استولت عليها يد الانسان ، ولكن عوضاً عن ان يقال انها رفعت مستواها فوق المياه يجب ان يقال انها انزلت مستوى المياه ، لان الاقنية المحفورة تجمع في مساحات صغيرة طبقات الماء التي كانت تمتـد على مساحات اكثر اتساعاً [1]. ويبدو ان الدلتا تكونت ببطء استمر سحابة قرون مجهولة المدى ، ولكن الطبيعة لا يعوزها الزمن .

لا شك ان المجال ما يزال واسعاً في هـذه البلاد للاستقراء واعادة النظر ، ولكنهما ، على ما سبق وذكرت ، يصطدمان بعقبات يحتاج تذليلها الى وقت ومهارة وبذل . وكثيراً مـا تكون العقبات العرضية اكثر خطورة من العقبات الجوهرية . دليـــل ذلك مـا حدث للباورن دي توت le Baron de Tott في صدد مقياس النيل . فقد بذل المال عبثاً للمنادين حتى يتبين حقيقـــة ارتفاع النيل ، فكانت اقوالهم المتناقضة تدل على احـد امرين : اما سؤ النية ، او الجهل المشترك . وقـد يقول قائل انه يحسن صنع ركائز قياسية في بيوتات خاصة . بيد ان هـــذه العمليات البسيطة نظرياً ، مستحيلة التحقيق عملياً ، وتعرض من باشرها الى اخطار جسيمة ، لان مجرد فضول الفرنسيين عند قدومهم يسوء الاتراك ، فهم يحسبون ان لهم مطمعاً في البلاد ، لان ما يقوم به الروس مضافاً الى الاظانين السائرة لمما يعزز فيهم الريب ، وتروج

[1] ان عدد هذه الاقنية من الاسباب التي تتغير معها درجات الفيضان ، فـــاذا كانت الاقنية كثيرة عميقة كانت المياه اكثر سرعة واقل ارتفاعـــاً ، ويحدث العكس اذا كانت قليلة سطحية.

في هذا الوقت الشائعات ان الزمن المتنبأ عنه قد حل ، وان ثمة انقلاباً في الحكم والدين والمصير الخ الخ . وبعد ، فلنعد الى ما نحن في صدده .

اني الم الماماً خفيفاً بفصل[1] الفيضان وهو معروف، وبتدرجه تدرجاً ضئيلاً وغير فجائي ، وبتنوع حالاته التي تظهره تارة خفيفاً وتارة شديداً ، او بما لا يؤبه له في بعض الاحايين . والحالة الاخيرة نادرة جداً وان تكن قد حدثت مرتين او ثلاثاً على ما يذكرون . ان جميع هذه الامور عمت معرفتها الى حد لا يجوز معه التكرار . ومن المعروف ايضاً ان اسباب تلك العوارض التي كانت لغزاً[2] للاقدمين لم تعد لغزاً للاوروبيين . فمنذ انبأهم رحالوهم ان الحبشة والبقاع الملاصقة لها من افريقيا تغمرها الامطار في ايار وحزيران وتموز ، فقد استدلوا بذلك على ان تلك الامطار بحكم طبيعة الارض تنحدر من آلاف الجداول وتستجمع في وادٍ واحد لتظهر على الضفاف البعيدة غمراً مهيباً يستغرق سيلانه ثلاثة شهور .

اننا نترك للفيزيين اليونانيين الزعم القائل بان ضغط الرياح الشمالية يوقف مجرى النهر . ومن العجب ان يكونوا القائلين بهذا التفسير ، لان الريح اذا كانت تؤثر في سطح المياه فهي لا تحول دون خضوع العمق للانحدار . وعبثـاً حاول بعض المعاصرين الاستشهاد بمثل البحر المتوسط الذي اذا ما استمرت الريح الشرقية

[1] يحددون له موعداً ثابتاً في ١٩ حزيران ، ولكن من الصعب تعيين دقائقـه الاولى بالدقة التي يريدها الاقباط.

[2] ولكن ديموقريطس قد حل هـذا اللغز . راجع تاريخ ديودورس سيسيليا ، الكتاب الثاني .

يعري شاطىء سوريا مقدار قدم او قدم ونصف القدم ليغطي شواطىء اسبانيا بالمقدار نفسه، حتى اذا هبت الريح الغربية كان المفعول معكوساً . فلا وجه مقابلة بين بحرٍ لا انحدار فيه ونهر، وبين بسطة المتوسط والنيل، وبين ست وعشرين قدماً وثمانية عشر قيراطاً .

الفصل الرابع

في الرياح واعراضها

ان تلك الرياح الشمالية التي تعود كل سنة في مواقيت معينة تجمع في سماء الحبشة ركاماً عجيباً من السحب. فمن نيسان الى تموز لا تنفك الغيوم متجهة نحو الجنوب حتى يخيل اليك ان المطر وشيك السقوط، ولكن عبثاً تطلب من هـذه الارض المحرقة نعمة كتلك. فلا مطر قط في الدلتا ابان الصيف، حتى انه نادر شحيح خلال السنة. امـا السنة ١٧٦١ التي لاحظها نيبوهر فقد كانت ظاهرة غريبة ما برح الناس يتحدثون بها. والحوادث التي نشأت عن الامطار وقتئـذ في مصر السفلى، كانهيار بعض القرى الترابية المساكن، تدل دلالة كافية على ان الناس قليلاً ما يتوقعون هذه الغزارة في الامطار. ويرى الملاحظ ان المطر يصبح نادراً كلما رقي نحو الصعيد. فهو في الاسكندرية والرشيد اكثر حدوثاً منه في القاهرة، وفي القاهرة اكثر حدوثاً منه في المنيا، ويكاد يكون اعجوبة في جرجا. ولا يمكننا نحن سكان النواحي الرطبة ان نتصور كيف يعيش قطر بلا قَطر[1].

١ اذا نزل المطر في مصر وفلسطين تملك الشعب فرح عميم، فيجتمع الناس في الازقة ينشدون الاناشيد صارخين بملء اصواتهم: يا الله، يا مبارك!

على ان كميات المياه التي تختزنها الارض من الفيضان في مصر فضلاً عن الندى الهامي في ليالي الصيف لما يكفي النبات . والبطيخ احد الشواهد البينة ، اذ غالباً ما يكون جذعه في تراب جاف ، فيما تنعم اوراقه بالطراوة . وثمة ظاهرة مشتركة بين هذه الانداء والامطار ، فهذه كتلك غزيرة صوب البحر تتناقص كلما ابتعدت عنه ، وتختلف في ان الانداء اقل في الشتاء منها في الصيف . وحالما تغيب الشمس عن الاسكندرية في شهر نيسان تبتل الثياب والسطوح كما لو كان شتاء . وهذه الانداء ، كالامطار ، كثيفة او لطيفة بحسب نوع الريح الطالعة . فالريح المقبلة من الجنوب او الجنوب الشرقي لا تجود بها ، والشمالية غزيرة منها ، والغربية اغزر ايضاً . ومن السهل تعليل هذه الفوارق متى لوحظ ان الريحين الاوليين تقبلان من صحارى افريقيا وجزيرة العرب حيث لا تقعان على قطرة ماء ، في حين ان الشمالية والغربية تطردان نحو مصر ابخرة المتوسط الذي تجتازه احداهما عرضاً والاخرى في مسافة طوله . واني ارى ، اذ اقابل ملاحظاتي في البروفانس وسوريا ومصر بملاحظات نيبوهر في جزيرة العرب وبومباي ، ان مواقع البحار بالنسبة لليابسة انما هي السبب في تعدد خصائص الريح الواحدة التي تبدو ممطرة في بلد على كونها جافة ابداً في بلد آخر . وهذا الامر يحل كثيراً في مذاهب الفلكيين القدماء والحديثين القائلين بتأثيرات الكواكب .

وثمة عارض آخر عجيب ، عنيت به عودة كل ريح من الرياح عودة دورية ، وتخصصها – اذا صح التعبير – ببعض فصول السنة . وهذا الانتظام في مصر وسوريا جدير باستيقاف النظر .

وفي مصر ، عندما تقترب الشمس من مناطقنا ، تنتقل الرياح التي في الشرق الى دائرة الشمال وتلبث فيها . وفي حزيران تهب باستمرار من الشمال والشمال الغربي . وهذا الفصل يؤاتي السفر الى الشرق ، حتى ان السفينة التي تقلع من مرسيليا باستطاعتها ان تلقي مراسيهـا في قبرص او الاسكندرية في اليوم الرابع عشر ، وفي بعض الاحيان في اليوم الحادي عشر من اقلاعها . والرياح في تموز لا تزال تهب شمالية متنقلة يميناً وشمالاً بين شمالية غربية وشمالية شرقية . وتصبح شمالية صرفاً في اواخر تموز وطوال آب والنصف الاول من ايلول ، فتكون معتدلة ، اكثر ما تخفق في النهار ، فيما هي في الليل اكثر سكوناً . ويسود المتوسط سكون شامل تمتد معه العودة الى فرنسا حتى سبعين يوماً او ثمانين .

وفي اواخر ايلول عندما ترجع الشمس عن خط الاستواء ، تعود الرياح الى الشرق ، وهي وان لم تستقر فيه تهب منه اكثر من هبوبها من اي جزء آخر من اجزاء دائرة الرياح باستثناء الشمالي منها . وتغنم السفن فرصة هذا الفصل الذي يستمر طوال تشرين الاول لتعود الى اوروبا ، فيستغرق مسيرها الى مرسيليا خمسة وثلاثين يوماً او ثلاثين . وكلما انقلبت الشمس عن خط الدائرة تصبح الرياح اكثر تقلباً واضطراباً ، وتزداد المناطق الشمالية وما جانبها من شرق وغرب ، وتبقى على حالتها هذه في كانون الاول وكانون الثاني وشباط ، ويتألف منها في مصر وعندنا فصل الشتاء . ويحدث عندئذ ان الجزرة المتوسط المتراكمة والمثقلة ببرودة الهواء تقترب من اليابسة وتكوّن الضباب والامطار . اما في اواخر شباط وفي آذار عند اقتراب الشمس من خط الاستواء فتهب

الرياح اكثر من اي وقت آخر من الجنوب . وهي في هذا الشهر ، كما في نيسان ، تهب جنوبية وجنوبية شرقية وجنوبيــة غربية . وتمتزج بها الغربية والشمالية والشرقية . وهذه الاخيرة تصبح عادية في آخر نيسان ، وتتسلط مع الشمالية على البحر في ايار ، وتجعل مدة العودة الى فرنسا اقصر مما كانت عليه قبل ان يعـادل الليل النهار على هذه الصورة .

السموم او الخمسين

هذه الرياح الجنوبية التي تحدثتُ عنها يطلق عليهـــا في مصر اسم رياح الخمسين ، ليس لانها تستمر خمسين يوماً متوالية ، بل لانها اكثر ما تهب في اثناء الخمسين يوماً التي تدور حول الاعتـدال الربيعي . وقد ذكرها الرحالون في اوروبا باسم الرياح المسمومة [1] ، او بتعبير اصح « الرياح الصحراوية الحارة » . وهذه هي في الواقع خاصتها ، لان حرارتها ترتفع الى حد يصعب معه على المرء ان يتمثل ما هي ما لم يكابدها بنفسه ، ولكن يمكن تشبيه تأثيرها باللفحة التي تصفعك من فوهة الفرن .

عندما يبدأ هبوب هذه الريح يضطرب الجو ، وتعتكر السماء اعتكاراً مخيفاً ، وتفقد الشمس من سطوعها حتى تحسبها اسطوانة بنفسجية . اما الجو فلا يبدو غائماً ، بل رمادياً ، ينتشر فيه غبار لا يرسب ، ويغشى كل مكان . وهذه الريح الخفيفة السريعة ليست

[1] وهي التي يسميها العرب السموم .

شديدة الحرارة عنـد بدء هبوبها ، ولكنها تشتد شيئاً فشيئـــاً .
وتستشعرها الاجسام الحية فوراً لما يطرأ عليها بسببها من التبدل .
فان الرئة يعوزها الهواء الكافي فتنقلص وتتململ . ويضيق فيهـا
التنفس وتسرع حركاته ، ويجف الاديم وتتأكل الحرارة باطـــن
الجسد . ومهما تتواتر جرعات المـــاء فلا يتصبب العرق . وعبثاً
يبحث المرء عن الطراءة ، والاجسام الرطبة تخدع اليد التي تلامسها .
فالرخام والحديد والماء حارة الملمس برغم احتجاب الشمس . وعندئذ
تقفر الشوارع ويخيم عليها الصمت شأنها في الليل . ويأوي سكان
المدن والقرى الى منازلهم ، واهل البادية الى خيامهم او الى الآبار
المحفورة في الارض حيث ينتظرون زوال العاصفة . وهي تستمر
عادة ثلاثة ايام . فاذا جاوزت هذا الحد اصبحت فوق طاقة الاحتمال .
والويل للمسافرين الذين تفجأهم بعيداً عن مآويهم ، فهم يكابدون
من نتائجها اسوأ مصير قد ينتهي بالموت . واكثر ما يكون الخطر
في ابان الزوابع ، اذ تنشأ من سرعة الرياح حرارة تقتل قتلاً صاعقاً .
ويكون الموت اختناقاً حقيقيـــاً ، لان الرئة تتنفس في الفراغ
وتختلج ، وتضطرب دورة الدم في الشرايين ، ويطرد القلب الدم
الى الرأس والصدر . وهذا ما يفسر النزف الذي يحصل من الانف
والفم بعد الوفاة . واكثر ما تفعل هذه الريح في البدناء وفي الذين
حطم التعب لوالب عضلاتهم وشرايينهم . اما الجثة فتستمر حرارتها
وقتاً طويلاً ، فتنتفخ وتزرقّ وتتمزق بسهولة . وهذه العوارض تدل
على الاختمار التعفني الذي يحصل في اجسام الحيوانات عندما تأسن
فيهـا الاخلاط .

ويقتضي لاجل التخلص من هذه الاعراض سد الانف والفم

بالمناديل . وثمة وسيلة ذات جدوى تلجأ اليها الجمال فتغرز انوفها في الرمال ريثما تهدأ العاصفة .

وهذه الريح شديدة الجفاف حتى انها تبخر ماء الغرفة المرشوشة في دقائق معدودات ، وتذبل النبات وتعريه ، وتمتص افرازات الاجسام الحية ، فيتقلص الاديم وتنسد خلاياه ، وتحدث هذه الحرارة الشديدة التي ترافق احتباس العرق .

وليست هذه الرياح الحارة خاصة بمصر ، فهي تحدث في سوريا على الساحل غالباً . وهي في الصحراء اكثر منها في الجبال . وصادفها نيبوهر في جزيرة العرب وبومباي وديار بكر . ولا تخلو منها الفرس وافريقيا واسبانيا نفسها . ونتائجها متشابهة في كل مكان ، ولكن اتجاهاتها تختلف باختلاف الامكنة . ففي مصر يقبل اشدها من الجنوب والجنوب الغربي ، وفي مكه من الشرق ، وفي صورات من الشمال ، وفي البصرة من الشمال الغربي ، وفي بغداد من الغرب ، وفي سوريا من الجنوب الشرقي . ان هذا التناقض الذي يثير الارتباك لاول وهلة لا يلبث ان يصبح في التأمل وسيلة لحل اللغز ، اذ يتبين لدى تفحص المواقع الجغرافية ان الريح الحارة تنطلق ابداً من البقاع الصحراوية . ومن الطبيعي ان الهواء الذي يغطي السهول العظيمة في ليبيا وجزيرة العرب ، حيث لا جدول ولا بحيرة ولا غاب ، يسخن بفعل الشمس المحرقة وبانعكاس الرمال ، ويستوعب ما يستطيع استيعابه من درجة الحرارة والجفاف . فاذا طرأ سبب يحوله الى مجرى معين تدافع فيه ناقلاً ما اكتسبه من ميزات عجيبة . وما يثبت ان هذه الميزات ناشئة عن فعل الشمس في الرمال هو ان هذه الرياح تتبدل

بتبدل الفصول .

ويؤكدون مثلاً انها في مصر ، خلال شهري كانون الاول والثاني ، تضاهي الريح الشمالية في البرودة . وسبب ذلك ان الشمس ، وقد انقلبت الى دائرتها الاخرى ، لا تلهب عندئذ افريقيا الشمالية ، فيما تكون الحبشة مكسوة بالثلوج . ويجب ان تكون الشمس قد تدنت من خط الاستواء حتى تحدث هذه العوارض . وثمة سبب مماثل يجعل الريح الجنوبية تصل الى قبرص مرطبة ببخرة المتوسط . اما الريح الشمالية فهي شديدة الحرارة في هذه الجزيرة خلال الصيف ، فيما هي ثلجية في الشتاء . وهذا ناتج بلا شك من مناخ آسيا الصغرى التي يشتد فيها القيظ صيفاً ، والصقيع شتاء .

ان هذا الموضوع يثير مسائل عديدة تستدعي فضول علماء الفيزياء . أليس جديراً بالاهتمام الاطلاع على الامور التالية :

١ - ما هو منشأ علاقة الفصول ومسير الشمس بنوع الرياح وبالمناطق التي تهب منها ؟

٢ - لماذا تتسلط الرياح الشمالية على مجمل المتوسط خلال تسعة شهور من اصل اثني عشر شهراً ؟

٣ - لماذا تهب الرياح الشرقية بانتظام بعد الاعتدال الخريفي والصيفي؟

٤ - ما السبب في ان الندى اغزر في الشتاء منه في الصيف ؟ ومع العلم ان الغيوم تحصل من تبخر مياه البحر ، وان التبخر اشد في الصيف منه في الشتاء ، لماذا تكثر الغيوم في الشتاء ، فيما هي قليلة في الصيف ؟

٥ - واخيراً ، لماذا تندر الامطار في مصر ، وتتجه الغيوم الى سماء الحبشة ؟

الفصل الخامس

المناخ والهواء

المناخ في مصر شديد الحرارة اذ تبلغ درجتها خلال تموز وآب ٢٤ او ٢٥ في اكثر الظلال اعتدالاً . ويقال انها تبلغ درجة اعلى في الصعيد . والسبب الرئيسي في ذلك مجاورة الشمس لهذا القطر ، وهي تكاد تكون عمودية في الصيف . ولكن متى عرفت ان هنالك اقطاراً اخرى واقعة في مثل هذا الموقع من خط الاستواء هي اكثر من مصر اعتدال هواء ، تبين لك وجود سبب آخر يوازي الاول بفاعليته ، عنيت به مستوى الارض الذي يكاد لا يرتفع فوق البحر . وتقتصر فصول مصر ، بسبب هذه الحرارة ، على فصلين اثنين : الربيع والصيف ، اي البرودة والقيظ . وهذه الحالة الاخيرة تستمر من آذار حتى تشرين الثاني . ويمكن القول ان الاوروبي لا يطيق احتمال الشمس ابتداء من آخر شباط لدى الساعة التاسعة من النهار ، اذ يستعر الهواء طوال هذا الفصل ، وتتوهج السماء ، ويرهق القيظ الاجسام التي لم تتعوده من قبل . فانك مهما ترق ثيابك ومهما تستسلم للراحة ، يتحلب العرق منك بغزارة ، ولكنه يصبح ضرورياً ، حتى اذا انقطع عنك انتابك المرض . واري انه عوضاً عن التحية المعتادة « كيف انت؟ » يجب ان يقال « كيف تعرق ؟ » ان غروب الشمس يعدل هذه الحرارة شيئاً . فالابخرة التي تنشرها

الارض من النيل ، فضلاً عن التي تحملها رياح الغرب والشمال ، تلطف التوهج المنتشر في الهواء وتنشر برودة لطيفة ، حتى انهـــا تحدث برداً لاذعـاً اذا صح قول الطبيعيين وبعض التجار الاوروبيين . بيد ان المصريين ، وهم شبه عراة تعودوا العرق ، يشعرون من البرودة ولو خفيفة . وميزان الحرارة الذي تتراوح درجته خلال شباط بين الثاني والتسع في حالة التدني يثبت ما نحن في صدده ، حتى يمكن القول ان البرَد والثلج حدثان قد لا يعرفها قط مصري بلغ من العمر خمسين عاماً . على ان ما في تجارنا من رهافة الاحساس يرجع الى افراطهم في لبس الفراء . فهم يتدثرون في الشتاء بفروتين او ثلاث من جلود الثعـالب ، ويحتفظون بفراء السمور حتى في اشد حرارة حزيران . وهم يحتجون على ذلك بالبرودة التي يحسونها في الظل . وفي الواقع ان تيارات الشمال والغرب التي تكاد تتسلط باستمرار تشيع الطراءة في كل الاماكن المحجوبة عن الشمس . على ان عقدة السر الحقيقية هي في تلك الفروة ، شارة التبرج في تركيا . وهي امارة الابهة ، وعـلامة العظمة ، والهدية المفضلة لمن يتولون المناصب الخطيرة . فكأن مهديها يقول لمن يرتديها انه السيد العظيم الذي اصبح ولا شغل له الا ان يعرق .

يخيل اليك ، بالنظر الى شدة الحر وكثرة المستنقعات طوال ثلاثة اشهر ، ان مصر بلد رديء المناخ . وهذا هو التـأثير الاول الذي اعتراني حالمـــا وطئت ارضها . فلما وقعت عيني في القاهرة على منازل تجارنا الجاثمة على طول الخليج حيث تركد المياه حتى شهر نيسان ، حسبت انهم معرضون لمختلف الامراض بسبب الابخـرة المتصاعدة . بيد ان الاختبار يكذب هذه النظرية . فان روائح

المياه الآسنة ، وهي قتالة في قبرص والاسكندرونة ، لا تحدث المفعول نفسه في مصر . ويلوح لي ان السبب في ذلك جفاف الهواء فيها ومجاورتها لافريقيا وجزيرة العرب اللتين تتشربان الرطوبة فضلا عن تيارات الهواء المستمرة تمر دون حاجز . وهذا الجفاف هو من الشدة بحيث ان اللحوم المعرضة للريح الشمالية ، حتى في الصيف ، لا تفسد ، بل تنشف وتقسو كالحطب . وتعرض الصحراء منظر جثث جافة اصبحت من خفة الوزن بحيث يسهل على الرجل ان يرفع باليد الواحدة هيكل جمل كامل [١] .

ويضيف الهواء الى هذا الجفاف رواسب ملحية تلحظ في كل مكان . فالحجارة يقرضها النطرون . وهناك في الاماكن الرطبة مسلات طويلة متبلورة نحسب انها البورق . وجدار حديقة اليسوعيين في القاهرة المبني بالاجر والتراب مكسو بقشرة من النطرون بسماكة الفلس . وعندما تغمر مياه الخليج مربعات هذه الحديقة ، ترى عند تراجعها ان الارض تلتمع فيها كريات بيضاء لا شك انها لم تأت مع الماء ، لان هذا الماء لا يعطي اي دلالة على الملح سواء اكان بالذوق ام بالتقطير .

لا ريب ان هـذه الخاصة المزدوجة في الهواء وفي الارض – مضافة الى الحرارة – هي التي تكسب النباتات نشاطاً يكاد لا يصدق في مناخاتنا الباردة ، فحيثما تنعم الزروع بالمـاء تنمو بسرعة عجيبة ، ويمكن من قصد الى القاهرة او الرشيد ان يتبين

١ يلاحظ ان هواء الساحل اقل جفافاً ، اذ ان الحديد المعرض للهواء مدة اربع وعشرين ساعة في الاسكندرية والرشيد لا يلبث ان يصدىء .

ن القرع تطول فروعه في اربع وعشرين ساعة ما يقارب اربعة قراريط .

على اني ألاحظ ، وبهذا اختم البحث ، ان هذه الارض مانعة جائرة ، بمعنى ان الاغراس الاجنبية تؤول فيها الى انحطاط سريع ، وهو امر اثبتته الاختبارات المتكررة . وترى تجارنا مضطرين الى تجديد البزور في كل سنـــة ، فيستقدمون من مالطة بزور التنبيط والشمندر والجزر . فاذا ما زرعت هـذه البزور اصابت في اول الامر نجاحاً كبيراً ، ولكن البزور التي تتولد منها لا تنبت الا اغراساً سقيمة . وحدث الشيء نفسه للوبيـاء والاجاص والدراقن المستورد من الرشيد . ويلوح ان نمو النبـــات في هذه الارض عنيف الى حد انه تفوته تغذية الالياف الاسفنجية الغضرة . فيجب ان تألفها الطبيعة تدريجياً وان يؤاتيها المناخ عن طريق العنـــاية الزراعية .

القسم الثاني

حالة مصر السياسية

الفصل السادس

سكان مصر واجناسهم المختلفة

قليلة هي البلاد التي احتفظت بسكانها الاقحاح الصرحاء خلال الثورات التي هزّت على التوالي مقدرات الشعوب. فان الجشع الذي يحمل الافراد على التطاول والتعسف هو نفسه الذي دفع الامم الى الوقوف وجهاً لوجه. وقد نتج من هذا الاصطدام في المصالح والقوى ان دخل البلاد غريب منتصر. فهو عندئذ اما مغتصب عات يعرّي الامة المغلوبة من التراث الذي جادت عليها به الطبيعة، وإما فاتح اكثر تهيباً او تمدناً يقتصر على مقاسمتها المنافع التي ضنت بها عليه ارض موطنه. وهكذا نشأت في الدول اجناس مختلفة من السكان قرّبت بينها الطبائع والمصالح في بعض الاحيان، فتمازجت بالتزاوج، او فرّقت بينها في اكثر الاحيان الاعتبارات السياسية والدينية، فتعايشت على الارض الواحدة دون ما اختلاط وامتزاج. ففي الحالة الاولى فقدت الاجناس المختلطة خواصها المميزة فاصبحت شعباً متجانساً، وفي الحالة الثانية بقيت الفوارق واستمرت متمايزة حتى غالبت العصور بحيث يمكن الركون اليها في بعض الحالات للاستعاضة بها عن سكوت التاريخ.

وهذا هو شأن مصر . فهي قد نُزعت من مالكيها الطبيعيين منذ ثلاثة وعشرين قرناً ، وشهدت على التعاقب الفرس والمقدونيين والرومانيين والاغريقيين والعرب والكرجية ، واخيراً هذا الجنس التتري المعروف بالاتراك العثمانيين . وكثيرة هي الشعوب التي تركت فيها اثراً بيناً . امـا وقد تخالطت في تعاقبها فقد اصبح من المتعذر التفريق بين ميزات كل منها على حدة . بيد انه يمكن تمييز اربعة شعوب من سكان مصر .

فالشعب الاول والاكثر انتشاراً هم العرب ويقسمون طبقات ثلاث :

١ - ذراري الذين تألبوا على هذه البلاد الخيِّرة من الحجاز وسائر اجزاء جزيرة العرب عندما دخلها عمر في السنة ٦٤٠ . فقد تهافتوا على امتلاك الاراضي حتى ضاقت بهم الدلتا وافقرت من الاغارقة المدحورين . ان هـذا الشعب الذي تتألف منه طبقة الفلاحين والصناعيين الحالية قد احتفظ بسماته الاصلية ، ولكنه اكتسب بنية اصلب وقواماً اطول ، وهما نتيجة طبيعية للغذاء الوفير الذي لم يكن متيسراً له في الصحراء . وفلاّح مصر يبلغ طوله عادة خمس اقدام واربعة قراريط . وكثيرون يبلغون ست اقدم ، بل سبعاً . واجسامهم عضلة دون بدانة . ولهم قوة الرجال المتمرسين بالتعب . وجلودهم التي لوحتها الشمس تكاد تكون سوداء . وليس في وجوههم ما ينفر . ومعظمهم ذو رأس اهليلجي جميل ، وجبين عريضة ناتئة ، وحاجب اسود على عين سوداء عميقة براقة ، وانف ينزع الى الضخامة غير اقنى ، وفم منتظم الحوافي على اسنان جميلة ابداً . ان سكان المدن اقل تشابهـاً بسبب كثرة

الاختلاط . امـا سكان القرى الذين لا يتزوجون الا بذوي قرباهم فسماتهم اكثر تشابهاً وبروزاً . وفي سيمائهم خشونة يرجع سببها الى ميول في النفس ما برحت تغذيها حالة الحرب والظلم التي تحيط بهم .

٢ – وثمة طبقة ثانية من العرب هي طبقة الافريقيين او المغاربة الذين انضموا الى اهل الطبقة الاولى عـلى التوالي . وهم مثلهم انسال الفاتحين المسلمين الذين اجلوا اليونانيين عن بلاد المغرب . ويتعاطون مثلهم الزراعة والحرف ، ولكنهم اكثر انتشاراً في الصعيد حيث يستقلون في قراهم ، وفي امرائهم ايضاً .

والطبقة الثالثة البدو او رجال البادية[١] او اهل الخيـام . فبعض هـؤلاء موزع عشائر تقطن الصخور والمغاور والخرائب والاماكن المنعزلة حيث الماء . وبعضهم الآخر يتجمع قبائل تنزل الخيام الواطئة المسودة بالدخان وتعيش في ترحل مستديم . وسواء اقاموا في البادية ام على ضفاف النهر فهم لا يتعلقون بالارض الا بمقدار ما يربطهم بها الامان والمرعى . ومنهم قبائل تأتي كل سنة بعد الفيضان من قلب افريقيا لتفيد من الكلأ النابت ، ثم لا تلبث ان تتوغل في الصحراء خلال الربيع . ومنهم قبائل مقيمة في مصر تستأجر الارض وتزرعها . وبين تلك القبائل جميعها حدود متعارفة محترمة المعالم ، فاذا تجاوزتها قبيلة تعرضت للحرب . ولهؤلاء القوم نمط واحد في المعيشة وعادات واخلاق واحـدة . والبدو فقراء اميون ذوو خصائص تميزهم من الامم المحيطة بهم . وهم

١ في اللغة العربية : بدوي مشتق من البد وهي الصحراء غير المأهولة (الحاشية للمؤلف) .

مسالمون في ربعهم ، ولكنهم في حالة حرب في اي مكان آخر . يكرههم المزارعون والمسافرون بسبب النهب والتعدي ، ويخشاهم الاتراك فيدسون بينهم بالتفرقة والرشوة .

يقدر عدد هذه القبائل في مصر بثلاثين الف خيال ، ولكن قواتهم مبعثرة غير متآلفة ، وينظر اليهم كسرقة متشردين .

والجنس الثاني من السكان هم الاقباط ، فمنهم بعض الاسر في الدلتا ، ولكن معظمهم يقطن الصعيد حيث تتألف منهم قرى بكاملها . ويثبت التاريخ فضلاً عن التقاليد انهم متحدرون من القوم الذين جردهم العرب ، اي من هذا الخليط من المصريين والفرس واليونانيين بنوع خاص ، الذين تملكوا مصر زمناً طويلاً في ايام بطليموس وقسطنطين ومن تعاقبوا على الملك بهذين الاسمين . وهم بخلاف العرب يدينون بالنصرانية ، ويتميزون من سائر المسيحيين في مذهبهم الذي هو مذهب اوتيخيوس . وكان من نتيجة اعتناقهم لمبادىء هذا الرجل اللاهوتية ان سائر الروم ساموهم من الاضطهاد ما جعلهم ينفرون من المسالمة . فلما فتح العرب البلاد افادوا من هذه الحالة ليضعفوا الفريقين . وانتهى الامر بالاقباط ان ابعدوا مناوئيهم . ثم اصبحوا ، لمعرفتهم اصول الادارة الداخلية في مصر ، امناء سجلات الاراضي والقبائل ، واتخذوا اسم « الكتبة » فكانوا وكلاء وجباة لدى الحكومة والبكوات . وهؤلاء الكتبة الذين يحتقرهم الاتراك مخدوموهم ، ويكرههم الفلاحون بسبب جورهم ، يؤلفون هيئة يرئسها كاتب القائد الرئيسي . فهو الذي يتصرف بجميع المناصب فلا يمنحها بغير مقابل من المال .

يزعمون ان لفظة قبطي مشتقة من اسم مدينة قوبطوس التي لجأ اليها الاقباط عند اضطهـــاد الروم لهم ، ولكنني اجد لها اصلاً اعرق واصوب . ان لفظة قبطي العربيـــة هي بلا شك تحريف الكلمة اليونانيـــة ايجوبتس اي مصري ، لانـــه تجب الملاحظة ان حرف y كان يلفظه اليونانيون القدماء ou ، وان العرب لا يعرفون p او g قبل a, o, u فهم يستبدلون من هـذه الحروف دائماً حرفي q و b . فالاقباط اذن يمثلون المصريين[1] وعندهم حرف dj الذي لا يتبدل امام الاحرف الصوتية شأن حرف g عندنا . وثمة اعتبار آخر يحملني على هذا الاعتقاد ، وهو ان وجوه الاقباط على الاطلاق تتسم بسمة خاصة قد استرعت انتبـــاهي : عنيت هذه البشرة الصفراوية الدخانية اللون التي ينميها اصل يوناني لا عربي . فثمة وجه منتفخ ، وعين مورّمة ، وانف افطح ، وشفة ضخمة ، وبمجمل القول وجه خلاسي واضح .

وقد بدا لي ان انسب هذه الخصائص الى المناخ[2] ، فلما زرت ابا الهول تكشف لي السر في منظره . نظرت الى هذا الرأس وهو

[1] خصوصاً وانهم سكنوا الصعيد قبل ديو كليتيانوس وان اليونانيين كانوا في الصعيد اقل منهم في الدلتا .

[2] وفي الواقع لاحظت ان وجوه الزنوج متقلصة تقلص وجوهنا عند مجابهة النور وانعكاس الحرارة . فيتقطب الحاجب عندئذ ، وتعلو الوجنتان، وتتقارب الاهداب، ويتسع الفم . وهذا التشنج الذي يحصل باستمرار في بلاد الزنوج الجرداء الحارة الا يصح القول انه اصبح ميزة خاصة لوجوههم ؟ ان الصقيع والريح والثلج تفضي الى النتيجة نفسها الـــتي تظهر في هذه الاحوال عند التتر ، في حين ان هذه الحالة لا توجد في المناطق المعتدلة حيث تستطيل القسمات، وتكون العيون اكثر قرباً من مستوى الرأس، والوجه كله اكثر تفتحاً .

رأس زنجي في جميع قسماته ، فتذكرت هذا المقطع الشهـــير من هيرودوتس حيث يقول :

« اما انا فاعتقد ان الكلشيين جالية من المصريين لانهم يماثلونهم في سواد الوجه وتجعد الشعر . »

ويدل هذا على ان قدماء المصريين كانوا من الزنوج كسكان افريقيا الاصليين جميعاً ، ويفسر لنا كيف ان دمهم الذي امتزج على مر العصور بدم الرومانيين والاغريقيين قد فقد حلكته الاولى واستبقى منها ما يدل على طابعه الاصلي ، حتى انه يجوز اطلاق هذه الملاحظة والقول ان السيماء اثر يضيء شواهد التاريـــخ عن اصول الشعوب . وعندنا في فرنسا ، لم يكن انقضاء تسعمائة سنة كافياً لازالة الفارق الذي يميز سكان غاليا ، هؤلاء الشماليين الذين احتلوا اغنى مقاطعاتنا في عهد كارلوس السمين . ويحدثك المسافرون من نورمانديا الى الدنمارك بدهشة عن الشبه الاخوي بين سكان هاتين المقاطعتين ، ذلك الشبه المحفوظ برغم الفاصل الزماني والمكاني . ويلاحظ الامر نفسه بين فرانكونيا وبورغونيا . ومن تيسر له ان يتجول متنبهاً في فرنسا وانكلترا تبين اثر الهجرة على وجوه السكان . أليس في اليهود آثار لا تُطمس حيثما حلوا ؟

وفي البلدان التي يكون شرفاؤها اغراباً دخلوهـا عن طريق الفتح ، اذا كان هؤلاء لم يخـــالطوا الوطنيين بالزواج ، احتفظوا بطابع خاص بهم ، والدم الكلموكي في الهند ما برح متميزاً من غـــيره . فاذا تهيأ لاحد ان يدرس مختلف الامم الاسيوية والاوروبية لا يعدم ان يجد من هذه المماثـلات ما ارخى عليه النسيان سدوله .

ما ادعى عبرة التاريخ في مصر الى التأمل ! ان الاقباط على ما هم عليه اليوم من جهل وهمجية يتحدرون من تزاوج عبقرية المصريين العميقة والفكر الاغريقي الساطع . فهذا الشعب الاسود الذي هو اليوم عبدنا وموضوع احتقارنا هو هو نفسه الذي نحن مدينون له بالعلوم والفنون وحتى بالحرف . ولنتصور اخيراً ان اكثر العبوديات همجية قد نشأت بين هذه الشعوب التي تزعم انها اكثر الشعوب حباً للحرية والانسانية ، وهي التي اثارت مسألة ما اذا كان الجنس الاسود يماثل الجنس الابيض في الذكاء !

واللسان اثر آخر له دلالاته الصادقة المفيدة . واللسان الذي كان يستعمله الاقباط مثبت لما ازعم . فان شكل حروفهم ومعظم كلماتهم تدل على ان الامة اليونانية قد وسمت مصر بطابعها العميق خلال الف سنة[١] . ونرى من ناحية اخرى ان الابجدية القبطية تنطوي على خمسة حروف ، والمعجم على كلمات عديدة هي انقاض اللغة المصرية القديمة وبقاياها . فاذا تفحصت هذه الكلمات وجدت مماثلة بيّنة بينها وبين لغات الشعوب المجاورة القديمة كالعرب والاثيوبيين والسوريين ، بل وسكان ضفاف الفرات ، حتى يمكن التأكيد ان جميع هذه اللغات مشتقة من اصل مشترك . اما لغة الاقباط فقد تلاشت منذ ثلاثة قرون ، لان العرب احتقروا ألسن الشعوب المغلوبة على امرها ، وفرضوا عليها نير الفتح وتعلم لغتهم في وقت معاً . وقد اصبح هذا الالتزام شريعة في نهاية القرن الاول للهجرة اذ حرّم معاوية اللغة اليونانية في ارض الدولة كلها .

١ راجع القاموس القطبي : لاكروز .

فعمت اللغة العربية ، فيما انزوت اللغات الاخرى في الكتب سداً لحاجة العلماء الذين ما لبثوا ان اهملوها . وهذا كان مصير القبطية في كتب العبادة والكنائس . فلم يمض عليها زمن حتى دق فهمها على الكنيسة والرهبان ، واصبحت العربية اللغة المتداولة في مصر وفي سوريا حيث يتكلمها المسيحي والمسلم على السواء ولا يفهمان غيرها .

وفي هذا العهد تعرض ملاحظات لا تخلو من الاهمية التاريخية والجغرافية . من المألوف بل من الضروري ان يورد الرحالون في ابحاثهم عن بلد ما كلمات من اللغة الشائعة فيه ، خصوصاً فيما يتعلق باسماء العَلَم للشعوب والمدن والانهر وغيرها . وقد نتج من هذا النقل تشويه وتحريف أخفيا مفهوم الكلم . واكثر ما حصل ذلك في البلدان التي ادرسها ، مما ادخل على كتب التاريخ والجغرافيا بلبلة عظيمة . فالعربي الذي لا يلم بالفرنسية لا يتعرف في خرائطنا الى عشر كلمات من لغته . واذا نحن تعلمنا هذه اللغة وقعنا في المحظور نفسه . واسباب ذلك عديدة :

١ — جهل معظم الرحالين اللغة العربية والنطق بها بنوع خاص . وكان هذا الجهل سبباً في ان آذانهم التي لم تألف الاجراس الاجنبية تقابلها مقابلة عائبة بأجراس لغتهم[1] .

٢ — مخارج الالفاظ التي لا تجد ما يماثلها في اللغة المنقول

[1] ان العالم بوكوك نفسه الذي برهن عن اقتدار في شرح التصانيف لم يستطع الاستغناء مرة عن المترجم ، وفونهافن Vonhaven استاذ اللغة العربية في الدنمارك لم يمكنه فهم ما معنى « السلام عليكم » حين هبط مصر مؤخراً . اما رفيقه فورسكال Forskal الشاب فقد حلى عليه بعد سنة من الزمن .

اليها . مثل ذلك حرفا th من الانكليزية والخاء الاسبانية ، فمن لم يسمع هذه الحروف لا يستطيع ان يتمثلها . وتزداد المشكلة مع لغة العرب المحتوية على ثلاثة احرف صوتية وسبعة او ثمانية احرف اخرى غريبة عن الاوروبيين ، فكيف نصورها لكي نحفظ ماهيتها ونتحاشى خلطها بغيرها مما يختلف عنها معنى ؟

٣ – وثمة سبب ثالث للتشويش ناشىء عن طريقة الكتّاب في وضع الكتب والخرائط . فقد استقوا معلوماتهم من جميع الاوروبيين الذين رحلوا الى الشرق ، واعتمدوا إملاء اسماء العَلم كما وجدوه عند هؤلاء . وفاتهم ان الامم الاوروبية المختلفة ، وان كانت تستعمل الاحرف الرومانية ، الا انها تنطق بها على صور مختلفة . ان u الطليانية ليست u فرنسية بل ou . و gh عندهم ليست gé بل gué ، و c ليست cé بل tché . ومن هنا يحصل هذا الاختلاف الظاهر في الكلمات فيما هي هي نفسها . وعلى هذا ، فان الكلمة التي يجب ان تكتب بالفرنسية chaik او chêk ، تكتب على التوالي Schek[١] او shekh او schehe او sciek بحسب ما تكون استخلصتها من الانكليزية او الالمانية او الايطالية حيث ضم sh و sch و sc يماثل ché عندنا . ويكتبها البولونيون szech والاسبانيون chej . وهذا الفارق في آخر الكلمة j و ch و kh ناشيء عن كون الحرف العربي يقابله jota الاسبانية و ch الالمانية[٢] التي لا مثيل لها عند الفرنسيين والانكليز والايطاليين . ومن اجل هذا السبب نفسه

١ يجب لابراز هذه الفوارق عند القراءة تهجئة الحروف واحداً واحداً.

٢ لا يقع ذلك في جميع الحالات، بل قبل o و u كما في قولك buch اي كتاب.

يكتب الانكليز Rooda اسم الجزيرة الذي يكتبه الايطاليون Ruda والذي يجب ان ننطق به نطق العرب له اي Rouda . وكتب بوكوك harammée عوضاً ان يكتب harami اي سارق ، وكتب نيبوهر dsjebel عوضاً عن djebel اي الجبل ، وكتب دانفيل الذي كثيراً ما استقى من مذكرات الانكليز sham بدلاً من châm اي الشام ، وكتب wadi اي ouâdi الوادي ، الى مـــا هنالك من الامثال العديدة .

وادى هـذا التشويش في الاملاء الى اختلاط كثير اذا لم يُتدارك افضى في حديث الامر الى المحذور الذي اعترض قديه . ان اليونانيين والرومانيين ، بجهلهم لغة البرابرة ، قـد تصرفوا في تكييف اجراسها على هواهم ، فأفقدونا اثر الاسماء الاصلية ، وحالوا دون معرفتنا الحالة القديمة على ضوء الاثر الباقي . ان لغتنا كلغتهم تنطوي على هذه اللطافة ، فهي تشوّه كل شيء . وتنبو أذانـنـــا عن كل ما هو غير مألوف نبوّها عن شيء بربري . لا ريب انه لا طاقة لنا في ادخال اجراس جديدة عليها ، بل يستحسن ان نتقرب من الاجراس التي نترجمها ، وان نخصص بها اقرب الاجراس الى تمثيلها في لغتنا ، ونضيف اليها بعض العلامات الاصطلاحية . ولو جرى كل شعب من الشعوب على هذا النمط ، لتوحد الاصطلاح ، وكانت خطوة اولى نحو ابجدية عامـة توافق جميع اللغـــات ، الاوروبية منها على الاقل . وهو عمل سهل تمس الحاجة اليه يوماً بعد يوم . سأورد خلال هذا المؤلف اقل ما استطيع من الكلمات العربية . ومتى اضطررت اليهـا فلا يدهشنّ احد اذا انحرفت عن الاملاء الذي اعتمده اكثر الرحالين . فاذا امعنا النظر فيما كتبوا

تبين لنا انه لم يلمّ احد منهم بحقيقة العناصر التي تتألف منهـــا الابجدية العربية ، او عرف المبادىء الواجب اتباعها لنقل الكلمات الى كتابتنا . أعود الى موضوعي .

وفي مصر شعب ثالث هم الاتراك ، اسياد البلاد ان لم يكن فعلياً فاسميـــاً . ولم يكن لفظ « تركي » في الاصل خاصاً بالامة التي نطلقه الآن عليها ، بل كان يشير بوجه عام الى الشعوب المنتشرة شرقي بحر جرجان ، بل وفي شماليه ايضاً ، حتى ما وراء بحيرة آرال في المناطق الفسيحة التي اتخذت مـــن اسمهم اسماً لهـــا ، عنيت تركستان[1] . فهؤلاء الشعوب هم الذين ذكرهم الاغارقة باسماء الفرث والمفاجتيين والكيثيين ونذكرهم نحن باسم التتر ، وهم شأن عرب البادية رعاة متشردون ، اظهروا في كل العصور انهم محاربون قساة شديدو المراس . فلا كسرى ولا الاسكندر تمكنا من اخضاعهم . اما العرب فكانوا اكثر توفيقاً ، اذ دخلوا بلاد الترك بامر الخليفة الوليد في السنة الثامنين تقريبـــاً للهجرة ، وعرّفوهم بدينهم وبسلاحهم ، وفرضوا عليهم الجزية ، ولكن الفوضى ما لبثت ان عمت الدولة العربية ، فتمرد حكامهم على الخليفة واستعملوهم عليه ، وما لبثوا ان تدخلوا في جميع الشؤون وقويت شوكتهم واشتد ساعدهم بفضل ما هم فيه من طريقة المعاش . فهم ابداً تحت الخيام مدججون بالسلاح ، ومتمرسون بكل اساليب القتال . وكانوا كالبدو منقسمين قبائل ، والقبيلة في لغتهم « اورضه » التي اشتققنا منها كلمة Horde للدلالة على عشائرهم .

[1] استان لفظ فارسي معناه بلد ، ويضم الى آخر اسما العلم ، فنقول عربستان فرنكستان الخ ...

وسواءً أكانت هذه القبائل متحالفة او منقسمة على بعضها بسبب تباين المصالح ، فقد كانت الحروب مستمرة بينها . وهذا هو السبب الذي من اجله تجد في تاريخها ان شعوباً تركية عديدة تتطاحن ويجلو الواحد الآخر على التوالي . وقد عمدتُ ، دفعاً للالتباس ، ان اخص اسم الترك باتراك القسطنطينية فيما اسمي من تقدموهم تركماناً .

لم تلبث القبائل التركمانية التي دُست في السلطنة العربية ان سيطرت على الذين كانوا قد استدعوها كحليفاتٍ مأجورات . وتسنى للخلفاء ان يختبروا الامر بأنفسهم ، فان المعتصم شقيق المأمون وخليفته الذي اتخذ له حرساً من التركمان ، اضطر ان يغادر بغداد بسبب ما اثاروا من القلاقل . وتزايد سلطانهم وعتوهم بعد هذا الخليفة ، حتى تحكموا بالعرش وبحياة الامراء ، فقتلوا منهم ثلاثة خلال ثلاثين سنة . وما كان انعتاق الخلفاء من هذه الوصاية الاولى ليزيد في حكمتهم ، فان الراضي بالله تفرغ عن الولاية في السنة ٩٣٥ في يد تركماني مما جعل خلفاءه يرزحون تحت القيود الاولى ، ثم اصبحوا اشباحاً للسلطان تحت حراسة امراء الامراء . وفي بلبلة هذه الفوضى دخلت بعض القبائل التركمانية الى السلطنة ، واسست دولاً مستقلة في قركان وخراسان وايقونيا وحلب ودمشق ومصر ، ولكن سرعان ما آلت الى زوال .

وكان الاتراك حتى هذا العهد ما برحوا في شرقي بحر جرجان وصوب جيحون حيث عرفوا باسم الاوغوز . على ان جانكيزخان خرج في السنوات الاولى من القرن الثالث عشر بجميع قبائل التتر على امراء بلخ وسمرقند . ولم ير الاوغوز من الحكمة

انتظار المغول ، فاندفعوا بامرة قائدهم سليمان يسوقون ماشيتهم ، حتى استقروا في السنة ١٢١٤ في اذربيجان ، وكان عـــددهم خمسين الف فارس . ثم تبعهم المغول ودفعوهم ناحيـة الغرب في ارمينيا . وغرق سليمان في السنة ١٢٢٠ فيما كان يحاول اجتياز الفرات راكباً . فتسلم بعده القيادة ولده ارطغرل وتقدم بقبائله في سهول آسيا الصغرى حيث وقعت المواشي على مرعى خصيب . وكان هذا القائد ذا حنكة وبصيرة اكسبتاه قوة ومقاماً ، فسعى الى محالفة امراء تلك النواحي وفيهم التركماني علاء الدين سلطان ايقونيا . فان هذا الرجل الذي كان يشعر بوهن الشيخوخة ويضيق ذرعاً بمناواة تتر جانكيزخان له ، وهب اتراك ارطغرل الاراضي وعينه قائداً على الجيش . ولم يخيب ارطغرل ثقة السلطان فقهر المغول . وازداد شهرة واقتداراً . وجاء بعده ابنه عثمان فتسلم من علاء الدين ، خليفة الاول ، قفطاناً وطبلاً واذناب خيل ، وهي رمز القيادة عند التتر . وشاء عثمان هذا ان يميز اتراكه مـن غيرهم ، فسماهم عثمانيين نسبة الى اسمه . وما عتم هذا الاسم حتى اصبح رهبة ليوناني القسطنطينية ، فاجتاح عثمان اراضيهم الواسعة ، وجعل منها مملكة عظيمة . ثم اتخذ له اسم السلطان ، اي السيد المطلق . ومن المعروف كيف توسع خلفاؤه ووارثو طموحه ونشاطه على حساب اليونانيين ، وكيف انتزعوا منهم المقاطعة تلو المقاطعـة في اوروبا وفي آسيا ، حتى زحموهم في اسوار القسطنطينية ، وكيف استولى محمد الثاني ابن السلطان مراد على هذه المدينة في السنة ١٤٥٣ واباد هذا الفرع من امبراطورية روما . واذ نفض الاتراك يدهم مـن شؤون اوروبا حوّلوا مطامعهم الى مقاطعات الجنوب ، وكان قد

مرّ على بغداد مئنا عام وهي تحت نير التتر . وقد زالت الخلافة عنها طوال هذه الحقبة من الدهر ، وآلت بعض ممتلكاتهم الى دولة جديدة قامت في الفرس ، وقامت دولة المماليك في مصر فانتزعت سوريا . فعزم الاتراك على تجريد هؤلاء الاخصام . فاستولى بايزيد بن محمد على ارمينيا منفذاً بذلك بعض مقاصده التي اتيح لابنه سليم ان يتممها في وجه المماليك . فقـد استقدمهم الى حلب في السنة ١٥١٧ بحجة مساعدتهم له على الفرس ، ثم حوّل اسلحته فجأة عليهم ، فانـتزع منهم سوريا ومصر وتعقبهم فيها . ودخل الدم التركي في البلاد ، ولكنه قلما انتشر في القرى . وتكاد لا ترى افراد هـذه الامة في غير القاهرة حيث يمارسون الصناعات ويحتلون المناصب الدينيـة والحربية ، وكانوا قبل اليوم يتمتعون بكل المراتب الحكومية . على ان الثورة الباطنة التي حصلت منـذ ثلاثين سنة قد نزعت منهم السلطة الفعلية ، وابقت لهم على اللقب .

وقام بهذه الثورة شعب رابع بقي علينا ان نتحدث عنه . لقد نشأ هؤلاء القوم جميعهم عند اقدام جبال القوقاس . ويميزهم من سائر السكان شعرهم الاشقر ، وهـو لون غريب عن مصر . وهم هم انفسهم الذين وجدهم الصليبيون في القرن الثالث عشر واسموهم المماليك . فبعد ان استضعفوا زهاء مئتي عام تحت سيطرة العثمانيين ، وجدوا وسيلة لاستعادة مكانتهم . ان تاريخ هؤلاء الجنود ، والشؤون التي هيأت دخولهم الى مصر للمرة الاولى ، وطريقة استقرارهم فيها ، ونوع حكومتهم تكوّن جميعها حوادث سياسية هي من الغرابة بحيث يجدر تخصيص بعض الصفحات لمعالجة تطوراتها .

الفصل السابع

موجز تاريخ المماليك

سادت اليونانيين في القسطنطينية حكومة غاشمة متطرفة ، فهانوا . وافلتت منهم اخصب ولاياتهم لتؤول الى شعب جديد . واستنفرت العرب عصبيتهم الدينية وسكرتهم بمباهج الحياة التي لم يتعودوها من قبل ، فاكتسحوا ، في سحابة ثمانين عاماً ، الرقعة الشمالية من افريقيا حتى الجزر الخالدات ، وكامل القسم الجنوبي من آسيا حتى الهند وبادية التتر . على ان هؤلاء القوم الذين اتقنوا مراسم الصوم والصلاة لم يتعرفوا الى علم التشريع ومبادىء الخلقيات الطبيعية التي هي اساس الممالك والجماعات . لقد عرف العرب ما الغلبة ، ولم يعرفوا قط سياسة الملك . فما عتم بنيان دولتهم المسيخ ان تداعى وانهار ، وتعاقبت الفوضى والظلم على سلطنة الخلفاء الواسعة فتفككت اوصالها ، وزال من اذهان الحكام الزمنيين ما توهموه من قداسة رئيسهم الروحي فنصبوا انفسهم اسياداً وانشأوا دولاً مستقلة . ولم تكن مصر آخر من اقتدى بهذا المثل ، ولكن لم تقم فيها دولة نظامية الا في السنة ٩٦٩ (او ٩٧٤ حسب هربلو d'Herbelot) وهي دولة الخلفاء الفاطميين الذين نازعوا خلفاء بغداد لقب الخلافة نفسه . وكان هؤلاء عهدئذ ضعاف السلطان بسبب تسلط الميليشيا التركمانية عليهم ، فعجزوا

عن كبح جماح منافسيهم . وتسنى لخلفاء مصر ان يبقوا اسياداً ناعمي البال على هذا القطر الخصيب الذي كان في وسعهم ان يجعلوا منه دولة ذات حول وطول . ولكن تاريخ العرب يدل على ان هذه الامة لم تتعرف يوماً بأصول الحكم . فان خلفاء مصر – شأنهم بذلك شأن خلفاء بغداد – ركبوا مركب الطغيان وسلكوا طريقاً واحدة الى مصير واحد . فقد تدخلوا في المنازعات المذهبية ، وابتدعوا مذاهب جديدة ، واضطهدوا الناس ليستكثروا من المشايعين والانصار . وبلغ من الحاكم بامر الله أن ادعى انه الاله المتجسد . واستحكمت فيه روح متطرفة فامر باحراق القاهرة ليروّح عن نفسه . وبدد آخرون مال الدولة في ترف غريب ، فتكرههم الشعب المهان ، ورأى رجال حاشيتهم من استضعافهم ما جرأهم على الطمع في خلعهم . وهذا ما حدث للعاضد لدين الله آخر هذه السلالة . فبعد أن اكتسح الصليبيون بلاده وفرضوا عليه الجزية ، هدده أحد قواده المُنحيّن بانتزاع سلطته التي لم يحسن سياستها . فلما شعر بعجزه عن المقاومة وعرف انه لا يستطيع الاعتماد على الامة التي نفّرها ، لجأ الى الغرباء . وعبثاً دلّه العقل وعبرة الازمان على ان هؤلاء الغرباء الذين ائتمنهم على ذاته لا يلبثون ان يصبحوا اسياده ، فقد انزلق من غباوة اولى إلى غباوة ثانية ، فاستقدم التركمان الذين سبق واستعبدوا خلفاء بغداد ، واستنجد نور الدين سيد حلب ، فنجده لفوره بجيش وجهه على مصر ، وانقذه من جزية الفرنجة ومن مطامع قائده . وكان من امر الخليفة عندئذ انه استبدل عدواً بآخر ، فلم يبق له من السلطان إلا ظله . وبقيت هذه حاله حتى تولى القيادة

صلاح الدين في السنة ١١٧١ وامر بشنقه . وهكذا استكان عرب مصر لغرباء قامت على الامر فيهم سلالة جديدة في شخص صلاح الدين .

وفيا كانت تتعاقب هـذه الاحداث في مصر ، ويطرد الصليبيون من سوريا بسبب بلبلتهم وفوضاهم ، كانت التطورات الغريبة في آسيا العليا تنذر بثورات جديدة ، وكان جنكيز خان ، وقد اصبح سيداً على معظم القبائل التترية ، يتحين الفرص للايقاع بالدول المجاورة له . وحدث ان لحقت اهانة ببعض التجار اللائذين بجاهه ، فزحف على سلطان بلخ وشرقي الفرس حوالى السنة ١٢١٨ . فشهدت هذه الاصقاع من الكوارث الداميات ما لم يسجل مثله تاريخ الفاتحين ، إذ انطلق المغول بالحديـد والنار فاعملوا النهب والذبح والحريق دون ما تمييز بين رجل ومرأة ، وبين شيخ وطفل ، وحولوا بلاد جيحون حتى نهر دجلة الى بقاع من رماد ، وتجاوزوا بحر جرجان شمالاً فامتد الخراب حتى بـلاد الروس والقوبان . وهذه الحملة التي وقعت في السنة ١٢٢٧ افضت الى دخول المماليك ارض مصر . ذلك أن التتر ، وقد ملّوا التقتيل ، استقدموا معهم جماعة من الارقاء فتياناً وفتيات ، حتى غصت بهم معسكراتهم واسواق آسيا . وكان خلفاء صـلاح الدين ، وهم توكمانيون ، ما زالوا على صلة بانحاء بحر جرجان ، فغنموها فرصة لانشاء جندية زهيدة التكاليف ، متوافرة اسباب الشجاعة . فابتـاع احدهم حوالى السنة ١٢٣٠ اثني عشر الف شاباً من الشركس والمنغرليين والاباظيين ، ودربهم على اساليب القتال حتى جعل منهم في وقت وجيز فرقة من أجمل جنود آسيا وابرعهم ، ولكنهم في الوقت نفسه من اكثرهم عتواً ، على ما خبره بنفسه بعد حين .

المماليك

فما عتمت هذه الفرقة الشبيهة بالحرس القيصري ان استطالت على سيدها ، وازدادت جرأة في عهد خلفه فخلعته . وفي السنة ١٢٥٠ ، على اثر نكبة القديس لويس ، قتل جنودها آخر امير تركماني واستبدلوا منه احد رؤوسهم ، واطلقوا عليه لقب السلطان وعلى انفسهم اسم المماليك ومعناه الرقيق الحربي[١] .

هذه هي فرقة الارقاء الطغاة التي تملك زمام الامر في مصر منذ عدة قرون . ليس للمماليك عقد اجتماعي يربط بينهم سوى المصلحة الراهنة ، ولا حق دولي يجمعهم بالامة غير حق الفتح ، ولا قاعدة للحكم سوى العنف على يد زمرة من الجنود كثيري الجماح ، غلاظ الرقاب . ان السلطان الاول الذي انتخبوه قد شغل ما بهم من نزعات الفتنة فألهاهم في فتح سوريا ، وتسنى له ان يملك سبع عشرة سنة . ولكن ما من احد بعده بلغ هذا الاجل . فالحديد والشنق والسم والقتل كانت مصير سلسلة من الطغاة تعاقب منهم على الحكم سبعة واربعون في حقبة مائتين وسبع وخمسين سنة . واخيراً جاء السلطان سليم العثماني في السنة ١٥١٧ فوقع في اسره تمام بك آخر حكامهم ، فأمر بشنقه ، وانقرضت به سلالته .

كان على السلطان سليم ، لو شاء تنفيذ مبادىء الترك السياسية ، ان يمحو المماليك عن بكرة ابيهم ، ولكنه رأى بنظره الثاقب ان ينحرف هذه المرة عن القاعدة . وشعر انه اذا منح باشا مصر سلطة امثاله في الولايات الاخرى تعرض لثورة هذا الاخير عليه

١ مملوك اسم مفعول من ملك ، ومعناه المقتنى ملكاً ، اي الرقيق . على انه يجب التمييز بين هذا النوع من المماليك وبين خدمة المنازل ويسمون عبداً (الحاشية للمؤلف) .

بسبب بعده عن العاصمة ، وتلافى هذا المحذور بان وزع السلطة بين هيئات عديدة توازن بعضها بعضاً، وتبقى والحالة هذه تحت سيطرته . ورأى في جماعة المماليك التي نجت من المجزرة الاولى ما يتفق مع مقصده . فأنشأ مجلس وصاية مؤلفاً من الباشا ومن رؤساء الفرق الحربية السبع . وكانت مهمة الباشا ان يبلّغ المجلس ارادة الباب العالي ويرسل الجزية ويسهر على امن البلاد من اعداء الخارج ويحول دون توسع الاحزاب في الداخل . وقد خوّل اعضاء المجلس الحق في رد اوامر الباشا ، على ان يعللوا الاسباب التي تحملهم على رفضها ، بل وفي خلعه ايضاً ، وفي المصادقة على القرارات مدنية كانت او سياسية . اما المماليك فقد تقرر ان يُختار من بينهم حكام المقاطعات الاربع والعشرين او بكواتها ، وانيطت بهم مهمة دفع غزوات البدو والسهر على جباية الضرائب والمحافظة على الامن الداخلي ، ولكن سلطتهم كانت محض وهمية ، وما كانوا إلا آلات تسيرها ارادة المجلس . وحصل احدهم المقيم في القاهرة على لقب شيخ البلد ، اي انه حاكم بالمعنى المدني دون ان يتمتع باية سلطة عسكرية .

وفرض السلطان ضرائب خصص قسماً منها لمرتبات عشرين الف راجل وكوكبة من اثني عشر الف فارس مقيمين في البلاد . وخصص القسم الآخر لامداد مكة والمدينة بما يعوزهما من مؤن البلاد ، والقسم الثالث لتغذية خزانة الاستانة والانفاق على ترف السراي . اما الشعب الذي كان عليه توفير هذه النفقات فلم يكن ليُحسب له حساب ، على ما لاحظ سافاري بصواب ، وبقي خاضعاً كالسابق لقسوة استبداد عسكري .

لقد جاءت طريقة الحكم هذه محققة لمقاصد السلطان سليم بدليل انها استمرت ما ينوف على قرنين، ولكن تيقظ الباب العالي ما عتم ان تضاءل منذ خمسين سنة، فحدثت بعض التطورات التي ادت الى تكاثر عدد المماليك، واستعادتهم الثروة والجاه، واستطالتهم على العثمانيين حتى اصبحت السلطة في يد هؤلاء شيئاً لا يعتد بـــه. ولكي نحيط علماً بهذه الثورة يجب ان نلم بالاسباب التي ساعدت على تزايد المماليك واستقرارهم في مصر.

ان بقاءهم في هذه البلاد قروناً عديدة يحمل على الظن انهم توالدوا فيها عن طريق التناسل العادية. ولكن اذا كان بدء استيطانهم امراً عجباً فان استمرارهم في البلاد لا يقل عن ذلك غرابة. فمنذ دخل المماليك مصر من خمسمائة وخمس وخمسين سنة لم تقم فيهم ذرية واحدة ثابتة، حتى انك لا ترى عيلة في جيلها الثاني، فجميع اولادهم يهلكون في العقد الاول او الثاني، ويكاد يكون العثمانيون في هذه الحالة، لولا لجوؤهم الى الزواج من نساء متوطنات، وهو امر يأنف منه المماليك[1]. كيف نفسر بان رجالاً اصحاء البنية متزوجين من نساء سليمات لا يستطيعون على ضفاف النيل تجنيس دم تكوّن عند اقدام القوقاس. ولنذكر في هذا

١ نساء المماليك اماء قد استقدمن من جورجيا ومنغرليا وغيرها. يتحدث الناس كثيراً عن جمالهن ويجب تصديق ذلك بالاعتماد على التواتر. على ان الاوروبي الذي لا يعرف غير تركيا لا يحق له ان يؤدي مثل هذه الشهادة. فان هؤلاء النساء غير مرئيات، بل لعلهن اكثر تحجباً من غيرهن. وقد يكون في سر هذا التحجب ما يوهم بجمالهن. على انه تسنى لي ان استفهم زوجة احد تجارنا التي يتاح لها دخول جميع المحارم لتعرض منسوجات «ليون»، فاكدت لي انها رأت الف ومائتي امرأة من الطبقـــة المختارة فلم تجد عشراً

الصدد ان اغراس اوروبا تمتنع ايضاً من استبقاء نوعها في تلك الارض . قد لا يصدق الناس هذا العارض المزدوج ، ولكنه ثابت الحدوث، ولا يبدو انه حديث العهد . فقد لاحظ الاقدمون حوادث مماثلة : يقول ايبوقراتس ان الكثيين والمصريين متشابهو الهيئات ، وان هاتين الامتين لا تشبهان اية امة اخرى ، ثم يضيف قائلاً ان المناخ والفصول والعناصر والارض في بلديهما تسير على نمط واحد لا تجده في بلد آخر . أليس في هذا ما يثبت ما نحن في صدده من تمنع الارض ؟ ولئن كانت بلاد كتلك تطبع ما هو في حوزتها بطابع خاص ، أفلا نجد لها مبرراً في نبذ ما هو غريب عنها ؟ ويبدو ان الوسيلة الوحيدة لتبليد الحيوان والنبات هي تعويدها المناخ وتلقيحها باجناس بلدية . وقد سبق لي وقلت ان المماليك أنفوا من هذه الطريقة . اذن ، فقد كان السبب في استمرارهم وتكاثرهم ما ادخلوا في انسالهم من الدم الجديد عن طريق الارقاء المستقدمين من بلاد نشأتهم . وتجارة الرقيق كانت رائجة على شواطىء قوبان وفاس [1] منذ عهد المغول . وهذا كان شأنها في افريقيا سواء أكان ذلك نتيجة للحروب القائمة بين شعوب هذه

يتمعن بالجمال الصحيح . على ان الاتراك غير متعنتين ، وحسبهم ان تكون المرأة بيضاء ليحسبوها جميلة . فاذا كانت سمينة كانت مدهشة . وان شاؤوا التعبير عن مثال الجمال قالوا : « وجهها كالقمر واوراكها كالوسائد » ، حتى يجوز القول انهم يقيسونها بالقنطار . وعندهم مثل غريب : خذ البيضاء من اجل عينيها ، واذا شئت اللذة فتزوج المصرية . وقد دلهم الاختبار على ان نساء الشمال اكثر برودة من نساء الجنوب .

[1] كانت هذه البلاد منبع الرق في كل العهود ، فقد ارسلت الارقاء الى اليونان والرومان وآسيا القديمة . اوليس من الغريب ان تقرأ في هيرودوتس ان جورجيا استقبلت فيما مضى عبيد مصر وان ترى اليوم انها تبادلها جنساً جد مختلف ؟

النواحي او لفقر السكان الذين يبيعون اولادهم للقيام بأود المعيشة . وكان الارقاء من الجنسين يُنقلون الى الاستانة اولاً ، ثم يوزعون على سائر السلطنة حيث يشتريهم الاثرياء . لا ريب ان الاتراك توانوا في تحريم هذه التجارة الخطرة بعد استيلائهم على مصر . واذ هم لم يفعلوا فقد كانوا عوناً للنوازل التي تعمل اليوم على انتزاع ممتلكاتهم ، والتي كان من اسبابها التعسف والتهاون في معالجة شؤون هذه الولاية . فان الباب العالي توخى كبح جماح الباشا فترك الديوان يوسع اختصاصاته ، واصبح رؤساء الانكشارية مرهوبي الجانب ، والجنود انفسهم ، بعد ان اصبحوا مواطنين عن طريق الزواج ، لم يبقوا صنائع الاستانة . وطرأ على النظام تغيير تفاقمت معه البلبلة . فقد كان للهيئات الحربية السبع خزانات مال مشتركة . ولئن كانت الشركة غنية فما كان للافراد ان يتصرفوا في شيء او يستطيعوا شيئاً . وقد ازعج هذا التدبير الرؤساء ، فاستصدروا الامر بالغائه واستأذنوا تملك العقارات والاراضي والقرى . وكانت هذه الاراضي والقرى تابعة للحكام المماليك ، فعملوا على مداراتهم مخافة ان يبهظوها بالضرائب . وراجحت من ذلك الوقت مكانة البكوات مكانة اهل الحرب فرجحتها . وكان هؤلاء يحتقرون البكوات فيما قبل . وزاد هذه المكانة شأناً ما دخل على اصحابها من الثروات الطائلة بفضل قيامهم على امر الادارة ، فاستعملوا المال ليجمعوا حولهم الاصدقاء والصنائع ، واستكثروا من الارقاء فحرروهم ، ثم دفعوهم بما لهم من نفوذ في مراتب الجندية والحكومة . فحفظ حديثو النعمة هؤلاء الاجلال لاسيادهم بحسب العادات الشرقية ، ونظموا لهم احزاباً تهالكت في سبيل ارضائهم . وعلى

هذا النحو درج الكاخية ابرهيم احد قواد الانكشارية ، فتمكن من الاستيلاء على الحكم حوالى السنة ١٧٤٦ . فقد كان يستكثر من المعتقين ويقدمهم في المراتب حتى اصبح عدد البكوات من بينه ثمانية من اصل اربعة وعشرين . واكسبه هذا العدد ارجحية راهنة ، لان الباشا كان يبقي بعض المراكز شاغرة ليتقاضى وظائفها . وساعده سخاؤه على اجتذاب الضبــاط والجنود اليه ، وآزره «رضوان» اكثر القادة نفوذاً ، فاصبح الباشا خيالاً عديم الشأن ، وتضاءلت ارادات السلطان امام ارادة ابرهيم . ولما وافاه الاجل في السنة ١٧٥٧ انقسم معتقوه على انفسهم ، ولكنهم تحزبوا على ما سواهم واستمروا متحكمين . وخلف رضوان زميله ، ولكنه ما لبث ان طرد وقتله بعض البكوات . وتعاقب بعده عدة حكام في فترة قصيرة من الزمن .

وفي السنة ١٧٦٦ ظهر علي بك احد مثيري الاضطرابات الذي استوقف اهتمام اوروبا سنوات عديدة . فاستطال على خصومه ، ولقب امير الحج وشيخ البلد ، وجمع السلطات جميعها في يده . ولما كانت قصة المماليك مرتبطة بقصته ، فسنستمر في سرد احداهما فيما نبسط الاخرى .

الفصل السابع

موجز تاريخ علي بك

يعتور[1] مولد هذا الرجل غموض وريبة ، شأنه بذلك شأن معظم المماليك ، فهم وقد باعهم ذووهم في سن الحداثة او انتزعهم الاعداء ، لا يعون من اصلهم ومن وطنهم إلاّ قليلا من شيء

[1] بعد كتابة هذا المقال نشر المسيو ساڤاري كتابين جديدين عن مصر عالج في احدهما حياة علي بك نفسه ، وحسبت اني واجد عنده من الانباء ما اصحح به روايتي او اثبت منها . وكم كانت دهشتي عظيمة اذ تبين لي انه يكاد لا يكون بيننا شيء مشترك . وقد ساءني هذا التباين خصوصاً واني خالفته في الرأي بصدد امور اخرى ، مما يدخل في روع القراء ان دأبي معاكسة هذا الرحالة ، ولكن فضلا عن اني لا اعرف المسيو ساڤاري بالذات، اود لو اثبت انني انزه نفسي عن تلك الاعتبارات. واذن، كيف حدث انه على كوننا نزلنا الاماكن نفسها وشهدنا الشواهد نفسها قد اختلفنا بالرواية هذا الاختلاف كله ؟ اعترف انني اجهل السبب . وكل ما استطيع تأكيده انني اقمت في القاهرة طوال ستة اشهر كنت استفهم خلالها بدقة وانتباه تجارنا المسيحيين الذين رأيت في اقامتهم الطويلة مضافة الى ما يتحلون به من فطنة ضمانة لصدق ما شهدوا به . ورأيت انهم متفقون في المسائل الرئيسية . وخدمني الحظ ان زكى رواياتهم تاجر من البندقية (المسيو روزيتي Rosetti) الذي كان احد مستشاري علي بك المقربين والعامل الاول في علاقته بالروس ومشاريعه المتعلقة بتجارة الهند . والتقيت في سوريا شهود عيان للحوادث المشتركة بين الشيخ الضاهر وعلي بك مما هيأ لي ان احكم في درجة اطلاع المؤلفين الذين عالجوا قضية مصر . واثناء اقامتي عند الدروز سحابة ثمانية اشهر عرفت من مطران حلب الذي كان مطران عكا خصوصيات عديدة يضاعف اعتقادي في صحتها ان ابرهيم الصباغ وزير الضاهر كان ينزل في ضيافته مراراً. وفي فلسطين عاشت المسيحيين والمسلمين الذين تولوا قيادة جيوش الضاهر

وكثيراً ما يكتمون ذلك . وفي رأي جدير بالثقة انه متحدر من عشيرة الاباظيين القاطنين في القوقاس . وأرقاء هذه العشيرة مرغوب فيهم [1] . وقد نقله النخاسون الى القاهرة في جملة ما نقلوا ، فاشتراه

وحاصروا يافا مع علي بك وآزروه على محمد بك . فقد شاهدت الامكنة وسمعت الشهود ، وتسلمت مذكرات تاريخية من عامل البندقية في يافا الذي اخذ قسطه من الاضطرابات جميعها. تلك هي المواد التي بنيت عليها روايتي. ولست ازعم اني لم اتبين فيها بعض الفروق، ولكن اي الحوادث خالية منها ؟ اما لدينا عشر روايات مختلفة عن معركة « فونتنوى » Fontenoi ؟ فحسبنا اذن ان نحصل على النتائج الرئيسية ونسلم بالاحتمالات الكبرى . وقد تسنى لي ان اتبين بنفسي في هذه المناسبة صعوبة الوقوف على الحقيقة التاريخية واثباتها بدقة .

ولست ازعم انني لم اسمع بعض الاخبار التي اوردها المسيو سافاري ، ولا يجوز ان ينسب اليه انه تخيلها تخيلا . فروايته نسخة طبق الاصل عن كتاب انكليزي مثل بالطبع في السنة ١٧٨٣ بعنوان «موجز عن ثورة علي بك»، وان يكن هذا المؤلف يقتصر على معالجة الموضوع في اربعين صفحة ، فيما يخصص باقي الصفحات لدرس الاماكن والاخلاق والجغرافيا . وكنت في القاهرة لما اذاعت دائرة الاوراق العمومية هذا الكتاب. واذكر عندئذ ان تجارنا عندما سمعوا باسم امرأة تدعى « ماري » زوجة علي بك ، وباسم يوناني يدعى داود والد هذا القائد، نظر الواحد الى الآخر بدهشة، وما لبثوا ان ضحكوا من الاخبار المتناقلة في اوروبا . فعبثاً يدعي العامل الانكليزي الذي كان في مصر سنة ١٧٧١ انه اعتمد في روايته على كاخية علي بك وجماعة من البكوات الذين راجعهم دون « ان يعرف اللغة العربية »، فلا يصح الركون الى اطلاعه الناقص. ومما يعزز ارتيابي في صواب ما يقول انه يبدأ موضوعه بغلطة لا تغتفر ، فهو يقول ان بلاد اباظه هي اماذيا نفسها ، في حين ان الاولى مقاطعة في القوقاس والثانية مدينة في كابادوسيا .

وخلاصة القول ان في باريس « مذكرات عن علي بك » دونها احد الفضلاء الذي جاء مصر ، كما جاءها السيد سافاري وجئتها انا . وهي مذكرات تزيل ما بقي من شك حول هذا الموضوع .

١ يؤثر الاتراك في الدرجة الاولى الارقاء الشركس ثم الاباظيين ، فالمنغرلبين ، فالجيورجيين ، فالروس والبولونيين ، فالمجر والالمان ، فالعبيد ، وفي آخر الدرجات

هناك اليهوديان اسحق ويوسف واهدياه الى ابرهيم الكاخية . ويقدر عمره وقتئذ باثنتي عشرة سنة او اربع عشرة . بيد ان الشرقيين ، مسلمين ونصارى ، لا سجلات للمواليد عندهم ، فلا تعرف اعمارهم بضبط . وقام علي عند سيده الجديد بمهام المماليك وهي المهام التي يضطلع بها غلمان الامراء . ودُرّب هناك على الفروسية والرماية وتسديد الجريد وضرب السيف . ولقن بعض مبادىء الكتابة والقراءة . واظهر في ممارسته هذه التمارين من النزق ما جعل القوم يلقبونه « الجن علي » ، وهي لفظة تركية معناها المجنون . على ان مشاغل الطموح ما عتمت ان لينت طباعه وكبحت من جماحه . ولما راوحت سنه بين الثامنة عشرة والعشرين ، اذن له سيده بارسال لحيته . ومعنى ذلك انه اعتقه ، لان الوجه الامرد عند الاتراك خاص بالعبيد والنساء . وهم من اجل ذلك يتأففون من منظر الاوروبيين لاول وهلة . ومنذ اعتقه ابرهيم وهبه ، زوجة وريعاً ، واسند اليه منصب كاشف ، اي حاكم مقاطعة . ثم احلته في مصاف البكوات الاربعة والعشرين . وما كانت هذه الرتب مضافة الى المكانة والثروة اللتين احرزهما الا لتوقظ فيه الطموح . فلما مات سيده في السنة ١٧٥٧ وجد المجال فسيحاً امام مراميه ، فاشترك في كل الدسائس التي كانت تهدف الى تولية الحكام او عزلهم . وعليه تقع تبعة اغتيال الكاخية رضوان . وتعاقبت الحكام بعد رضوان حتى السنة ١٧٦٢ ، وكان الحاكم عندئذ

الاسبان والمالطيين وسائر الفرنكيين وهم يحتقرونهم بسبب سكرهم وتهتكهم وتمردهم وقلة عملهم .

عبد الرحمن ، وهو رجل ضعيف السلطة بذاته ، الا ان بعض الاحزاب المتآلفة كانت تسانده . وكان علي عهدئذ شيخ البلد ، فرأى في وجود عبد الرحمن على رأس القافلة المتجهة الى مكة فرصة للايقاع به ، فنفاه . ولكنه ما لبث ان نُفي بدوره الى غزة . سوى ان غزة الواقعة في ولاية الباشا التركي لم تكن في نظره مكاناً اميناً تطيب فيه الاقامة . فذهب في اتجاهها ايهاماً ، ثم تحول في اليوم الثالث الى الصعيد حيث لحق به انصاره . واقام في جرجا زهاء سنتين قضاهما في تهيئة وانضاج ما يعتزمه من الاستيلاء على السلطة . وكان له في القاهرة اصدقاء يدهم بالمال الوفير ، فاستدعوه اليها في السنة ١٧٦٦ . فظهر فيها على حين غرة ، وقتل في ليلة واحدة اربعة بكوات ، ونفى اربعة آخرين ، حتى اصبح رئيساً على الغالبية . واذ استجمعت السلطة كلها في يده ، عزم على ان يستخدمها في سبيل تعظيم شأنه . ولم تقف مطامعه عند لقب القائد ، بل رأى في سيادة الاستانة ما يجرح كبرياءه ، ونهدت نفسه الى لقب سلطان مصر . وانحصرت جميع مساعيه في هذا الاتجاه ، فطرد الباشا الذي كان قد اصبح مجرد اداة تمثيلية ، ورفض الجزية المعتادة . وفي السنة ١٧٦٨ امر بسك العملة ووسمها بطغرائه [1] . فوجم الباب العالي لهذا الافتئات ، ولكن قمعه كان يقتضي حرباً صريحة لم تكن الاحوال مؤاتية لها ، لان اسياد الاستانة كانت تشغلهم مسائل بولونيا ومطامع الروس ، فصرفوا همهم كله الى الشمال ، وحاولوا

[1] بعد هلاك علي بك سقطت قيمة قروشه عشرين بالمئة بحجة انها غير صافية المعدن ، فأرسل احد التجار عشرة الاف منها الى مرسيليا حيث صهرت وافاد منها ربحاً عظيماً .

نجاه علي طريقتهم المعتادة في مثل هذه الاحوال ، فأوفدوا نحوه مبعوثيهم المعروفين باسم القبوجيين يحملون مرسة المشنقة . ولكنه كان يستقبلهم بالسم او الخنجر ، فيحبط مساعيهم . فرأى علي ان الفرصة مناسبة للايغال في مقاصده الى ابعد حدود النجاح . وكان يحتل الصعيد وقتئذ شيوخ من العربان على شيء من التمرد . وكان احدهم همام يتمتع بنفوذ يدعو الى القلق . فشاء علي ان يتخلص منه ، واحتج بكون هذا الشيخ يمسك على ابرهيم الكاخية مالاً قد ائتمن عليه ، وبانه يؤاوي العصاة اللائذين به . فوجه عليه كتيبة من المماليك بقيادة محمد بك ابادت هماماً وقواته في يوم واحد . وكان ذلك في السنة ١٧٦٩ .

وشهد هذا العام حملة اخرى ترامت نتائجها الى القارة الاوروبية نفسها . فقد سلح علي السفن في السويس واطلق عليها المماليك صوب جدة مرفأ مكة ، وامر القائد حسن بك ان يحتلها ، فيما انطلقت من البر كوكبة من الفرسان بقيادة محمد بك فاستولت على مكة نفسها ، واعملت النهب فيها . وكان غرضه ان يجعل من جدة مستودعاً لتجارة الهند . وهذه الخطة التي اوعز بها اليه تاجر شاب من البندقية حظي بثقته ، كان يقصد بها اهمال خط رأس الرجاء الصالح والاستعاضة عنه بالطريق القديمة عبر البحرين المتوسط والاحمر . بيد ان عاقبة الحوادث دلت على انه استعجل الامر ، وان الشرائع يجب ان تسبق الذهب الى البلاد التي يرجى لها الازدهار .

وحسب علي ، بعد انتصاره على امير ضئيل الشان في الصعيد وفتحه اكواخ مكة ، ان من حقه السيطرة على العالم بأسره .

واوهمه رجال بطانته انه كسلطان الاستانة شوكة وسطوة ، فآمن بما قالوا . ولو اعمل الفكر قليلاً لتحقق ان مصر بالنسبة الى سائر السلطنة دويلة صغيرة ، وان ثمانية الآف فارس تحت امرته لا تحسب شيئاً يذكر تجاه مئة الف انكشاري مرتهنين باشارة السلطان . ولكن المماليك يجهلون تقويم البلدان . وكان علي ، وهو يرى مصر عن كثب، يحسب انها اوسع من تركيا التي ينظر اليها من بعيد . فعزم على مباشرة فتوحاته . ومن الطبيعي ان تكون سوريا ، وهي على بابه ، اولى مبتغياته . وكانت حوادث تلك الايام توائم مقاصده . فالحرب الدائرة مع روسيا من السنة ١٧٦٩ تشغل القوات التركية جميعها في الشمال ، والشيخ الضاهر المتمرد على السلطان حليف امين مقتدر ، واختلاسات باشا دمشق تهيىء الافكار للثورة . اذن ، ما اجملها فرصة لاحتلال ولايته والخروج من هذه المغامرة بلقب منقذ الشعوب ! ادرك علي هذا كله ، فلم يتأخر عن القيام بحركاته الا بمقدار ما تقتضيه العدة للامر . فلما استكمل الاهبة في شهر كانون الاول من السنة ١٧٧٠ جرّد كوكبة من المماليك تبلغ خمسمائة فارس (والمماليك لا يسيرون رجّالة قط) ، وسيّرهم على غزة ليضمن النفاذ الى فلسطين . وما ان بلغ امر الاحتلال مسامع عثمان باشا حاكم دمشق ، حتى هرع الى مجابهته . فارتعدت فرائص المماليك من سرعته وعدد الجنود . فامسكوا اعنة الخيل تأهباً للهرب . بيد ان عمر الضاهر الرجل الذي لم تعرف له سوريا مثيلاً بالنشاط ، اقبل من عكا وانقذهم من الورطة . وكان عثمان يعسكر بالقرب من يافا ، فانهزم دون ما نزال . فاحتل الضاهر يافا والرملة وفلسطين برمتها، وفتحت الطريق امام الجيش الكبير

المنتظر .

وصل هذا الجيش في نهاية شباط من السنة ١٧٧١ ، وقد ذكرت صحف تلك الايام ان عدده ستون الف مقاتل ، فحسب الناس في اوروبا انه يماثل جيوش روسيا او المانيا ، وفاتهم ان الاتراك ، واخصهم اتراك آسيا ، يختلفون عن الاوروبيين من الناحية العسكرية اكثر مما يختلفون عنهم في العادات والاخلاق . فان ستين الف جندي عندهم ابعد من ان يوازوا ستين الف من جنودنا . وفي الجيش الذي نحن في صدده دليل على ذلك . فانه يتألف من اربعين الف رجل موزعين على الوجه الآتي : خمسة الآف فارس من المماليك ، والف وخمسمائة مغربي رجّالة . ويتبع كل مملوك خادمان راجلان مسلحان بالعصي ، ومجموعهم عشرة الاف . وثمة الفا خادم وسرّاج وراء البكوات ، فضلاً عن الباعة المرتزقة والتّبّع . هذا هو الجيش الذي نحن في صدده كما وصفه لي اناس شاهدوه وتتبعوه . وكان يقوم على قيادته محمد بك احد رجال بطانة علي الملقب بابي الذهب نظراً الى الترف البادي في اجهزة جواده وفرش خيمته . اما الترتيب والنظام فلا أثر لهما قط في ذلك الجيش ، لان جيوش المماليك والاتراك ان هي إلا خليط غامض من فرسان لا مماثلة في ازيائهم ، وجيادهم متباينة القد ، مختلفة اللون . زحف هذا الحشد صوب عكا تاركاً وراءه آثاراً من فوضاه وتعدياته . فاتصل بجماعة الشيخ الضاهر وهم الف وخمسمائة فارس صفدي [١] بأمرة ولده علي ، والف ومائتا فارس من المتاولة بقيادة الشيخ ناصيف ، وما

[١] الصفديون نسبة الى صفد مركز عمو الضاهر الاصلي ، وهي قرية في الجليل .

يقرب من الف راجل من المغاربة . فلما تم هـذا الاتصال ودبرت الخطة ، زحف الجيش على دمشق في خلال نيسان . وكان عثمان قد وجد متسعاً من الوقت لاعداد عدته ، فجمع جيشاً يضاهي جيش عدوه عدداً وبلبلة . وانضم اليه باشاوات صيدا وطرابلس وحلب ، فتربصوا جميعاً تحت اسوار دمشق . ولا تتصورنّ هنـا حركات متوافقة كالتي تجعل الحرب عندنا منذ مئتي سنة علم حساب وتبصر . فلا المام للاسيويين بتلك المبادىء . وجيوشهم هُواشة [1] ، وزحفهم نهب ، وحملاتهم غزوات ، ومعاركهم اعتراك ، يسعى اقدرهم او اجرأهم الى الآخر فينهزم غالباً دون نزال . فاذا ثبت ، نشب القتال واختلط المتقاتلون وتلاحموا ، وتفجرت البواريد ، وحطمت الرماح ، وتكاد تعوزهم المـدافع وقلما استخدموها . وكثيراً ما يسود الرعب ولا سبب له ، فيهرب فريق ويزحمه الآخر منادياً بالنصر . ويكابد المغلوب شريعة الغالب ، وكثيراً ما تنتهي الحملة بانتهاء المعركة .

هذا جزء مما حدث في سوريا سنة ١٧٧١ زحف جيش علي وعمر على الشام ، وانتظره الباشاوات ، فتقدم . وكان الامر الحاسم في اليوم السادس من حزيران . فقد صال المماليك والصفديون على الاتراك وامعنوا في التقتيل حتى ذعر هؤلاء وادبروا . ولم يكن الباشاوات آخر المنهزمين . فسيطر الحلفاء على المدينة الخالية من الجنود والاسوار واستولوا عليها . واستقلت القلعـة بالمقاومة ، وليس في اسوارها مدفع ولا مدفعي ، ولكن هناك خندقاً موحلاً ، وما وراء الخرائب بعض الرماة . وكان ذلك كافياً لكبح جماح

[1] الجماعة قد اختلط بعضها ببعض Cohue .

هذا الجيش من الفرسان . على ان المحاصَرين ، وقد غلبوا على امرهم ، عاهدوا العدو في اليوم الثالث على التسليم ، ولكن ما طلع النهار حتى حدث انقلاب هو اغرب ما تناقلته المسامع . ففي الوقت الذي كان ينتظر القوم اشارة التسليم ، اذا بمحمد يصيح بجماعته الادبار ، ويتحول جميع فرسانه صوب مصر . وعبثاً تسارع علي الضاهر وناصيف ليستفهماه سبب هذا المآل المفاجيء ، فلم يحظيا من هذا المملوك الا بتهديد المتجبر . وارتحل القوم في بلبلة . وما كان ارتحالهم انكفاء بل هزيمة ، كأن العدو يعمل السيوف في كشوحهم . وامتلأت الطريق من دمشق الى القاهرة بالمشاة والفرسان المشتتين ، فضلاً عن المهام والعدد المهملة . وقد جعلوا مرد هذه الحادثة الغريبة وقتئذ الى ما شاع من موت علي بك . على ان عقدة اللغز الحقيقية مؤامرة سرية حصلت في خيمة محمد ليلاً ، اذ ان عثمان لما استشعر عجز قوانه لجأ الى الاغراء . فاوفد الى القائد المصري احد رجاله اللبقين بحجة مفاوضته بالمصالحة ، فسعى بدس الشقاق والعصيان ، وادخل في روع محمد ان الدور الذي يمثله يعرّض شرفه وحياته ، وانه يخطيء اذا اعتقد ان السلطان سوف لن يقتص من علي بك ، وان انتهاكه لحرمة مدينة مقدسة كدمشق احد البابين الى الكعبة تدنيسٌ لها ، وانه يدهش من كونه هو محمد يؤثر على حظوة السلطان رضى احد عبيده ويجعل بينه وبين الذات الشاهانية سيداً آخر ، وانه من المعروف ان هذا السيد يعرّضه كل يوم لاخطار جديدة ويضحي به في سبيل مطامعه الشخصية وحسد كاخيته رزق القبطي . فهذه الاسباب ، واخصها الاخيران المتعلقان بمسائل معروفة ، قد أثرت ابعد التأثير في محمد

واتوابه البكوات ، فتفاوضوا للحال فيما بينهم ، واقسموا على السيف والمصحف انهم قافلون الى القاهرة في الحال . وكان ترحلهم المفاجىء نتيجة لهذه الخطة . فقد انصرفوا عن الفتح وساروا سيراً حثيثاً ، حتى ان خبر عودتهم لم يسبقهم الى القاهرة الا بست ساعات فقط . فارتاع علي وحدثته النفس في معاقبة قائده فوراً . ولكن محمداً كان كثيراً برفاقه ، فلم يكن ثمة سبيل لاية محاولة ضده . وكان لا بد من المداجاة ، فلزمها علي بسهولة لانه مدين بحظه لها اكثر منه لشجاعته .

لقد حرم علي فجأة من ثمرات حرب كثيرة التكاليف ، ولكنه لم يرجع عن مقاصده ، بل استمر على ارسال النجدات الى حليفه عمر الضاهر ، وحشد جيشاً آخر للسنة ١٧٧٢ ، ولكن الحظ سئم من مساعدة علي فتحول عنه . فكانت نكبته الاولى في خسارة سفنه التي استولى عليها القرصان الروس مقابل دمياط ، فيما كانت تنقل الارز لعمر الضاهر . ثم جاءت حادثة هرب محمود بك ضغناً على ابالة .

كان من الصعب على علي ان ينسى حادثة دمشق ، ولكن بقية الحب التي يضمرها المرء نحو من احسن اليهم كانت تحول دون انزاله الضربة القاضية . بيد انه عزم عليها بعد حديث مع التاجر البندقي الذي كان يحظى بثقته .

وقد شافهني التاجر نفسه بهذا الحديث وهو :

« قال علي بك : هل لسلاطين الفرنجة اولاد يضاهون بالثروة ابني محمد ؟ فأجابه التاجر : لا ، يا مولاي ، وهم يحاذرون ذلك مخافة ان يعظم شأن الاولاد فتأخذهم العجلة ليرثوا آباءهم . »

ونفذت هذه الكلمة الى قلب علي كالسهم . فأصبح يرى في محمد خصماً خطراً ، فصمم على اهلاكه . ولكي يتم له النجاح دون مغامرة، انفذ الامر اولاً الى القائمين على حراسة ابواب القاهرة بأن يحولوا دون خروج اي كان من المماليك عند العصر او في الليل . ثم ابلغ محموداً انه منفيّ للحال الى الصعيد . وكان يقصد من هذه المناقضة ان يوقف محمود عند الابواب ، وان يستولي الحراس عليه من ايسر سبيل . على ان الاقدار واوبت هذه التدابير الضعيفة المبهمة . وشاء الحظ ان يؤدي سوء التفاهم الى حسبان محمود مكلفاً مهمة خاصة من علي . فتركوه وشأنه يمر مع اتباعه . وهنا ضاع الامل بالنجاح . وبلغ امر الغلطة علياً ، فأمر بتعقبه . على ان محمداً ابدى من رباطة الجأش ما جعل القوم يتهيبون مهاجمته . فيمم الصعيد يتأكله الغيظ وتحدوه رغبة الانتقام ، ولكن خطراً آخر كان يتربص به ، فان ايوب بك ، احد قادة علي ، تظاهر بمشاطرة المنفي احقاده ، فاستقبله بفرح وابتهاج واقسم على السيف والقرآن بانه يحازبه على علي . ولم تنقضِ بضعة ايام حتى انجلت الوقائع عن رسائل من ايوب الى علي يعده فيها برأس عدوه قريباً . وتكشفت الدسيسة لمحمد ، فألقي القبض على الخائن وقطع معصماه ولسانه ، ثم أرسل الى القاهرة لينال ثواب سيده .

بيد ان المماليك ، وقد ملوا تشامخ علي ، تحولوا جماعات الى خصمه . وكانت اربعون يوماً كافية لمحمد حتى تستجمع له قوة تمكن معها ان ينحدر من الصعيد مشرع السلاح . فقابله علي بقوة من انصاره ، ولكن كثيرين منهم انضموا الى العدو . واخيراً ، في خلال شهر نيسان من السنة ١٧٧٢ ، وقعت الواقعة ، في سهل

المصاطب عند ابواب القاهرة ، ودارت الدائرة على علي ، فدخل محمد المدينة بالوفير من رجاله وعدده . ولم يتسنّ لعلي بك الا فرصة الهرب مع ثمانمائة مملوك تبعوه . ولاول مرة في حياته قصد الى غزة . وحاول ان يذهب لفوره الى عكا مقر حليفه عمر الضاهر . ولكن اهل نابلس ويافا سدوا المسالك دونه . فاضطر عمر الضاهر ، ان يأتي بنفسه ليزيل من امامه العقبات ، واستقبله هذا العربي بسلامة الطوية والرحابة اللتين تميزت بها امته خلال الازمنة ، وذهب به الى عكا . وكان جنود عثمان والدروز يحاصرون مدينة صيدا ، فاستنجدته عليهم . فانطلق يصحبه علي . وكانت قوتاهما مجتمعتين ، تبلغان سبعة آلاف فارس . وما اقتربوا من المدينة حتى رفع الاتراك الحصار عنها ، وتراجعوا صوب شماليها مسافة فرسخ حتى نهر الحولة . وهناك في شهر تموز سنة ١٧٧٢ نشبت معركة هي اضخم معارك تلك الحرب واكثرها انتظاماً . وكان الجيش التركي ثلاثة اضعاف جيش الحليفين ، ولكنه مني بهزيمة نكراء . فهرب قادته الباشاوات السبعة وبقيت صيدا في يد الضاهر وحاكمها الدنكزلي . وفي عودة علي بك وعمر الضاهر الى عكا انطلقا الى يافا لينزلا القصاص بسكانها المتمردين الذين حاولوا الاحتفاظ بمستودع ذخيرة وامتعة كانت قد افرغتها مراكب علي بك قبل ان يطرد من القاهرة . وكان يحتل المدينة شيخ من نابلس ، فأغلق ابوابها واكرمها على محاصرتها . وبدأت هذه الحملة في شهر تموز ، واستمرت ثمانية اشهر على كون يافا لا يعصمها الا جدار بستاني لا خنادق حوله . ذلك بأن السوريين والمصريين يعوزهم المران في حرب الحصار شأنهم في حرب البر . واخيراً استسلم المحاصَرون في شهر

شباط من سنة ۱۷۷۳ . واستعاد علي حريته فاصبح شغله الشاغل ان يرجع الى مصر . ووعده عمر الضاهر بالنجدة ، في حين ان الروس وعدوا بمساندته ، وكان قد حالفهم بعد قضية القرصنة التي سبق ذكرها . على ان استجماع تلك الوسائل الشتى يحتاج الى وقت ، وعلي نافذ الصبر ، وما كانت وعود رزق كاهنه ورجّام الغيوب عنده الا لتزيده طماحاً . فما برح هذا القبطي يؤكد له ان ساعة عودته قد آذنت ، وانها ، على مـا تدل الكواكب ، ستتم في احسن الاحوال واكثرها مواتاة ، وان ثمة دلائل على ان محمداً صائر الى هلاك اكيد . وكان علي ، شأن سائر الاتراك ، يعتقد بالتنجيم ويثق برزق ثقة يبررها ان تنبؤاته كثيراً ما كانت تصدق وتصح . فيمَ الانتظار اذن؟ وجاءته عن القاهرة انبـاء عجلت في نفاد صبره . ففي اوائل شهر نيسان وردت عليـه رسائل من اصدقائه يذكرون فيها انهم سئموا عبده العاق ، وانهم ينتظرون رجوعه للاقتصاص من محمـد . فقرر المسير للحال . ولم يبق في وسعه ان ينتظر قدوم الروس ، فانطلق مع المماليك والف وخمسمائة رجل من الصفديين بقيادة عثمان بن عمر الضاهر . بيد انه كان يجهل ان رسائل القاهرة ان هي الا مكيدة مـن محمد نفسه استكتبهـا مرسليها عنوة ليخدع علياً ويوقعـه في الشرك المنصوب له . وفي الواقع مـا كاد علي يتورط في الصحراء بين غزة ومصر حتى التقى فرقة مختارة من المماليك يبلغ عدد رجالها الف مقاتل يتولى قيادتهم مراد بك ، وهو فتى من المماليك شغف بامرأة علي بك ، فوعده بها محمد اذا سلمه رأس زوجها . وما لاح لمراد غبار الاعداء عن بعـد حتى انقض عليهم وبعثرهم . واستتم

الحظ له فالتقى علياً في المعمعة وجهاً لوجه ، فهاجمه وساف جبينه فجرحه وقبض عليه ثم استاقه الى محمد . وكان هذا الاخير على مسافة فرسخين وراء الجيش ، فاستقبل سيده القديم وبالغ في توقيره والحدب عليه مبالغة تنم عند الاتراك على الغدر ، وخصه بخيمة فاخرة الرياش ، واوصى بالعناية التامة به ، وكرر انه الف مرة عبده الذي يلثم موطىء قدميه . على ان هذه المأساة انتهت في اليوم الثالث بموت علي ، وعزاه البعض الى جراحه ، فيما عزاه البعض الآخر الى السم . والاحتمالان متعادلان بحيث يتعذر الترجيح .

هكذا انتهت حياة هذا الرجل الذي استوقف اهتمام اوروبا حقبة من الزمن ، وتوقع بعض الساسة من ورائه انقلاباً خطيراً . لا ريب انه كان رجلاً خارقاً ، ولكن من المبالغة ان نحله في مصاف الرجال العظام . ويروي الشهود الثقاة انه كان ينطوي على كثير من المزايا الفطرية ، إلا ان افتقاره الى الثقافة حال دون نمائها النماء الذي يجعل منها فضائل كبرى . لنتجاوز عن اعتقاده بالتنجيم الذي كان يسير اعماله اكثر مما كان يسيرها التبصر في الاسباب والاحوال ، ولنتجاوز عن خياناته وحنثه بالعهود والايقاع بالمحسنين اليه ، تلك الوسائل التي تذرع بها لتولي السلطة واستبقائها في يديه . لا ريب ان الخلقيات عند جماعة امرهم فوضى هي غيرها عند قوم يسودهم السلام . على اننا اذا حكمنا على اهل المطامع بمقتضى المبادىء التي يقولون بها ، نرى ان علي بك وضع خطة للتوسع فلم يترسم خطوطها ، وعمل على هلاك نفسه . ومن الحق خاصة ان نأخذ عليه ثلاثة اخطاء :

١ – نزعته على غير تبصر الى الفتوحات التي نفدت معها

مداخيله وقواته وصرفته عن ادارة بلاده الداخلية .

٢ – ركونه الى الراحة قبل الاوان وتحويل العمل على معاونيه بما حط من قدره عند المماليك ، وجرّأ الناس على الثورة .

٣ – واخيراً ، اغداقه الثروات الهائلة على رأس احد خاصته بما اكسب هذا الاخير مكانة افرط فيها وتجاوز . ولو افترضنا ان محمداً من اهل الفضيلة ، أما كان يجدر بعلي ان يحذر غواية المداهنين الذين يلتفون في كل بلاد الناس حول الجاه والنعمة ؟ على ان ثمة مزية جديرة بالاعجاب تميز علي بك من سائر الطغاة الذين تعاقبوا على الحكم في مصر . لئن تكن عيوب التربية الرديئة قد حالت دون معرفته المجد الحقيقي ، فمن الثابت انه كان طامحاً اليه ، وما كان هذا الطموح يوماً مراد النفوس الوضيعة . ولم يكن يعوزه إلا مقربون يعرفون السبيل الى ذلك المجد ، وقلائل هم القادة الذين يستحقون هذا الاطراء .

ولا يسعني السكوت عن ملاحظة سمعتها في القاهرة . ان التجار الاوروبيين الذين شهدوا علياً حاكماً ومخلوعاً يطرون ما اتصف به من حلم وتشيّع للعدل وعطف على الفرنجة ، ويدهشون لعدم تأسف الشعب عليه ، فينعتون هذا الشعب بالتقلب او نكران الجميل . على ان هذا الامر لا يبدو غريباً في نظري . فان احكام الشعب في مصر وغيرها تمليها عليه احوال معاشه . فبمقدار ما يكون الحكام قد عسّروها له او يسروها ، يبادلهم مقتاً وذماً او ثناء ورضى . وما كانت هذه الطريقة يوماً عمياء او جائرة ، فعبثاً يقنعونه ان شرف السلطنة او مجد الامة او تشجيع التجارة والفنون الجميلة تقتضي هذا العمل او ذاك ، فحاجته الى المعاش اخص حاجاته

واولاها . ومتى اعوز الخبز الجماعات فمن اقل حقوقها ان تضن بعرفان الجميل والاعجاب . ماذا يعني شعب مصر ان يفتح علي الصعيد او مكة او سوريا اذا لم تكن هذه الفتوحات عاملة على تحسين حاله ؟ وقد حدث في الواقع ما افضى بالبلاد الى أسوإ مآل . فان نفقات الحروب ادت الى تفاقم الضرائب ، فبلغت تكاليف حملة مكة وحدها ستة وعشرين مليوناً بعملة فرنسا . وخرجت المؤن من البلاد وراء الجيوش ، ولجأ بعض التجار المقربين الى الاحتكار ، فحدثت مجاعة عمت البلاد طوال سنتي ١٧٧٠ و١٧٧١ . فهل اخطأ سكان القاهرة وفلاحو المزارع الجائعون بتذمرهم من علي ؟ وهل اخطأوا بتقبيح تجارة الهند التي انحصرت منافعها في ايد معدودات ؟ واذا كان علي قد انفق خمسة وعشرين الف ليرة ثمناً لقبضة خنجر ، أما كان من حق الشعب ان يتكره هذا البذخ وينفر من صاحبه ؟

وهذا السماح في العطاء الذي كان يحسبه رجال خاصته فضيلة ، أما كان الشعب مصيباً ، وقد حصل على حسابه ، ان يعدّه نقيصةً وعيباً ؟ اي فضل لهذا الرجل في بذل ذهب لا يكلفه شيئاً ؟ أكان من العدل ان يرضي عواطفه الخاصة ويسدد التزاماته على نفقة الجمهور كما حدث له ان فعل مع قيم قصره [1] ؟ لا نكران ان

[1] كان علي بك في طريقه الى المنفى (وقد نفي ثلاث مرات) وضرب خيامه على مقربة من القاهرة حيث منح مهلة اربع وعشرين ساعة لايفاء ديونه . وجاءه المدعو حسن احد الانكشارية وله في ذمته خمسمائة دينار . وحسب علي انه اتى يطالب بدينه ، فشرع يعتذر له . على ان حسناً هذا اخرج من جيبه خمسمائة دينار اخرى وقال له : انك الان في محنة ، فخذ هذه ايضاً . فذهل علي من هذا السخاء واقسم برأس النبي انه اذا قدر له



معظم اعمال علي بك لا تستند الى مبادىء العدل والانسانية بقدر ما هي ترجع الى عوامل طمعه وزهوه ، فلم تكن مصر في نظره إلا ملكاً ، والشعب إلا قطيعاً يجوز له ان يتصرف به على هواه . أنعجب بعد هـذا ان الناس الذين عاملهم معاملة السيد المتصلف ينظرون اليه نظرة الاجراء المستائين ؟

الرجوع سيجعل لهذا الرجل ثروة لا مثيل لها . وتمت له العودة ، فعين هذا الرجل متعهداً عاماً للارزاق . وعبثاً حدثوه بامر اختلاساته الفاضحة ، فلم يقتص منه قط .

الفصل التاسع

موجز الحوادث منذ موت علي بك حتى السنة ١٧٨٥

لم تتبدل حال المصريين بعد موت علي . فان خلفاءه لم يحاولوا الاقتداء حتى بما هو جدير بالثناء من سلوكه . اما محمد بك الذي خلفه في شهر نيسان من السنة ١٧٧٣ ، فلم يظهر منه خلال سنتي حكمه الا نزق اللص ولؤم الخائن .

وخشي ان يرمى بالجحود ونكران الجميل فتظاهر بانه المنتقم لحقوق السلطان ورسول مشيئته ، فارسل الجزية الى الاستانة بعد ان انقطعت عنها ست سنوات ، واقسم يمين الطاعة بلا قيد ولا شرط ، وجدد خضوعه عند موت علي بك ، وتوسل بحجة اخلاصه للسلطان فاستأذنه في محاربة العربي عمر الضاهر . وهو طلب لو اتيح للباب العالي ان يلتمسه التماساً لفعل ، فما بالك به وهو يمنحه تكرماً ؟ اجل لقد اجاب محمداً الى رغبته واسبغ عليه لقب باشا القاهرة . فاصبحت الحملة شغله الشاغل . وقد يتساءل المرء اي فائدة سياسية يفيدها حاكم على مصر من سحق العربي عمر الضاهر الثائر في سوريا ؟ على ان السياسة في هذه الحالة ، شأنها في سائر الاحوال ، ابعد من ان يسترشد بها اولئك الناس . فالعوامل هنا محض شخصية ومنها حقد محمد ، اذ لم يكن باستطاعته ان ينسى الرسالة الاليمة التي كان الضاهر قد وجهها اليه في ابان ثورة دمشق ، ولا

المساعي التي قام بهـــا ضده لمصلحة عــلي بك . وتحالفت البغضاء والجشع . فقد كان من المأثور عن ابرهيم الصباغ وزير عمر الضاهر انه جمـــع ثروات طائلة . فكانت مصلحة محمد بهلاك عمر الضاهر مزدوجة : الثأر والاثراء . ولذلك لم يتردد في اقتحام غمرات الحرب ، فاستعد لها بنشاط تسعّره البغضاء . وتعزز بمدفعية عظيمة ، واستقدم لهـــا مدفعيين اجانب ، وجعل قيادتها بأمرة الانكليزي روبنصن ، واستجرّ من السويس مدفعاً طوله ثلاث عشرة قدماً . واخيراً ظهر في فلسطين على رأس جيش يضاهي الجيش الذي كان قد جرده على دمشق . وكان ذلك في شهر شباط من السنة ١٧٧٦ . وما اقترب من غزة حتى انكفأ عنها رجال عمر الضاهر لعلمهم ان المقاومة لا تجديهم فتيلًا ، فاحتلها ولم يتوقف بل زحف عـلى يافا .

وكانت تقوم على حراسة هذه المدينة حامية يعززها جميـــع السكان وهم متمرسون بالقتـــال . فتصدوا للمعتدي فحاصرهم . ويدلنا تاريـــخ هذا الحصار على مبلغ جهل اولئك القوم للفنون الحربية . وفي ما نورده من الوقائع الرئيسية برهان على ذلك .

تقع يافا عـــلى ساحل قليل الارتفاع عن سطح البحر . وتقوم المدينة نفسها عـلى تلّ كقالب السكر ينتصب عمودياً الى مئـــة وثلاثين قدمـــاً . وتبدو المنازل المزروعة عـــلى السفح كالمسطحات المتراكبة . وفي القمة قلعة صغيرة تشارف جميع مـــا يحيط بها . واسفل التل محاط بجدار غير محصن يراوح ارتفاعه بين اثنتي عشرة قدماً واربع عشرة ، وسماكته بين قدمين وثلاث . ولا تميزه من حائط البساتين إلا الشرفات التي تعلوه ، ولا خنادق تعصمه . وتمتد حياله حدائق من الليمون والبرتقال تبلغ ثمارها حجماً غريباً بفضل

خصب التربة . تلك هي المدينة التي هاجمها محمد . وكان حماتها عندئذ خمسمائة صفدي او ستمائة ، ومثل هذا العدد من السكان هبوا جميعاً لصد العدو وسلاحهم السيف وبنادق الصوان والفتيل . وكان في حوزتهم بعض مدافع فولاذية زنة قنابلها اربع وعشرون ليبرة . ولم يكن لتلك المدافع محامل فرفعوها على قواعد خشبية رُكزت بعجلة فائقة . وحسبوا ان القوة في الشجاعة والبغضاء ، فأجابوا العدو على انذاره بالتهديد والعبارات النارية .

واذ رأى محمد انه لا بد من اكتساحهم عنوة واقتداراً ، عسكر امام المدينة . ولكن المماليك يجهلون القواعد الفنية بدليل ان محمداً وقف من المدينة على نصف مرمى المدفع ، فنبهه الى خطأه سيل القنابل المنهمر على خيامه ، فتراجع رويداً حتى استقر في المكان الامين . فنصبت له خيمة اسرفوا في زخرفتها ، وبدت فيها مظاهر من البذخ لا حد لها ، ثم ضربت حولها خيام المماليك دونما نسق او نظام . واصطنع البرابرة اكواخاً من جذوع الشجر واغصان الليمون . وتدبر سائر الجيش امره بقدر المستطاع . وتوزع الحراس هنا وهنالك على وجه يكاد يكون مرضياً . ولم يقيموا المتاريس حول المعسكر . وحسبوا مع ذلك انهم معسكرون بمقتضى الاصول . وتحتم عليهم تثبيت المدفعية فتخيروا لها منهداً من الارض في الجنوب الشرقي من المدينة ، وأحكموا ثمانية مدافع ضخمة وراء جدر البساتين على مسافة مائتي خطوة من المدينة ، وشرعوا يطلقون النار على رغم رصاص البنادق المتساقط عليهم من اعالي السطوح ، مما كان سبباً في تقتيل الكثيرين من مطلقي مدافعهم . ان هذا الترتيب يبدو غريباً في اوروبا ، حتى ان الناس قد يشكون

في حقيقة امره . بيد ان تلك الحوادث لم يمر عليها احدى عشرة سنة . وقد شاهدت اماكنها ، واستمعت بصددها الى شهود عيان . واری المفروض علي ألا اشوه وقائع يجب ان تكون مستنداً للحكم على ذهنية امة . وفتحت المدافع في هذا الجدار ثغرة واسعة ، فحاول المماليك عبورها على ظهور الجياد . واذ تبين لهم ان الامر مستحيل ترجلوا ، وساروا بسراويلهم الواسعة وارديتهم المشمرة يتعثرون بالانقاض ، السيوف العقفاء في ايديهم والطبنجات في اوساطهم . وحسبوا انهم جاوزوا كل العقبات بعد اجتيازهم هذه الانقاض . بيد ان المحاصرين تريثوا حتى نفذ المماليك الى الارض المنكشفة فأمطروهم وابلاً من الرصاص. فارتدوا منهزمين . فاستنفرهم مراد بك مرات متتالية ، ولكن على غير طائل . وكان محمد بك في هذا الوقت يتميز غيظاً ويأساً . واستمرت الحال على هذا المنوال ستة واربعين يوماً . على ان عدد المحاصَرين كان يتناقص يوماً فيوماً بسبب الهجمات المتوالية . ويئسوا من اية نجدة تصلهم من عكا . وسئموا ان يستقلوا في الدفاع عن قضية عمر الضاهر . وكان المسلمون اكثر تبرماً من غيرهم ، ناسبين الى المسيحيين انصرافهم الى الصلاة وانشغالهم بالكنائس اكثر من اهتمامهم بساحة القتال . وفتح البعض باب المفاوضات ، فاقترح اخلاء المكان اذا كان المصريون يؤمّنون المحاصَرين على المال والارواح . ووضعت الشروط حتى كاد يصح القول ان المعاهدة ابرمت بين الفريقين . ولكن نفراً من المماليك غنموا فرصة الهدنة فانسلوا الى المدينة ، فتأثرتهم الجماهير . وباشروا النهب ، فحاول الاهالي المدافعة ، واستؤنف الهجوم . وتواثب الجيش زرافات واعمل السلب والتقتيل ، فحصد

السيف النساء والاطفال والشيوخ . وابت وحشية محمد ونذالته إلا ان يرفع نصباً للنصر ، فأمر ان يشاد له هرم من رؤوس القتلى المناكيد ، وقد جاوز عددهم الفاً ومائتي نسمة . وكان من نتيجة هذه الكارثة التي حلت بالمدينة في ١٩ ايار سنة ١٧٧٩ ان عم الذعر سائر البلاد ، فانهزم الشيخ عمر الضاهر من عكا حيث حل ابنه علي محله . وكان علي هذا شديد البأس ، على كونه شوه امجاده بثوراته على ابيه ، فاعتقد ان محمداً — وكان قد حالفه — سيحترم الحلف ، ولكن هذا المملوك ما كاد ينتهي الى ابواب عكا حتى طلب من علي ثمناً لصداقته له رأس ابيه ، فرفض علي وتخلى عن المدينة للمصريين ، فانتهبوها انتهاباً . وكاد التجار الفرنسيون يتعرضون لمثل هذا المصير . ولكنهم ما لبثوا ان فوجئوا بخطر مريع . فقد ترامى الى مسامع محمد انهم مؤتمنون على ثروة ابرهيم كاخية عمر الضاهر ، فانذرهم بالموت اذا منعوها عنه . وعيّن للبحث عنها فيما بينهم نهار الاحد التالي ، فوقع في هذا النهار حدث انقذهم من هذه الورطة الهائلة . فقد استولت على محمد حمّى خبيثة اهلكته بعد يومين ، فقضى في زهرة العمر ، وكان ذلك في شهر حزيران من السنة ١٧٧٦ . ويعتقد المسيحيون ان هذه الميتة قصاص من النبي الياس الذي كان محمد قد هتك حرمة كنيسته على جبل الكرمل . ويروون ايضاً انه كان يراه مرات عديدة بصورة شيخ ويصيح باستمرار : « ابعدوا عني هذا الشيخ الذي يلازمني ويرعبني. » على ان الذين شهدوا ساعاته الاخيرة قد اخبروا اشخاصاً جديرين بالثقة في القاهرة ان هذه الرؤيا ما كانت الا نتيجة للهذيان الناشىء عن ذكرى الضحايا التي غدر بها

محمد ، وان موته يرجع الى رداءة المناخ والقيظ والتعب المفرط ، فضلاً عن الهموم المرهقة التي لازمته في ابان حصار يافا . وتجدر الاشارة هنا الى اننا لو شئنا الاعتماد في كتابة التاريخ الحديث على رواية مسيحيي سوريا ومصر لجاءت ملأى – كما في العصور السالفة – بالمعجزات والرؤى .

وما ذاع نبأ موت محمد حتى سادت الجيش الفوضى على ما حصل له في دمشق ، وانهزم صوب مصر . وكان مراد بك قد اصبح ذا نفوذ عظيم فأسرع الى القاهرة ينازع ابرهيم بك القيادة ، وهو من اخصاء الميت واحد معتقيه . فلم يبلغ مسامعه ما آلت اليه الامور حتى اتخذ من التدابير ما يضمن له بقاء السلطة التي كان مؤتمناً عليها منذ غياب سيده . وكانت الاحوال جميعها تؤذن بوقوع الحرب . على ان كلا الخصمين وازن بين وسائله ووسائل عدوه فرأى انها متعادلة بحيث اصبح يخشى عاقبة القتال . لذلك اختارا السلم وتوافقا على ان تكون السلطة بينهما مشاعاً ، شرط ان يحتفظ ابرهيم بلقب شيخ البلد او القائد . هذا ما قضت به مصلحتها المشتركة في التأمين على سلامة كليهما . وكان البكوات الذين من بيت علي (اي الذين اعتقهم) يتبرمون سراً بكون السلطة قد انتقلت الى يد حزب جديد . وكانت رفعة الشأن التي بلغها محمد تجرح كبرياءهم . وبدت لهم سلطة عبيده مما يفوق طاقة الاحتمال . فعزموا على التخلص منها وشرعوا يدسون الدسائس ويحزّبون الاحزاب حتى تيسّر لهم ان يؤلفوا عصبة اطلقوا عليها اسم بيت علي بك . وكان يرئس هذه العصبة حسن بك الملقب بالجدّاوي نسبة الى جدة التي كان حاكماً عليها . وزامله اسماعيل

بك احد معتقي الكاخية ابرهيم . وبلغت دسائسهم حداً من النجاح أكره مراد بك وابرهيم بك على اخلاء القـاهرة . فانكفأا الى الصعيد حيث تقرر منفاهما ، وتمكنا هناك من تنظيم شؤونهما بفضل ما التحق بهما من الانصار المنشقين . فرجعا الى القاهرة على رأس اربعمائة فـارس هزموا الاعداء على كونهم يزيدونهم في العدد ثلاثة اضعاف . فطُرد اسماعيل وحسن بدورهما الى الصعيد حيث لا يزالان . وقلق مراد وابرهيم من بقاء هذا الحزب ، فحاولا ابادته ولكنهما لم يفلحا . ثم اقطعا العصاة مقاطعة في نواحي جرجا . على ان المماليك ينزعون دائماً الى ملذات القاهرة ، فحاولوا بعض الاضطرابات خلال السنة ١٧٨٣ . فرأى مراد بك ان يعمل مرة أخرى على ابادتهم. وكان - عند وصولي الى مصر - يعد العدة لهذا العمل. وانتشر رجاله على ضفاف النيل يوقفون المراكب ويسوقون ربانها تحت تهديد العصي الى القاهرة . والناس يتهاربون من السخرة. وقد فرضت على تجارة المدينة ضريبـة هائلة. واكره اصحاب الافران والتجار على بيع سلعهم بأسعار هي دون اسعار تكاليفها . وكانت ضروب الاغتصاب هذه التي يتكرهها النـاس في اوروبا تجري وكأنها امور عادية . وكان مراد بك قد انجز اعداد وسائله في اوائل شهر نيسان ، فانطلق الى الصعيد .

ان انباء الاستانة التي تراجعت اصداؤها في اوروبا وصفت هذه الحملة بانهـا حملة حرب عظيمة وجيش ضخم . ويصح اطلاق هذه النعوت عليها اذا قيست بوسائل مراد بك وحالة مصر ، ولكن عددها في الواقع الفان من الفرسان . فاذا تدبرنا اخبار الاستانة وما يعتريهـا من التشويه المعتاد وجب ان نصدق احد امرين :

فاما ان يكون اتراك العاصمة جاهلين ما يجري في مصر وسوريا، واما ان يكونوا تعمدوا التهويل على الاوروبيين . على ان صعوبة المواصلات بين تلك الاصقاع المتباعدة في السلطنة تجعل الافتراض الاول اكثر احتمالاً من الافتراض الثاني . ولقد يبدو للمتسائل ان باستطاعة تجارنا المقيمين في مختلف الاساكل ان يرشدونا الى حقيقة الحوادث . بيد ان هؤلاء التجار المحصورين في « خاناتهم » كالسجناء لا يبدون كثيراً من الاهتمام بما هو غريب عن متاجرهم ، ويقتصرون على قراءة الجرائد المرسلة اليهم من اوروبا . وقد ارادوا في بعض الاحيان ان يصححوا الانباء الواردة فيها ، ولكن معلوماتهم استعملت في غير طرقها ، فرجعوا عن الاهتمام بهذا الامر الذي يبهظهم بالتكاليف ولا يفيدون منه شيئاً .

خرج مراد بك من القاهرة وسار بخياله بمحاذاة النهر تتبعه المراكب حاملة ذخائره ومهماته . وواءمت مسيره ريح شمالية مؤاتية . وكان المنفيون ، وعددهم خمسمائة ، ينزلون ما وراء جرجا . فلما علموا بقدوم العدو دبّ بينهم الشقاق وانقسموا فريقين يريد احدهما الحرب والآخر التسليم . وكثيرون قالوا بهذا الرأي الاخير فاستخذوا لمراد بك . على ان اسماعيل وحسن استمرا على عنادهما فانطلقا صوب اصوان يتبعهما مائتان وخمسون خيالاً . فتعقبهما مراد حتى الشلال حيث اعتصما في اماكن وعرة جعلت لهما افضلية حَسِب المماليك انه يستحيل معها اقتحامها . وخشي مراد ان يطول غيابه عن القاهرة فتنفجر فيها ثورة جديدة ، فأسرع بالعودة اليها ، مما هيأ للمنفيين ، وقد خرجوا من المأزق ، ان يرجعوا الى مراكزهم الاولى في الصعيد .

ان جماعات تسودها الميول الخاصة ولا يفكر افرادها بغير نفوسهم وفي الحالة الحاضرة ، دون ما نظر الى مخبآت الغد ، ولا يوحي قادتها من الاحترام ما يضمن لهم طاعة المسود ، ان جماعات كتلك لا تستقر بها السيادة ، بل ان ثباتها ضرب من المحال . فان تصادم عناصرها غير المتجانسة يفضي بها الى قلق واضطراب شاملين .

وهذا ما حدث ويحدث لجماعة المماليك في القاهرة . فان مراداً ما كاد يرجع اليها حتى تولدت دسائس جديدة افضت الى اضطرابات جديدة . فقد اجتمع في تلك المدينة ، فضلاً عن حزبه وحزبي ابرهيم وبيت علي بك ، بكوات ينتسبون الى بيوتات اخرى . وكاد ضعف هؤلاء وضآلة شأنهم يجعلانهم مهملين لا تأبه لهم الاحزاب السائدة . فتنادوا في شهر تموز من سنة ١٧٨٣ لضم قواهم ، وكانت منعزلة حتى هذا اليوم ، ونهدوا الى القيادة . وشاءت المصادفة ان ينكشف امر هذه العصبة فنفي قادتها الخمسة الى الدلتا . فتظاهروا بالاستخذاء . ولكنهم ما كادوا يخرجون من المدينة حتى تحولوا الى الصعيد وهو الملاذ المعتاد الذي يوائم جميع المستائين . فلوحقوا نهاراً كاملاً في صحراء الاهرام ، ولكن على غير طائل . واستطاعوا التخلص من المماليك والعرب ، وبلغوا المنيا دون ما حادث ، واستقروا فيها . وكانت هذه القرية الواقعة على اربعين ميلاً من القاهرة على ضفاف النيل مؤاتية لاغراضهم ، اذ تسلطوا على النهر بحيث تيسر لهم الاستيلاء على كل موارد الصعيد . وعرفوا ان يفيدوا من هذا الوضع ، لان المؤن التي ترد في هذا الفصل من تلك المقاطعة قد وقعت في يدهم ، وحرمت القاهرة من الميرة وتهددتها المجاعة . اضف الى ذلك ان البكوات

واصحاب الاملاك الذين تقع مزارعهم في الفيّوم قد حرموا ريعها لان المنفيين فرضوا عليها الجزية . وكانت هذه البلبلة مما يستلزم حملة جديدة .

أما مراد بك وقد أتعبته الحملة السابقة فقد رفض أن يقوم بأخرى . فأخذها ابرهيم بك على عاتقه ، وباشر إعداد العدة لها في شهر آب على رغم حلول رمضان . فحُجزت المراكب وربانها على ما حدث في إبان الحملة السابقة . ثم فرضت الضرائب وصودر متعهدو الارزاق . وفي أوائل شهر تشرين الاول خرج ابرهيم على رأس جيش نعتوه بالجيش الرهيب لانه كان يناهز ثلاثة آلاف فارس . وانطلق في النيل نفسه لان مياه الفيضان كانت مـــا برحت تغمر معظم البلاد . ولم تمض ايام قلائل حتى تواجه الجيشان . بيد ان ابرهيم لم يكن ذا مزاج حربي شأن مراد ، فلم يهاجم المتحالفين ، بل فاوضهم ، فتوافقوا على محالفة شفهية قضت برجوع البكوات الى سابق حالهم . وتريّب مراد من هذا الاتفاق اذ رأى فيه دسيسة عليه ، وساد الحذر بينه وبين خصمه . وزاد في قلقه ما ابداه المنفيون من التشامخ في اثناء احد المجالس العامة . فأوجس الخيانة وتدارك الامر بان خرج من القاهرة برجاله وانصرف الى الصعيد . وحسب الناس ان الحرب واقعة لا محالة . بيد ان ابرهيم آثر التسويف . وبعد انقضاء اربعـــة اشهر انحدر مراد الى الجيزة متحفزاً للقتال . على ان الفريقين بقيا خمسة وعشرين يوماً وجهاً لوجه ، يفصل بينهما النهر ولا يتقاتلان . ثم شرعا بالتفاوض . سوى ان شروطه لم تكن مما يرتاح له مراد ، فرجع الى الصعيد لانه لم يكن من القوة بحيث يستطيع إملاء شروطه عنوة واقتداراً . فأوفد اليه مراد مفاوضين تمكنوا ، بعد أخذ وردّ سحابة اربعة اشهر ، ان يعودوا به

الى القاهرة . وكانت الشروط ان يستمر مراد على مقاسمة ابرهيم السلطة ، وان تنزع من البكوات الخمسة املاكهم . واذ رأى البكوات ان ابرهيم ضحى بهم لاذوا بالفرار . فطاردهم مراد واستعمل عرب البادية للقبض عليهم ، ثم رجع بهم الى القاهرة ليكونوا فيها قيد نظره . ولاح للناس وقتئذ ان السلم استقر . بيد ان ما حصل بين القائدين كان من شأنه ان يكشف عن حقيقة مرادهما الواحد تجاه الآخر . فلم يكن من المستطاع ، والحالة هذه ، ان يتصافيا لأن كلًا منهما كان يثق ان الآخر يتحين الفرص للايقاع به . فلبثا في يقظة وحذر . وما عتمت هذه الحرب الباطنة ان اكرهت مراد بك على مغادرة القاهرة في السنة ١٧٨٤ . فضرب خيامه على ابواب المدينة حيث اظهر من العزم والجلد ما أدخل الرعب في قلب ابراهيم، فهرب برجاله الى الصعيد ، واستقر فيها حتى شهر اذار من السنة ١٧٨٥ . ثم رجع الى القاهرة على اثر محالفة جديدة . ولا يزال يقاسم خصمه السلطة ريثما تهيء له دسيسة جديدة فرصة الانتقام .

هذه هي خلاصة عن الثورات التي تعاقبت على مصر في هذه السنوات الاخيرة . واني لم انبسط في ذكر الملابسات المتعددة التي رافقت الحوادث لانها لا تفيد شيئاً ، فضلًا عما يعتور صحتها من الشك والريبة . وان هي الا دسائس وخيانات واعتداءات على الارواح يفضي تكرار رواياتها الى الملل . وحسب المطالع ان يتتبع سلسلة الوقائع الرئيسية ويستخلص منها فكراً عامة عن طبائع البلاد التي يدرسها وعن حالتها السياسية . بقي علينا ان نبسط في درس هاتين الناحيتين .

الفصل العاشر

الحالة الراهنة في مصر

منذ ثورة الكاخية ابرهيم وثورة علي بك ، على الاخص ، اصبحت سلطة العثمانيين اقل استقراراً في مصر منها في اية ولاية اخرى . من الثابت ان للباب العالي في مصر باشا يمثله ، ولكن هذا الرجل المحصور قيد المراقبة في قصره بالقاهرة انما هو سجين المماليك اكثر مما هو ممثل السلطان ، وهو عرضة للخلع والنفي والطرد . ولا يكاد يتبلغ الانذار على يد ضابط اسود الرداء حتى « ينزل »[1] من قصره كأيٍّ من الناس . وقد شاء نفر من الباشاوات بايعاز من الباب العالي ان يستعيدوا سلطانهم بما حاولوه من وسائل المكر . بيد ان البكوات احاطوا هذه الدسائس بالمخاطر ، مما جعل الباشاوات يقنعون ، في الوقت الحاضر ، بقضاء مدة اسرهم بهدوء وسكينة سحابة ثلاث سنوات ، وبانفاق مخصصاتهم المعينة لهم .

على ان البكوات لا يتجرأون على اعلان استقلالهم مخافة ان تؤول السيطرة على « الديوان » الى احد الاحزاب المتطرفة . فكل شيء يجري باسم السلطان ، وتُقبل اوامره « على الرأس والعين » ، اي بعميق الاحترام . على ان هذه الظاهرة المضحكة لا تقترن

[1] صيغة العزل عبارة عن كلمة « انزل » ، اي انزل من القصر .

بالتنفيذ قط . فكثيراً ما عُلقت الجزية ، واذا أُديت فهي ناقصة ابداً ، اذ يسقطون منها مقدار نفقات شتى لتنظيف الترع ، ونقل اوساخ القاهرة الى البحر ، ومرتبات الجنود ، وترميم الجوامع الخ الخ . وجميعها نفقات وهمية كاذبة . ويخدعون الناس في حقيقة مبلغ الفيضان ودرجته . ولولا الخوف من مراكب الدولة التي تأتي الرشيد والاسكندرية كل سنة لتحصيل ضريبة الارز والحنطة ، لما ادوها . وهم مع ذلك يتصالحون على مقاديرها مع المكلفين جبايتها . هذا والباب العالي يغض الطرف عن هذا التعسف جرياً على سياسته المألوفة . فهو يعرف انه اذا لجأ الى تدابير القمع التزم بجهود وتكاليف ، وقد تضطره الحال الى حرب معلنة يجوز ان تحط من شأنه ، فضلاً عن ان مصالح اشد خطراً تفرض عليه حشد القوات جميعها في الشمال . وهو اذن في حرصه على سلامة الاستانة نفسها يكل الى التقادير مهمة استعادة سلطانه على الولايات البعيدة . فيعمل على التفرقة بين الاحزاب حتى لا يسود احدها او يستقر . وهذه الطريقة التي لم تخيب مقاصده حتى اليوم قد جاءت موافقة لكبار ضباطه ايضاً ، فهم يساومون المتمردين على نفوذهم وحمايتهم لهم ، ويجمعون من جراء ذلك المبالغ الطائلة . وهذا هو اليوم شأن امير البحر حسن باشا ، فقد سلك المسلك نفسه مع مراد وابرهيم ، فحصل منهما على اموال باهظة .

الفصل الحادى عشر

ميليشيا المماليك

ان المماليك عند استيلائهم على الحكم في مصر تذرعوا بالوسائل التي حسبوا انها تضمن استقرارهم فيه . ولا ريب ان انجع تلك الوسائل كان ما قاموا به من رذل فرقتي الاحزاب والانكشارية العسكريتين ، بحيث ان هاتين الفرقتين ، وقد كانتا مفزعة في يد الباشا ، اصبحتا مثله ولا حول لهما ولا طول . وهذا خطأ آخر تقع تبعته على عاتق الباب العالي . فان عدد الجند الاتراك الذي كان حتى قبل ثورة الكاخية ابرهيم اربعين الف رجل خيالة ورجالة ، قد انزل الى نصفه بسبب جشع القادة الذين كانوا يحتفظون لانفسهم بالمرتبات المخصصة للجنود . وجاء علي بعد ابرهيم يستكمل هذه البلبلة . فشرع بالتخلص من الرؤساء الذين يترتب منهم ، وترك مراكزهم شاغرة ، وجرّد القادة من النفوذ ، ورذل الجيوش التركية حتى ان الاحزاب والانكشارية والفرق الخمس الاخرى اصبحت اليوم خليطاً من الصناعيين والمرتزقة والمتشردين الذين يرتضون حراسة اي باب لقاء اجر يتقاضونه ، ويرتجفون امام المماليك كما ترتجف منهم سوقة القاهرة . والواقع ان قوة مصر العسكرية تنحصر في فرقة المماليك . فمنهم بضع مئات منتشرون

في البلاد والقرى للمحافظة على السلطة وجباية الضرائب والحؤول دون المظالم . على ان معظمهم في القاهرة . ولا يجاوز عددهم بحسب تقدير العارفين ثمانية آلاف وخمسمائة رجل بين بكوات ، وكشافة ، ومُعتَقين وارقاء . ويدخل في هذا العدد شبان لم يبلغوا العشرين او الثانية والعشرين من العمر . واعظم بيوتاتهم شأناً بيت ابرهيم بك الذي يتألف من ستمائة مملوك . ثم يأتي مراد بك وله منهم اربعمائة . على انه في جرأته وسخائه يعادل قدراً خصمه الثري البخيل . ولكل من البكوات الآخرين ، وهم ثمانية عشر او عشرون ، عددٌ يراوح بين خمسين ومائتي مملوك . وثمة نفر من المماليك يصح ان ننعتهم بالمبهمين ، وهم متحدرو بيوتات منقرضة يشايعون هذا او ذاك من الفروع بحسب مقتضيات مصالحهم . وتراهم ابداً على اهبة التحيز لمن يزيدهم عطاء . اضف الى هؤلاء بعض « السرّاجين » ، وهم فئة من خدم الجياد ينقلون اوامر البكوات ويقومون باعمال الجلاوذة . وهذا المجموع يكاد يبلغ عشرة آلاف فارس . ولا حساب عندهم للمشاة ، فهم لا شأن لهم في تركيا عامة ، وفي الولايات الاسيوية بوجه خاص ، لان اظانين الفرس والتتر ما برحت تسود هذه الاصقاع . فالحرب عندهم كرّ وفر لا يحسن القيام بها الا الفارس . فهو دون سواه رجل الحرب في المتعارف بينهم . ولما كان رجل الحرب عندهم – شأنه عند البرابرة – صاحب الجاه والشرف ، فقد رأوا في السعي على الاقدام دليل حقارة ، فاختصوا به الشعب . وهم من اجل ذلك لا يسمحون لسكان مصر الا باقتناء البغال والحمير ، محتفظين لانفسهم بحق ركوب الجياد . ويمارسون هذا الامتياز الى ابعد حدوده .

فأنك لا تراهم في المدينة او الحقل او اثناء التزاور حتى من باب الى باب ، الا على ظهور الخيل . ويحملهم على هذا الامر ، فضلاً عما سبق ، نوع الملابس التي يرتدونها . وهذه الملابس التي لا تختلف من حيث الشكل عن ازياء اهل اليسر في تركيا جديرة بان توصف .

النبذة الاولى

البسة المماليك

قميص واسعة من نسيج قطني ناصع اللون ضارب الى الصفرة ، يعلوها رداء كالمبذلة من كتان الهند او من نسيج دمشق او حلب . وهذا الرداء المسمى بالعنتري ينحدر من العنق حتى الكاحلين ، وينضم جانباه على مقدمة الجسم حتى الوركين حيث يثبت بتكتّين . ويعلو هذا الرداء رداء آخر بشكل الاول واتساعه ، يصل كماه الواسعان حتى رؤوس الاصابع ، ويسمونه القفطان . ويُصنع عادة من الحرير ، وهو اثمن من الرداء الاول . وثمة منطق طويل يضم الردائين معاً الى القد ويقسم الجسم الى حزمتين . اضف الى ذلك قطعة ثالثة من الجوخ غير مبطنة ، هي الجبة . ولا يختلف شكلها عن القطعتين الاوليين اجمالاً ، سوى ان كميها مقصوصان عند المرفقين . وهذه الجبّة تُكسى ، في الشتاء وغالباً في الصيف ، بالجلد فتصبح فروة . وفوق هذه الغلافات الثلاثة يأتي معطف رابع يُرتدى في الاحتفالات ، وهو يغطي مجمل الجسم ورأس الاصابع ، اذ يرون في كشفها امام العظماء ما ينافي

الحشمة والادب . ويبدو الجسم تحت هذا المعطف مثل كيس طويل يخرج منه عنق عارٍ ورأس حليق تعلوه عمامة . وعمامة المماليك تسمى « القاووق » ، وهو على شكل اسطوانة صفراء تحيط بها لفافة من الشاش منتظمة الاستدارة . وينتعلون حذاء من الجلد الاصفر يكسو الرجل حتى العقب ، وخفتاً بلا حوافي معداً لان ينزع في الطريق . اما الثوب الغريب فهو السروال ، لانه من السعة بحيث يصل الى الذقن طولاً ، وكلُ ساق من ساقيه تسع الجسم كله . ويصطنعه المماليك من جوخ البندقية ، وهو اكثر سماكة وانعم ملمساً من الصوف الخشن . ولهذا السروال منطق ذو حجزة يعقد على الاقسام المدلاة من الثياب التي ذكرناها ، فتُضم جميعها تحت السروال تيسيراً للمشي . فمتى تصورت المماليك مقمطين على هذه الصورة ، سهل عليك ان تفهم السر في تثاقل خطاهم ، وهم يرون في ثيابهم راحة وسعة . وعبثاً تقول لهم انها تعرقل سيرهم مشاةً ، وانهم لا يحسنون الطراد ركوباً ، وان الفارس اذا اسقط عن جواده مصيره الهلكة ، فجوابهم على كل ذلك « انها العادة » .

النبذة الثانية

جهاز المماليك

ولنرَ اذا كان جهاز جيادهم اطبق على المعقول . ان اهل اوروبا منذ تعودوا البحث في علة الاشياء شعروا ان الفرَس ، لكي تسهل عليه الحركات تحت فارسه ، يحتاج الى عدّة وحمل خفيفين . وهذا التحول الذي طلع علينا به القرن الثامن عشر لا يعرف المماليك من امره شيئاً . فهم ما برحوا على ذهنية القرن التاسع ،

ينقادون ابداً « للعادة » ويوسقون الحصان بعدّة ضخمة الهيكل ، مثقلة بالحديد والخشب والجلد. يعلوها من وراء قرَبوس يرتفع ثمانية قراريط ويغطي الفارس حتى رأس الورك ، ومن امام قربوس آخر يهدد صدره اذا ما انحنى ، ويستعيضون عن الصفّة تحت السرج بثلاثة اغطية صوفية سميكة ، ويثبت كل ذلك في السرج بحزام يمر فوقه ، ويُربط ليس بأبازيم ذات شوكات ، بل بسموط معقودة قليلة المتانة كثيرة التعقيد . وسروجهم واسعة المقدمة ولا سير لها في المؤخرة ، مما يجعلها تسترسل على كتفي الفرس . والرُكُب لوحات من النحاس تفوق الرجل طولاً وعرضاً وترتفع حوافيها مقدار قيراط ، وهي تتدلى من العرى . ولهذه الركب زوايا حادة كالشفار تستعمل عوضاً عن المهاميز لتفتح في كشوح الجياد جراحاً مستطيلة . ويزن الركابان عادة عشر ليبرات ، وكثيراً ما تزنان اثنتي عشرة ليبرة (الليبرة ٥٠٠ غرام) . اما السرج والاغطية فلا تزن اقل من خمس وعشرين ليبرة ، بنوع ان الفرس يحمل ستاً وثلاثين ليبرة . وهذا الامر مستغرب ، خصوصاً وان الخيل في مصر صغيرة القدود . والزمام ينتهي بحلقة حديدية تضغط على الذقن حتى تكاد تقطع الجلد ، مما يجعل الفرس محطم جانبي الفكين ولا فم له . ذلك ان المماليك يرجّون اللجام رجّاً عنيفاً ، فيطلقون العنان للفرس ، ثم يوقفونه بغتة في اشد انطلاقاته . واذ يُشد لجام الفرس تتصلّب قوائمه ، وينطوي عرقوبيه ، وينزلق بمجمله قطعة واحدة كأنه حصان خشبي . ومن المعلوم ان هذه الطريقة تتلف الفم والقوائم بتكرارها . على ان المماليك يجدون فيها اناقة ، وهي تتفق مع اساليبهم في القتال . ومع ذلك فالمملوك فارس ثبت قوي ،

على رغم ساقيه المعقوفتين وكثرة تلويه ، وعليه سيماء حربية تفتتن عين الغريب . ويجدر القول انه اكثر تونقاً في تخيّر سلاحه .

النبذة الثالثة

اسلحة المماليك

سلاحهم الاول قرابينة انكليزية ، طولها ثلاثون قيراطاً ، وعيارها من القوة بحيث تطلق عشر رصاصات او اثنتي عشرة في وقت معاً ، بنوع انها قاتلة وان لم تحكم رمايتها . ويحملون في اوساطهم غدارتين مشدودتين الى الثوب ببريم من الحرير . وتتدلى من القربوس ضمة من الاسلحة يستعملونها للقتل ضرباً . ويتدلى من حمالة في جنبهم الايمن سيف معقوف قلّما نشاهد نظيره في اوروبا ، طول نصله في خط مستقيم اربعة وعشرون قيراطاً ، واذا قيس انحناؤه فثلاثون قيراطاً . ولهذا الشكل الذي نراه مستغرباً ما يبرره عندهم . فقد دل الاختبار على ان النصل المستقيم يقتصر فعله على موقع الضربة وحينها لانه لا يقطع الا بالضغط ، في حين ان النصل الاعوج ينزلق بقوة الذراع تقهقراً ويتسع مدى فعله . وهذه الملاحظة لم تفت البربر المتفننون في اساليب القتال والتقتيل . وهذا ما حمل الشرقيين على استعمال السيوف المحنية العريضة . والمملوك العادي يجلب سيوفه من الاستانة ومن اوروبا . اما البكوات فهم يتنازعون سيوف الفرس والمصانع القديمة في دمشق[1] ، ويدفع ثمن السيف الواحد اربعين او خمسين ليرة فرنسية ذهباً . وخصائص السيف المفضلة عندهم خفته وصفاء معدنه ورنينه وتموج حديده ، وبوجه خاص رقة

[1] قلت القديمة لانهم اليوم اهملوا صناعة الفولاذ .

شفرته ، ويجب الاعتراف انها رائعة ولكنها سريعة العطب كالزجاج .

النبذة الرابعة

تدرب المماليك وتمارينهم

ان تدرب المماليك على استخدام هذه الاسلحة شغلهم الشاغل طوال الحياة . يخرج معظمهم صبيحة كل يوم الى سهل حيال القاهرة ، وهناك يطلقون اعنة الجياد ، ويتدربون على اخذ القرابينة برشاقة وتسديد الرماية فيها ، ثم يضعونها تحت الفخذ وينتزعون غدارة يطلقونها ويرمونها ما وراء الكتف ، ثم غدارة ثانية تمر بالتجربة نفسها ، متكلين على البريم الذي يشد كلا الغدارتين الى الثوب . فيشجعهم البكوات الحاضرون . ومن تمكن منهم من حطم الهدف ، وهو عبارة عن اناء من خزف ، ذهبت اليه التهانيء والمكافأة . ويتدربون ايضاً على معالجة السيوف ، وبنوع خاص على تسديد الضربة من الشمال الى اليمين ، وتتجه من الاسفل الى الاعلى ، وهي اصعب الضربات على من يتقيها . وهم على قسط من المهارة بحيث ان الكثيرين منهم يقطعون بسيوفهم الحادة كلة من القطن كما يُقطع قالب الزبدة ، ويرمون السهام ، ولو انهم نبذوها من اساليب القتال . واحب تمارينهم لعب الجريد ، والجريد معناه القصبة ، ويطلق على كل عصا تُرمى باليد بحسب القواعد التي اعتمدها الرومانيون للترامي بالمزاريق . ويستعمل المماليك عوضاً عن العصي اغصان النخيل الرطبة . وهي اغصان طولها اربع اقدام يزن الواحد منها خمس ليبرات او ستاً . يتسلح الفرسان بهذه « الحراب »

ويخوضون الميدان ، ثم تنطلق بهم الجياد عدواً ، فيرمون الجريد عن بعد . فاذا ما رمى المهاجم الجريد انثنى . فيلحق به من يليه ويرمي الجريد بدوره . وتؤاتي الجياد فوارسها مؤاتاة تحسب معها انها في مثل اغتباطهم . على ان هذه الغبطة شديدة المخاطر ، فثمة سواعد ترمي بشدة ، فتأتي ضرباتها جارحة بل قاتلة . والويل كان لمن لا يتقي جريد علي بك !

ان هذه الالعاب التي تبدو لنا وحشية هي ذات علاقة بحالة الامم السياسية ، وكانت شائعة بيننا لثلاثة قرون خلت . وما كان تلاشيها نتيجة لحادثة هنري الثاني [1] او لفلسفة العصر ، بمقدار ما كان نتيجة للسلام الداخلي الذي جعلها عديمة الفائدة . واذا كانت قد بقيت على حالها عند الاتراك والمماليك ، فما ذلك إلا لان فوضى المجتمع تضطرهم الى التمرس بكل ما له علاقة بالحرب . فلنرَ اذا كانوا قد تقدموا في هذا الحقل بنسبة مرانتهم عليه .

النبذة الخامسة

الفن الحربي عند المماليك

اذا تحدث الناس في اوروبا عن فتنة او حرب ، تمثلوا للحال رجالاً موزعين كتائب وسرايا وكوكبات ، وازياء عسكرية ملونة ، ووحدات منتظمة خطوطاً او صفوفاً ، وحركات خاصة او مناورات شاملة ، وبالجملة ، سلسلة عمليات قائمة على قواعد موضوعة بعد امعان وتفكير .

[1] هنري الثاني ملك فرنسا (١٥٤٧-١٥٥٩) قتل بحربة اصابت احدى عينيه في اثناء مبارزة . — المترجم .

تلك التصورات تصدق عندنا . فاذا ما شئنا الانتقال بها الى البلاد التي ندرسها كانت مجرد اخطاء وحسب .

ان المماليك لا يعرفون شيئاً من صناعتنا الحربية . فلا ازياء عندهم ، ولا نظام ، ولا وحدات ، ولا انتظام ، ولا يمتثلون لآمر . فتجمعهم غوغاء ، وسيرهم فوضى ، واقتتالهم براز ، وحربهم شقاوة ولصوصية . وهي تنشب عادة في القاهرة نفسها . فتنفجر الفتنة في اوقات لا تبررها ، ويمتطي البكوات الجياد ، وينطلق صوت النذير ، ويظهر المتقاتلون .

ويستحرّ القتال مسايفةً في شوارع المدينة . وتنتهي المعركة بسقوط بعض القتلى . ثم يوجّه المغلوب في طريق المنفى . امـا الشعب فلا علاقة له بهذا الاعتراك ، اذ ما همّه ان يتذابح الطغاة ؟ ولكن لا يجوز لنا ان نتمثله يشاهد القتال بهدوء وسكينة . ان وقوفه هـذا الموقف في معمعة الرصاص والسيوف يحيطه باشد المخاطر . ومن اجل ذلك تراه يفر مـن ساحة القتال حتى يستقر السلام .

ولا يندر ان ترى الرعاع يعملون النهب في مساكن المنفيين ، فـلا يصدهم عن ذلك اصحاب الغلبة . ومن الحسن ان نلاحظ ان هـذه العبارات التي نقرأهـا في انباء اوروبا : « المماليك يحشدون الانصار ، البكوات استنفروا الشعب ، الشعب يناصر هـذا الحزب او ذاك » لا تعبر تعبيراً صادقاً عن واقع الحال ، لان الشعب في كل هـذا عـامل لا يعمل .

وقد تنتقل الحرب الى البراري حيث لا يبدي المتقاتلون من فنون القتال اكثر ما ابدوا منها في شوارع المدينة . فيهاجم

اقرانهم او اجرائهم الآخر ويتعقبه . فاذا تعادل الخصمان في الشجاعة تربص كلاهما او تواعدا الى مكان ، حتى اذا تلاقيا فيه تقارب الحشدان مفرزات يسير في طليعتها اشد الجنود مراساً . فيتجابه القوم ويتداعون للنزاع ، ثم يتهاجون . ويختار كل رجل منازله . ويطلقون النار اذا استطاعوا ، ولكن سرعان ما ينتقلون الى المقارعة بالسيوف . وهنا تظهر براعة الفارس ومرونة الفرس . فاذا سقط هذا هلك ذاك .

وفي الهزيمة ، يُنهض الخدم اسيادهم . فاذا كانوا بمنجى عن الرقيب قتلوهم طمعاً بما يحملونه من ذهب . وكثيراً مـــا يتقرر مصير المعركة بعد مقتل رجلين او ثلاثة .

وقد ادرك المماليك ، في هذه الآونة الاخيرة ، ان مصلحة الحرب تعود على اسيادهم ، فتركوا لهم شرف المغامرة في اخطارها . فاذا ربحوا كان ذلك من حسن طالع الجميع ، وان غلبوا على امرهم استسلم المماليك للمنتصر ، وهو كثيراً ما يكون قد فاوضهم على شروطه مسبقاً . وهم يعرفون ان منفعتهم في التزام السكون ، فيطمئنون الى السيد الجديد الذي يجري عليهم الاجر ، ويرجعون في ركابه الى القاهرة حيث يصبحون عالة عليه بانتظار مصير آخر .

النبذة السادسة

الانتظام عند المماليك

ان التزجرج الذي يسود الميليشيا ناشىء عن اسباب تكوينها . فذلك القروي الفتى الذي بيع في منغريليا او جيورجيا لا تطأ قدماه ارض مصر حتى تتطور افكاره وتتفتح عيناه على حياة واسعة المجال .

فكل ما حوله يوقظ طمعه وجرأته. وعلى كونه ما برح رقيقاً يشعر انه معد لان يصبح سيداً، ويتلبس للحال بذهنية حالته المقبلة ، ويساوم على حاجة مولاه اليه ، فيبيعه خدماته واخلاصه ، ويقيسها بالاجر الذي يتقاضاه او بالذي يترقبه. ولما كان هذا المجتمع لا يحدوه الا عامل المال ، فان اخص ما يهتم له الاسياد ارضاء جشع خدمهم استبقاء لتعلقهم بهم . وهذاهو السبب في اسراف البكوات الآيل الى خراب مصر التي ينهبونها نهباً ، وفي تمرد المماليك على اسيادهم وهم يبتزون اموالهم ، وفي هذه الدسائس التي مـــا تزال تهزهم هزاً كباراً وصغاراً . اذ لا يكاد يعتق الرقيق حتى يتطلع الى اعلى المناصب . ترى، من يستطيع الحد من مطامعه ؟ ليس في من يتولون القيادة من مواهب التفوق مـا يفرض الاحترام ، فهو لا يرى بينهم الا جنوداً مثله رقوا الى السلطة بمراسيم القوي . فاذا شاء هذا القوي ان يرعاه وصل به الى المقام نفسه . ولا تعوزه عندئذ البراعة في فن الحكم لان هذا الفن إن هو الا قبض المال وضرب السيف . ونشأ عن هــذه الحال بذخ مستفيض انطلقت معه أعنة الحاجات جميعاً حتى لم يبق حد لشراهة العظماء . وقـد بلغ هـذا البذخ مبلغاً عظيماً حتى اصبحت تكاليف المملوك الواحد لا تنقص عن الفين وخمسمائة ليرة . وقد يكلف بعضهم ضعفي هذه القيمة . فكلما حل رمضان جاء بأثواب جدد من اجواخ فرنسا وانسجة البندقيـــة واقمشة دمشق او الهند . وكثيراً ما تستبدل الجياد والاسرجة ، والغدارات ، والسيوف ، والرُكُب المذهبة ، واللجامات المفضضة . اما القادة فيُخصون ، تمييزاً لهم عن العـــامة ، بالحلي والحجـارة الكريمة ، والجياد العربية (ثمن الواحد يراوح بين مائتين وثلاثمائة ليرة فرنساوية) ، وشالات الكشمير (ثمن الواحد من خمس وعشرين

الى خمسين ليرة فرنساوية) ، وفروات عديدة ابخسها ثمناً يساوي خمسمائة ليرة . وقد نبذت النساء زينة الدنانير المصفّفة على الرأس والصدر ، بحجة انها مفرطة في بساطتهـــا ، واستعضن عنها بالماس والزمرد واللؤلؤ ، واضفن الى الشالات والفراء انسجة مدينـــة ليون وزخارفها . فمتى كانت هذه حاجات طبقة حاكمة لا تتعرف بحق ملكية او حياة ، تراءت لنا عواقب تلك الحاجات عـــلى الطبقات المكرهة على سد تلك الحاجات وعلى اخلاق اصحابها .

النبذة السابعة

آداب المماليك

ان آداب المماليك هي من التفسخ بحيث يخشى على من وصفها ، بمجرد حقيقتها ، ان يتعرض لتهمة المبالغة المغرضة . فقد ولد معظمهم على المذهب اليوناني ، وهم يطهرون عندمـــا يشتريهم مواليهم ، ولكنهم في نظر الاتراك كفار لا دين لهم ولا ايمان . وانهم غرباء عن بعضهم لا تربطهم العواطف الطبيعية التي تجمع بين سائر الناس . ولما كانوا لا اهل لهم ولا اولاد ، فلا الماضي فعل شيئاً في سبيلهم ، ولا هم يفعلون شيئاً في سبيل المستقبل . وتراهم جهلة تعودوا الخرافات بحكم التربية ، والشراسة عن طريق القتـــل ، والعصيان عن طريق الاضطرابات ، والخيانة عن طريق الدسائس ، واللؤم عن طريق المواربة ، وفساد الاخـلاق عن طريق التهتك على انواعه . وهم بصورة خاصة مستسلمون لهذا النوع المخزي الذي طالما كان رذيلة اليونان والتتر : وهي الامثولة الاولى التي يتلقونها من اسيادهم في السلاح . ولا يجد المرء تفسيراً لهـــذا الميل متى

عرف ان لهم جميعاً نساء . هذا ما لم نفترض انهم يبحثون في احد الجنسين عن اللذة التي حُرموها في الجنس الآخر . والواقع انه ليس من مملوك واحد بلا وصمة ، فقد افسدت عدواهم جميع سكان القاهرة حتى مسيحيي سوريا المقيمين فيها .

الفصل الثاني عشر

حكومة المماليك

هذا هو نوع الناس الذين يتحكمون اليوم في مقدرات مصر ، ويرئس الحكومة رجال من هذا الطراز . اما طريق الوصول الى هذه المعالي فبعض ضربات سيف موفقة وايغال في الرياء او الجرأة . ومن الطبيعي ان هؤلاء الوصوليين لا تتبدل طباعهم بتبدل الحظوظ ، فهم ينطوون على نفوس عبيد في اثواب ملوك . وكانت السيادة في نظرهم عبارة عن ذلك الفن الصعب الذي يوجه الميول المختلفة في امة كثيرة العدد نحو غرض مشترك ، ولكنها وسيلة للاستكثار من النساء والحليّ والجياد والعبيد ، وارضاء الهوى . فالادارة داخلية كانت او خارجية مُسيّرة بهذه الذهنية . وهي تقتصر من جهة على المداورة تجاه بلاط الاستانة تجنباً للضرائب ولغضب السلطان ، ومن جهة اخرى على شراء العديد من العبيد ، ومضاعفة عدد الاصدقاء ، وتلافي المؤامرات ، وابادة الخصم المستتر بالسم والحديد . والرؤساء ابداً في حالة النذير ، يعيشون عيشة الطغاة القدماء في سرقوزه ، فلا ينام مراد وابرهيم إلا بين القرابينات والسيوف . وليس لهذا المجتمع اي المام بفكرة الامن والنظام العام [1] . والغرض الوحيد

[1] عندما كنت في القاهرة خطف المماليك زوجة رجل يهودي فيما كانا يجتازان النيل ، فشكا اليهودي امره الى مراد بك ، فأجابه بصوته الاجش « دع هؤلاء الشبان يعبثون ! »

عند هؤلاء القوم الحصول على المال ، والاستيلاء عليه حيثما يظهر ، واغتصابه اياً كان مالكه ، وفرض الضرائب على القرى او على الجمرك الذي يحيلها على تجارة البلاد .

النبذة الاولى

حالة الشعب في مصر

كل ما في مصر يتفق والنظام الذي يسودها . فحيثما لا ينعم الفلاح بثمرة اتعابه تراه ينصرف الى العمل كارهاً ، فتهن الزراعة . وحيث لا ضمانة لحرية الاستمتاع فلا صناعة قائمة ، والفنون بدائية . وحيثما لا تجدي المعارف نفعاً فلا ينشط الناس الى اقتباسها وتبقى العقول على وحشيتها . وهذه هي حالة مصر . فان معظم اراضيها في يد البكوات والمماليك ورجال الشريعة . اما اصحاب الاملاك الآخرون فعددهم جدّ محدود ، فضلاً عما يصيب املاكهم من التكاليف وما يتعاقب عليها من الضرائب والمكوس . والارث عندهم لا يشمل العقارات ، بل هي تؤول الى الحكومة ، ومنها يشتريها اصحابها . والفلاحون آلات مأجورة لا يُترك لهم للمعاش إلا ما يقيهم الموت . وما يحصدونه من ارز وحنطة يذهب الى موائد اسيادهم ، فيما يحتفظون الذرة ويصنعون منها خبزاً بلا خمير ، لا طعم له اذا كان بارداً ، يختبزونه في ملّة وقدها من روث الجواميس والبقر . فهذا الخبز مضافاً الى الماء والبصل النيء قوتهم طوال العام . ويُحسبون سعداء

وفي المساء اوفد المماليك الى اليهودي من قال له انهم يرجعون اليه امرأته اذا دفع لهم مائة قرش ~~لي~~ مقابل « اتعابهم » . وهذا ما حصل .

اذا تخلل طعامهم هذا شيء من العسل والجبن واللبن الرائب والتمر . اما اللحم والشحم فمادتان يرغبون فيهما كثيراً ، ولكن لا اثر لهما في مآكلهم في غير الاعياد الكبرى ، وفي بيوت اهل السعة منهم . وملبسهم كله عبارة عن قميص من الخام الازرق وجبة سوداء من نسيج خشن . وتعلو رؤوسهم قلنسوة من الكتان يطوقونها بمنديل من الصوف الاحمر . اما الذراعان والساقان والصدر فعارية جميعها . واغلبهم لا يلبس السراويل . ومساكنهم اكواخ ترابية يضيق الصدر من قيظها ودخانها ، وتحاصرهم فيها الامراض الناشئة عن الاوساخ والرطوبة والغذاء الرديء . اضف الى هذه الادواء الجسدية ما ينتابهم من خوف الغزو والنهب وزيارات المماليك والانتقامات العائلية ومشاغل الحرب الاهلية المستديمة . هذه هي صورة تنطبق على كل القرى . وليست صورة المدن اكثر بهجة منها . ففي القاهرة نفسها يروع الغريب منظر الخراب والشقاء الشاملين . فثمة جماعات تزدحم في الازقة باطمار بالية تنبو عنها النواظر ، واجسام عارية تشمئزها النفوس . وكثيراً ما تلتقي خيالة يرتدون الثياب الثمينة . بيد ان هذا البذخ يجعلك اكثر تألماً لمنظر البؤس والشقاء . فكل ما ترى وتسمع ينبئك انك في بلد العبودية والطغيان . فلا تسمع إلا أحاديث الاضطرابات الاهلية ، والفقر الشامل ، وابتزاز المال ، والضرب والقتل . فما من حرز يعصم الحياة او الملك . ويُسفك دم الرجل كما يسفك دم الثور . والقضاء نفسه يريقه دون ما تقيد بصيغة او شكل . فضابط الليل في طوافه وضابط النهار في تجواله يحاكمان ويحكمان وينفذان في لمحة بصر . ويرافق كليهما جلادون يقطعون الرؤوس عند اول اشارة يتلقونها ، ويلقونها في

أكياس من الجلد مخافة ان تدنس الارض . ولبث الناس يتعرضون للعقاب بسبب جريرة ولو صورية ! ولكن ما يحدث غالباً هو ان جشع ذوي السلطان او وشاية عدو يكونان السبب في ان يساق امام البك رجل تذهب المظان الى انه ذو مال . فيفرضون عليه اداء مبلغ منه ، حتى اذا انكر قلبوه على ظهره وجلدوا باطن قدميه مائتين او ثلاثمائة جلدة ، وقد يقتلونه بهذه الطريقة . والويل لمن يُشتبه فيه انه من اهل السعة واليسار ، فثمة مائة دساس على أهبة السعي به . ولا يستطيع التملص من اغتصاب ذوي السلطان إلا اذا ظهر بمظهر الفقر والبأساء .

النبذة الثانية

الشقاء والمجاعة في السنوات الاخيرة

تفاقمت حالة البؤس في العاصمة المصرية ابان السنوات الثلاث الاخيرة . فقد تضافرت مع المساوئ المعتادة الناشئة عن الطغيان المتمادي واضطرابات السنوات السابقة كوارث طبيعية اكثر تهديماً . فقد نفذ الهواء الاصفر من الاستانة في خريف سنة ١٧٨٣ وفتك بالسكان فتكاً ذريعاً في فصل الشتاء حتى لقد خرجت الف وخمسمائة جثة من ابواب القاهرة في يوم واحد[١] . وجاء الصيف فحدّ من شدة الوباء ، على مألوف نتائجه في هذه البلاد . وعقبت هذه الكارثة

١ تقوم الجبانات في تركيا خارج المدن على نحو عادات الاقدمين . واذ كان لكل قبر حجر ضخم وبعض المداميك ، يخيل اليك ان هناك مدينة ثانية يصح ان يطلق عليها – كما حصل في الاسكندرية قديماً – اسم نكروبوليس، اي المدينة السوداء .

كارثة" اخرى مثلها هولا . فقد جاء فيضان سنة ١٧٨٣ ناقصا بحيث بقي جزء كبير من الاراضي بوراً لعدم الريّ ، ولم يزرع قسم آخر لافتقار الناس الى البذار . وكان النيل لم يبلغ الحدّ المؤاتي في سنة ١٧٨٤ فعمّ القحط . ولم ينقض شهر تشرين الثاني حتى كانت المجاعة قد حصدت من سكان القاهرة عدداً يكاد يضاهي ما حصده الهواء الاصفر منهم . واقفرت الشوارع من المتسولين الذين كانوا يملأونها لانهم هلكوا او ترحلوا . ولم تكن الكارثة اقل هولاً في القرى ، فقد هجرها عدد عديد من السكان هرباً من الفناء ، وانتشروا في البلاد المجاورة . وقد شاهدتهم في سوريا خلال السنة ١٧٨٥ افواجاً وجماعات . وكانت ازقة صيدا وحيفا وسائر فلسطين تعجّ بالمصريين ، وعلامتهم الفارقة لونهم الضارب الى السواد . وقد توغل فريق منهم حتى حلب وديار بكر .

ليس في الامكان حصر مقدار النقص في عدد السكان خلال هاتين السنتين ، لان الاتراك لا سجلات عندهم للمواليد والوفيات والاحصاء . وفي الرأي السائد ان البلاد فقدت سدس ساكنيها .

وقد تكررت في هذه الاحوال جميع المشاهد التي تقشر من وصفها الابدان وتطبع في النفس تأثيرات من الهول والكآبة لا تمحي . فقد كانت الشوارع والساحات العامة – على نحو ما حصل ابان مجاعة البنغال لسنوات خلت – مزدرعة بهياكل منهوكة القوى تستجدي باصواتها الواهنة شفقة عابري السبل ، ولكن على غير طائل ؛ لان خوف الخطر المشترك حجّر القلوب. فكان هؤلاء التعساء يلفظون آخر انفاسهم ، فيا هم مستلقون بظهورهم على منازل البكوات التي يعرفون انها تزخر بالحنطة والارز . وكثيراً ما كان صراخهم يزعج المماليك فيطاردونهم

باعقاب العصي .

ولم ينفر الجياع من اية وسيلة كانت لسدّ ما بهم من كلب الجوع ، فقد التهموا اقذر الاشياء . ولا أنسى قط مشهداً شاهدته في عودتي من سوريا الى فرنسا في شهر اذار سنة ١٧٨٥ . لقد رأيت تحت اسوار الاسكندرية القديمة تاعسين جاثين على جثة جمل يتنازعان الكلاب قطع لحمه النتن .

وهنالك نفوس شديدة المراس بعد ان تؤدي قسطها من الشفقة تجاه هذه النكبات العظيمة لا تتمالك من ان تتولاها ردة من الغضب على من يكابدونها . فترى ان هذه الشعوب التي لا تملك الشجاعة لدفعها او تتلقاها دون ان تتأسى بالانتقام لخليقة بأن تموت . ويذهب البعض الى القول مجازفةً ان في هذه الوقائع دليلاً على ان سكان البلاد الحارة مستضعفون طبعاً ومزاجاً ، وان الطبيعة اعدتهم لان يكونوا ابداً عبيد الاستبداد .

ولكن هل بحث هؤلاء فيما اذا كانت تلك الحوادث وما يماثلها لم تقع في مناخات يريدون ايلاءها شرف الاستئثار بامتياز الحرية ؟ وهل لاحظوا اذا كانت الحوادث العامة التي يستندون اليها لا ترافقها احوال وملابسات تشوه نتائجها ؟ في السياسة كما في الطب من الاعراض ما يضلك عن حقيقة اسباب الداء . وكثيراً ما يتعجل الناس في وضع القواعد الكلية بالاستناد الى حوادث فردية ، فيأتون بهذه المبادىء الشاملة التي ، وان كانت تروق العقل ، الا انها كثيرة الابهام . ومن النادر ان تكون الوقائع التي يدور عليها التعليل صحيحة ، لان ملاحظتها هي من الدقة بحيث يخشى غالباً ان تقوم المذاهب على قواعد وهمية .

وفي الحالة التي نحن في صددها ، اذا تقصينا اسباب استكانة المصريين للارهاق ، وجدنا ان هذا الشعب الذي تسوده احوال قاسية اجدر بالشفقة منه بالاحتقار . والسبب في ذلك ان الحالة السياسية في هذه البلاد غيرها في اوروبا . فان آثار الثورات القديمة عندنا ما برحت تتضاءل يوماً بعد يوم حتى تقرّب الغرباء الغالبون من الوطنيين المغلوبين على امرهم ، وتولدت من امتزاجهم امم متماثلة ، موحدة المصالح . اما في مصر وفي معظم آسيا فقد اصبح الوطنيون مستعبدين – على اثر انقلابات حديثة العهد – لفاتحين غرباء ، وتألفت من الفريقين جماعات مختلطة متباينة المصالح . فالدولة هنا فئتان : فئة الشعب المنتصر التي يحتل افرادها جميع مناصب السلطة المدنية والعسكرية ، وفئة الشعب المغلوب الموزعة بين الطبقات المرؤوسة في المجتمع . والفئة الحاكمة التي تخول نفسها حق الاثرة في الملكية بقوة الفتح لا ترى في الفئة المحكومة سوى آلة طيعة للاستمتاع . وهذه الفئة الاخيرة ، وقد تعرت من كل مصلحة شخصية ، لا تؤدي للفئة الاخرى الا اقل ما يمكنها اداءه . وانها العبد يحمل على عاتقه بذخ سيده وترفه ، ويبحث عن وسيلة ليتحرر من عبوديته . وهذا العجز احدى الخصائص التي تميز هذا الوضع عن مثله في بلداننا . فان الحكومات في دول اوروبا تستمد وسائل الحكم من صميم الامم . وليس من السهل عليها او من الموافق لها ان تتعسف في استعمال السلطة .

ومهما يكن من امر فهي لا تبلغ في استعمالها حدود الظلم والطغيان . وسبب ذلك انه فضلاً عن تلك الجماهير التي يسمونها الشعب القوي بكتلته الضعيف ابداً باختلافاته ، توجد طبقة اخرى

تتوسط الشعب والحكومة وتوازن بين كليهما ، وهي طبقة الاثرياء الموزعين في المناصب الاجتماعية الذين يعنيهم ان تحترم حقوق الاحتراز والملكية . اما في مصر فليس من حالة وسطى ، ولا طبقات اشراف وكهنة وتجار وملاكين يتكوّن منهم جسم وسط بين الشعب والحكومة . فالناس هناك اما جنود ورجال شريعة اي رجال حكم ، او حرّاث وصناعيون وتجار اي رجال الشعب . واخص ما يعوز الشعب الوسيلة الاولى لمحاربة الظلم ، وهي توحيد القوى وتوجيهها عليه . ان ابادة المماليك تقتضي ان يتآزر الفلاحون جميعاً ويثوروا . وفي هذا الامر استحالة يرجع سببها الى انتظام طريقة الاستبداد . ففي كل ولاية او قضاء حاكم ، وفي كل قرية قائمقام يسهر على حركات الجمهور . وهو وان كان واحداً ضد الجميع ، فان السلطة التي يمثلها تجعله قوياً مهاباً . وقد دل الاختبار على ان الرجل الذي تدفعه الشجاعة الى سيادة قوم يجد بينهم اذلاء يهرعون لمساندته . ان هذا القائمقام يكل الى بعض افراد الشعب شيئاً من سلطته ، فيصبحون اسناداً له ، ثم يتحاسدون ويتنازعون على رضاه ، فيستعملهم الواحد بعد الآخر ليأتي عليهم جميعاً . وفي القرى من التحاسد والبغضاء ما يدس التفرقة والتخاذل . ولكن اذا افترضنا ان السكان اتحدوا وتضاموا ، وفي الامر ما فيه من الصعوبة ، فأي قدرة لزمرة من الفلاحين المشاة الحفاة ولو تسلحوا بالعصي والبنادق تجاه فرسان شاكي السلاح مدربين على اساليب القتال ؟ اني لأيأس بوجه خاص من خلاص مصر كلما تأملت طبيعة ارضها المؤاتية للفروسية . فاذا كانت افضل كتائب المشاة عندنا ما برحت ترهب منازلة الفرسان في السهل ، فما قولك في

شعب يجهل فنون القتال البدائية ، ولا يتيسر له ان يقتبسها لانها ثمرة المران ، والمران عندهم امر محال . ان الحرية لا تجد مواردها الكبرى إلا في البلاد الجبلية ، حيث تستطيع الشرذمة الصغيرة الاستعاضة عن العدد بالحذق والبراعة . فهي متحدة في بادىء الامر بسبب قلة عددها ، وتكتسب كل يوم قوى جديدة بسبب تعود استعمالها . وترى المستبد المقتدر قد حدّت السلطة من نشاطه فماطل ، ولا تلبث هذه الجماعات من الفلاحين او السراقين التي كان يحتقرها ان تصبح متمرسة بالحرب ، فتنازعه في السهول فنّ القتال وثمرة الغلبة .

ويختلف الامر في البلاد المسطحة حيث تُفرّق التجمعات على اهون سبيل ، بحيث لا يبقى للفلاح – وهو الذي لا يعرف حتى اقامة المتاريس – من مورد الا شفقة سيده والاستمرار في العبودية . واذا كان من مبدإ عام يجوز الاخذ به فليس اصدق من القول : ان البلاد السهلية مقام الخمول والعبودية ، والجبال وطن النشاط والحرية[1] . وقد يكون في حالة المصريين الحاضرة ما يكبت شجاعتهم دون ان يصح القول ان بذورها ليست في طبائعهم او ان المناخ قد حرمهم اياها . وفي الواقع ان هذا الجهد المستمر

[1] الجبليون اكثر الشعوب نشاطاً قديماً وحديثاً . فالاشوريون الذين اكتسحوا البقاع الواقعة بين الهندوس والبحر المتوسط قد انطلقوا من جبال عطوريا التي هي موطن الكلدانيين ايضاً . وقد خرج الفرس من جبال المادء والمقدونيون من جبال رودوب . ولنا شاهد على هذه القاعدة اليوم في سكان سويسرا وايكوسيا واشتوريا وغيرها وجميعهم احرار شديدو الشكيمة . وكدت احسب ان هذه القاعدة شاملة لولا شذوذ العرب والتتر عنها ، مما يدل على ان ثمة سبباً ادبياً آخر يصح في السهول والجبال معاً .

في النفس ، الذي يسمى الشجاعة ، انما هو صفة نفسية اكثر منها جسدية . وما كانت حرارة المناخ مرتفعة او منخفضة لتوحي الجرأة على اقتحام المخاطر بمقدار ما تبعث عليها المروءة والثقة بالنفس . فاذا انعدم هذان العنصران جاز ان تلبث الشجاعة في جمود . على انه اذا كان ثمة من قوم جديرين بالحماسة فهم اولئك الذين تمرست اجسامهم بالألم واكتسبوا صلابةً تتغلب عليـه ، كالمصريين مثلاً . فقد اخطأ من وصفهم انهم اناس اوهنهم الحرّ ، او خنثتهم الخلاعة . اجل ، قد يكون لسكان المدن واهل الثراء هذا التأنث الذي هو خاصة من خصائصهم اياً كان المناخ . بيـد ان القرويين المسمين بالفلاحين تحقيراً لهم ، يعانون من المشقات ما يثير الدهشة والاستغراب . فانك لتراهم طوال ايام يغترفون من مياه النيل عراةً معرضين لحرارة شمس تقتل امثالنا . ومن كانوا منهم خدماً للماليك قاموا بكل حركات الفارس ، فهم يتبعونه في المدينة ، وفي الحقل ، وفي الحرب ، وفي كل مكان ابداً مترجلين ، ويقضون اياماً كاملة يتعقبون الخيول او يتقدمونها ركضاً ، حـتى اذا ادركهم التعب تعلقوا باذيالها كيلا يتخلفوا . وثمة سمات نفسانية تفضي بنا الى استقراءات مماثلة لتلك المظاهر الجسدية . فان العناد الذي يبديه القرويون في بغضائهم وفي ثاراتهم [1] ، وشراستهم في اقتتـالهم قريةً واخرى ، وتمسكهم بشرف المحافظة عـلى السرّ برغم ضربات العصي [2] ،

[1] اذا قتل رجل آخر حتمت عشيرة القتيل على عشيرة القاتل فدية دم من قومه ، تنتقل من ذرية الى ذرية ولا يدركها النسيان .

[2] يقال عمن يكابد هذا العذاب « انه رجل » ، وحسبه بذلك تعويضاً .

ووحشيتهم في معاقبة نسائهم وبناتهم لاقل اخلال بالعفاف [1] ، في كل ذلك دليل على انه اذا كانت العادة قد ايقظت فيهم النخوة في بعض النواحي ، فان هذه النخوة لا يعوزها إلا التوجيه حتى تصبح شجاعة رهيبة . ان الفتن التي يثيرونها آونة بعد اخرى ، وقد عيل صبرهم – في مديرية الشرقية خاصة – تدل على نار تحت الرماد لا تنتظر للانفجار إلا يداً تعرف كيف تحركها .

النبذة الثالثة

حالة الفنون والنفوس

ان الحائل العظيم دون ثورة حسنة الطالع في مصر انما هو الجهل المدقع الذي تتمرغ فيه الامة . وهذا الجهل ، وقد اعمى العقول عن اسباب الادواء وعن ادويتها ، قد اعماها كذلك عن وسائل التداوي .

اني وقد نويت العودة الى هذا الموضوع لا ابسط الآن في تفاصيله ، وحسبي الملاحظة ان هذا الجهل الشائع بين جميع الطبقات يمتد بمفاعيله الى جميع فروع المعارف الادبية والطبيعية والعلوم والفنون الجميلة حتى الفنون الميكانيكية التي ما يزال ابسطها في دور نشأته ، واشغال النجارة والحدادة والاسلحة بعيدة عن الاحكام والاتقان . اما السلع والبضائع الحديدية وانابيب البنادق فتستورد

[1] فهم يذبحونهن عند اقل شبهة، على ما يجري في سوريا ايضاً. ولما كنت في الرملة رأيت فلاحاً يتجول في السوق اياما ورداؤه ملطخ بدم ابنته التي ذبحها . ومعظم الناس ينظرون اليه استحساناً . اما العدالة التركية فلا تتدخل في مثل هذه القضايا .

من الخارج ، وانك بالجهد تجد ساعاتياً في القاهرة ، وهو اوروبي . والصاغة اكثر عدداً بما هم في حلب وازمير . ولكنهم اعجز من ان يحكموا تركيب حجر كريم . وفي القاهرة يصنعون البارود ، ولكنه خشن . وثمة معامل للسكر يستخرج منها دبسي المادة . والابيض منه كثير التكاليف . والانسجة الحريرية على شيء من الاتقان، ولكنها اقل اتقاناً بمراحل من مثيلاتها في اوروبا واعلى ثمناً .

الفصل الثالث عشر

حالة التجارة

قد يدهش المرء وسط هذه الهمجيـة الشاملة ان تحتفظ التجارة بهذا النشاط في القاهرة . على ان من يتفحص مواردها بامعان يتبين ان ثمة سببين يجعلان من القاهرة مركزاً لتجارة واسعة :

الاول استجماع ما تستهلكه البلاد في دائرة هذه المدينة . فهي موطن كبار الملاكين كافة كالمماليك ورجال الشريعة الذين يحصرون فيها جميع حاصلاتهم دون ان يردوا شيئاً الى البلاد التي تنتجها .

والثاني مركزها الذي يجعل منها مجازاً الى جزيرة العرب والهند عن طريق البحر الاحمر ، والى الحبشة عن طريق النيل ، والى اوروبا والسلطنة العثمانية عن طريق البحر المتوسط . فتقبل على القاهرة في كل سنة قافلة من الحبشة تنقل الرقيق (يراوح عددهم بين الف عبد والف ومائتين) والعاج ومسحوق الذهب وريش النعام والصموغ وطيور الببغـــاء والقردة [1] . وتقوم من اقاصي مراكش نحو مكة قافلة اخرى يفد عليها حجاج تلك النواحي

[1] تسير هذه القافلة بمحاذاة النيل . وقد رافقها الانكليزي بروس Brus في السنة ١٧٧٢ عائداً من الحبشة حيث قام برحلة هي اجرأ رحلات هذا العصر . فقد نفد القوت منها في عبورها الصحراء وظل رجالها يقتاتون من الصموغ اياماً عديدة .

حتى شواطىء السنغال [١] . فتسير بمحاذاة المتوسط لينضم اليها حجاج طرابلس وتونس وغيرهم ، حتى تطلع على الاسكندرية عبر الصحراء بثلاثة آلاف جمل او اربعة ، ثم تهبط القاهرة لتنضم الى قافلة مصر ، فتيممان مكة معاً ، وتعودان منها بعد مئة يوم .

على ان حجاج مراكش الذين تفصلهم عن بلادهم مسافة ستمائة فرسخ فهم لا يرجعون اليها الا بعد مضي سنة او تزيد . وتحمل هذه القوافل معها انسجة الهند والكوفيات والصموغ والعطور واللؤلؤ والبن اليمني بنوع خاص . وهذه البضائع تصل ايضاً الى السويس على ظهور السفن الشراعية التي تنطلق من جدة في شهر ايار عند مؤاتاة الريح الجنوبيـــة . اما القاهرة فلا تحتفظ بهذه البضائع كلها . بيد انها فضلاً عن القسم الذي تستهلكه منها تفيد من رسوم المرور ومن نفقات الحجاج . وتأتيها من دمشق حيناً بعد آخر قوافل صغيرة تنقل اليها الحرائر والقطنيات والزيوت والثمار المجففة . ولا يخلو مرفأ دمياط في الربيـع من السفن التي تفرغ فيه مشحونات التبغ اللاذقاني الذي يستهلك في مصر على نطاق واسع جداً . وتحمل هذه السفن من مصر الارز ، فيما تتوارد سفن اخرى دون ما انقطاع على الاسكندرية ناقلة اليهـا من الاستانة الاثواب والاسلحة والفراء والمسافرين والادوات المعدنيـة ، ومن مرسيليا وليفورنو والبندقية الكتان والحرير والخرضوات والورق والحديد والرصاص الخ... ونُقل هذه السلع الى الرشيد بحراً ، ثم

[١] رايت في القاهرة بعض عبيد هذه القافلة القادمين من بلاد « الفولي » الواقعة في شمالي السنغال ، فاخبروني انهم شاهدوا جماعة من الفرنجة في نواحيهم .

توجه على القاهرة عن طريق النيل . وتدلك هذه النظرة الشاملة على اتساع سوق التجارة في القاهرة ، ولكن متى عرفت ان قسماً كبيراً من البضائع الهندية والبن يذهب الى الخارج ، وان اثمانه تسدد سلعاً وبضائع من اوروبا وتركيا ، وان معظم استهلاك البلاد يدور على ادوات البذخ والترف في حين ان اكثر منتوجاتها من المواد الخام ، تبين لك ان هذه التجارة الواسعة لا تعود على مصر بالمنافع الكثيرة والرخاء الوفير .

الفصل الرابع عشر

برزخ السويس ومسألة اتصال البحر الاحمر بالبحر المتوسط

تحدثت عن تجارة القاهرة مع جزيرة العرب والهند عن طريق السويس . ان هذا الموضوع يثير قضية كثيراً ما تشغل الناس في اوروبا وهي : أليس من المستطـاع قطـع البرزخ الفاصل بين البحرين الاحمر والمتوسط تمكيناً لعبور السفن الى الهند في طريق اقصر من الطريق التي يسلكونها اليها باتجاه رأس الرجاء الصالح ؟ ويذهبون الى الظن ان هذا العمل ممكن التحقيق بسبب قلة عرض البرزخ . بيد اني تبينت في سفري الى السويس من الاسباب ما جعلني اعتقد العكس .

١ – صحيح ان المسافة التي تفصل بين البحرين تراوح بين ثمانية عشر فرسخاً وتسعة عشر ، وان هذه الارض خلو من الجبال ، وانك اذا وقفت على سطوح السويس واستعنت بالمنظار تكشفت امامك سهول منبسطة قاحلة . واذن فليس الفـرق في مستوى البحرين هو الذي يقف حائلاً دون اتصالهما [1] ، ولكن العقبة الكبرى

[1] ذهب الاقدمون الى ان البحر الاحمر اكثر ارتفاعاً من البحر المتوسط . وفي الواقع اذا لاحظنا ان النيل من قناة قلزوم حتى البحر يسير منحدراً مسافة ثلاثين فرسخاً فلا تبدو لنا الفكرة كثيرة الغرابة .

هي ان الشاطىء في مجمل القسمين المتقابلين من البحر الاحمر والمتوسط عبارة عن ارض رملية منخفضة تتخللها البحيرات والمستنقعات ، فلا تستطيع السفن الاقتراب منها ، بل تبقى على مسافة بعيدة من الشاطىء . فكيف يمكن ، والحالة هذه ، حفر قناة ثابتة في رمال متحركة ؟ ولا ميناء هناك صالحة ، والارض تفتقر الى الينابيع . فاذا أهِلَ هذا المكان بالسكان وجب ان يجر اليه الماء من النيل نفسه .

ويبدو ان طريقة الاتصال الوحيدة هي التي سُلكت مرات عديدة فيما مضى وافضت الى احسن النتائج ، عنيت بها اقامة المواصلات بين البحرين بواسطة النهر . فان الارض تؤاتي هذا العمل دون ما جهد ، لان جبل المقطم ينخفض فجأة بموازاة القاهرة ويتخذ شكل ساحة نصف دائرية ينبسط حولها سهل متعادل المستوى من ضفاف النيل حتى البحر الاحمر . وقد استرعى هذا المكان انتباه الاقدمين ففكروا بوصل البحرين بواسطة قناة تنتهي الى النهر . وذكر استرابون ان قناة اولى حفرت في عهد سيزوستريس الذي عاش في ايام حرب طروادة [1] ، وكان عرض هذه القناة مئة ذراع ، على عمق كاف لسير سفينة كبيرة . وبعد ان اجتاح اليونان البلاد رمم بطليموس القناة المذكورة ، وجددها تراجان في عهد الحكم الروماني . وقد حذا العرب حذو من تقدمهم ، فقد جاء في تاريخ المكيين ان القحط اصاب مكة والمدينة في عهد عمر ابن الخطاب فأمر عامل مصر عمرو ان يجر قناة من النيل الى قلزوم حتى تمر عبرها مؤن القمح والشعير الى

[1] اي في عهد سليمان على ما ارى .

جزيرة العرب . وهذه القناة هي نفسها التي تمر اليوم في القاهرة وتنتهي في الحقول الواقعة في الشمال الشرقي من بركة الحاج . اما قلزوم – وكان يسميها الاغارقة كليسما – التي كانت تنتهي اليها القناة ، فقد خربت منذ عصور عديدة . على ان اسمها ومكانها باقيان عند ربوة من الرمل والآجر والحجارة تقع على ثلاثمائة خطوة شمالي السويس مقابل المجاز الذي يُعبر عليه الى النبع . وقد شاهدت هذا المكان كما شاهده نيبوهر ، واخبرني العربان كما اخبروه انه يسمى قلزوم . وقد اخطأ دانفيل ، اذن، حين جعل كليسما في مكان آخر يبعد ثمانية فراسخ نحو الجنوب . واظنه اخطأ ايضاً بقوله ان السويس هو ارسينويا القديمة . فقد اجمع اليونانيون والعرب على ان هذه المدينة كانت تقع شمالي كليسما ، فيجب البحث اذن عن معالمها بحسب دلالة استرابون « في آخر الخليج صوب مصر » دون الالحاح في ناحية الغرب حتى اجرود كما فعل سافاري . بل ينبغي حصر البحث في الارض المنخفضة التي تمتد زهاء فرسخين من اول الخليج الحالي ، وهي اقصى مسافة يحتمل ان تكون قد كسبتها الارض على البحر منذ سبعة عشر قرناً . وكانت هذه المقاطعات ، فيما سلف من الدهر ، مزدرعة بالمدن التي ذهبت بذهاب مياه النيل . فقد خربت الترع التي كانت تسيل فيها هذه المياه لانها سرعان ما رُدمت في هذه الارض الخاسفة بفعل الرياح وتعاقب اقدام الخيول البدوية . وتقتصر اليوم التجارة بين القاهرة والسويس على القوافل التي تسير عند وصول السفن وذهابها ، اي في اواخر نيسان او اوائل نوار وفي خلال تموز وآب . والقافلة التي رافقتها في السنة ١٧٨٣ كانت مؤلفة من ثلاثة آلاف جمل ومن

خمسة آلاف رجل او هم يبلغون ستة آلاف[1]، وكانت حمولتها من الاخشاب والاشرعة والحبال المعدة لمراكب السويس، ومن مراس يحمل كل واحدة منها اربعة جمال، ومن حديد وقصدير ورصاص، وبعض بالات الجوخ وبراميل القرمز، فضلاً عن القمح والشعير والفول وانواع العملة التركية والاجنبية.

اما هذه البضائع كلها فقد كانت موجهة على جدة ومكة وموكا تسديداً لاثمان البضائع الواردة من الهند، ومن جزيرة العرب. وكان يرافق هذه القافلة ايضاً عدد كبير من الحجاج يحملون مؤن الارز واللحم والخشب وكذلك الماء، لان السويس اشد بلاد الله قحطاً، فاذا ما اشرفت عن سطوحها على سهول الشمال والغرب الرملية، او على صخور جزيرة العرب الضاربة للبياض شرقاً، او على البحر والمقطم جنوباً، لما وقعت عينك على شجرة يستظل بها المسافر او نبتة خضراء يرتاح اليها. وجل ما تشاهد في السويس رمال صفراء ومستنقعات خضراوية المياه. ويزيد المشهد كآبة ما تراه فيها من البيوت المتهدمة. ولا ماء صالح للشرب في تلك النواحي إلا ماء النبع الواقع على شاطىء جزيرة العرب على بعد ثلاث ساعات سيراً، ولكنه ماء أجاج لا يطيقه الاوروبي إلا ممزوجاً بشراب «الروم». والبحر هناك غني بالاسماك والاصداف. ولكن العرب يقلون الصيد ولا يحسنونه. فلما اقلعت السفن لم

[1] بقيت هذه القافلة متجمعة زهاء اربعين يوماً وهي ترجىء السفر من حين الى آخر متذرعة بأسباب مختلفة منها ان ثمة ايام شؤم يتطيرون منها، شأن الاتراك بذلك شأن الرومان من قبلهم. ثم انطلقت القافلة في ٢٧ تموز فوصلت الى السويس بعد مسيرة تسع وعشرين ساعة عن طريق الحواطات الواقعة على مسافة فرسخ من جنوبي بحيرة الحجاج.

يبق في السويس إلا المملوك حاكمها وخمسة عشر رجلا من بطانته فضلا عن الحاشية .

والقلعة هناك عبارة عن خربة بلا تحصين يحسبها العرب معقلا بسبب مدافعها الستة ، والمدفعيين اليونانيين اللذين يشيحان بوجههما فيما يطلقان النار . والميناء في حالة رديئة يستحيل معها على اصغر المراكب الدنو من البر الا في حالة المد . ومن هنا تنقل البضائع خلال الكثبان الى السفن الراسية في الخليج . ويقع هذا الخليج على مسافة فرسخ من المدينة . ويفصله عنها ساحل منكشف ابان الجزر . ولا تعصمه وسيلة من وسائل الدفاع بحيث تسهل مهاجمة الثماني وعشرين سفينة التي عدتها فيه . وهذه السفن نفسها لا تستطيع المقاومة لان مدفعية كل منها عبارة عن اربعة مجانيق يعلوها الصدأ . وينقص عددها سنة بعد سنة بسبب تعرضها بموازاة البر للاصطدام بالصخور ، فيفقد منها على الاقل واحدة من تسع . وحدث في السنة ١٧٨٣ ان احدى هذه السفن ألفت مراسيها في « الطور » لتختزن الماء ، ففاجأها العربان بينما كان بحارتها ينامون فوق اليابسة ، وسلبوا منها الفاً وخمسمائة قفة من البن ، ثم اسلموها للرياح فرمت بها على الشاطىء . ومعمل السويس لا يصلح للترميم الا بمقدار قليل ، ويقتضي بناء المركب فيه مدة ثلاث سنوات . والبحر بمده وجزره يركم الرمال على هذا الساحل ، فلن يمضي القليل حتى يردم مدخل الميناء ويحدث في السويس ما حدث في قلزوم وارسينويا . ولو كان في مصر حكومة صالحة لاستفادت من هذا العارض وشادت مدينة ثانية على الخليج نفسه حيث يصبح بالمستطاع اقامة رصيف يعلو البحر سبع اقدام او ثمانياً لان المد

في ارتفاعه المعتاد لا يعلو الى اكثر من ثلاث اقـدام ونصف القدم ، ولقامت بترميم قناة النيل او بحفرها ثانيةً وحققت وفراً مقداره خمسمائة الف ليرة تدفعهـا كل سنـة للعرب المواكبين للقوافل ، ولحسنت قناة الاسكندرية بحيث يصبح بالامكان انزال البضائع الى الارض تواً . ولكن مثل هذه العناية لا تعيرهـا الحكومة الحاضرة اي اهتمام . وهي لا تعنى بأمر التجارة الا بمقدار ما ترى فيها اداة لاشبـاع نهمها وشراهتها ، حتى انها لا تعرف ان تستثمر مصلحة الاوروبيين الكبرى في اقامة المواصلات بينهم وبين الهند . وعبثاً حاول الانكليز والفرنسيون ان يعقدوا معها اتفاقاً لفتح هذه الطريق ، فكانت ترفض او تعرقل مساعيهم في هذا السبيل . ومهما يكن من امر فلا امل بنجاح ثابت اكيد ، لان المعاهدات عـلى افتراض انها عقدت مع الحكومة فان الاضطرابات التي تقلب القاهرة رأساً على عقب بين عشية وضحاها تبطل مفاعيل اي اتفاق من هـذا النوع عـلى ما حصل في صدد المعاهدة المعقودة في السنة ١٧٧٥ بين حاكم البنغال ومحمد بك . والمماليك هم من سوء النية والطمع بحيث يجدون الحجة دائمـاً لايذاء التجـار وزيادة المكوس الجمركية . ورسوم البن باهظة جداً في هذا الوقت ، لان البـالة منه ، ويراوح وزنها بين ثلاثمائة وسبعين الى ثلاثمائة وخمس وسبعين ليبرة وثمنهـا خمس واربعون ريالاً في موكا ، يدفع عنها في السويس رسم بحر مقداره مائة وسبع واربعين ليرة ، يضاف اليها تسع وستون ليرة وهو مبلغ الضريبة التي فرضت في السنة ١٧٨٣ . فاذا اضفنا رسم الستة بالمائة الذي استوفي عنها في جدة لتبين لنا ان مبلغ الرسوم يكاد يوازي ثمن المشترى .

الفصل الخامس عشر

الجمارك والضرائب

ان ادارة الجمارك في مصر ، شأنها في كل تركيا ، احدى الوظائف الحكومية الرئيسية . ويقوم على امرها رجل يجمع بين مهمتي المراقب والملتزم العمومي . وتناط به جميع رسوم الدخول والخروج والتعامل . وهو الذي يعين المكلفين جبايتها . وهو الحاكم المستبد بأمر التجارة فيسيرها وفق مشيئته . ولا تجاوز مدة التزامه السنة الواحدة . وقد ضمنه من الحكومة في سنة ١٧٨٣ بمبلغ الف كيس، والكيس خمسمائة قرش . يضاف اليها ما يلحقه من البلص والمطالب الاخرى العارضة ، بمعنى ان مراد بك او ابرهيم بك اذا احتاجا الى مبلغ خمسمائة الف ليرة استقدما اليهما المتعهد المذكور فلا يتردد قط في الاداء . على انه يحصل مقابل ذلك على براءة تخوله الحق في احالة البلص على الهيئات التجارية المختلفة، فيفرض عليها المكوس بالتراضي بينه وبينها. وكثيراً ما تعود عليه هذه الوسيلة بالربح والغنيمة . وفي بعض الولايات التركية يكلف هذا المأمور جباية الميري، وهي ضريبة تلحق الاراضي فحسب . ولكن جبايتها في مصر منوطة بالكتبة الاقباط الذين يمارسون مهامهم بادارة امين سر القائد . ويتولى هؤلاء الكتبة سجلات كل قرية فيحصلون المكوس ويدفعونها للخزينة . ويحدث كثيراً ان

يستفيدوا من امية الفلاحين ، فلا يسلمون اليهم ايصالات بما دفعو من اقساط فيضطرونهم الى الاداء مرتين . وليس من النادر ان يكرهوهم على بيع ابقارهم وجواميسهم وحتى الحصائر التي يفترشها هؤلاء التعساء. ويصح القول انهم عمال خليقون باسيادهم . ان الضريبة العادية على « الفدان » هي ثلاثة وثلاثون قرشاً اي ما يقرب من ثلاث وثمانين ليرة عن زوج البقر . ولكنها كثيراً ما تبلغ مائتي ليرة تعسفاً . ويقدر مبلغ ما يجبى من اموال الميري ، نقداً وقمحاً وشعيراً وغيره ، بخمسين مليوناً بالعملة الفرنسية ، في حين ان الخبز يباع « الرطل بفضة ».

ولنعد الى الجمارك . فقد كان يتولى امرها اليهود فيما مضى وفقاً لعادة قديمة . ولكن علي بك باصهم بلصاً عظيماً في السنة ١٧٦٩ فزحوا وتضعضعوا ، وآل امر الجمارك الى مسيحيي سوريا ولا يزال في يدهم . لقد نزح هؤلاء المسيحيون من دمشق الى القاهرة منذ خمسين سنة . وكانوا في بدء امرهم عيلتين او ثلاثاً ، ولكن ما جنوه من الربح جذب اليهم أسراً اخرى يبلغ عددها اليوم خمسمائة . وقد اظهر هؤلاء القوم من القناعة وحب الاقتصاد ما جعلهم يملكون زمام التجارة فرعاً بعد آخر حتى تمكنوا من ضمان الجمارك بعد كارثة اليهود . وقد اصبحت لهم ثروة ومطامع يخشى معها ان يصيروا الى ما صار اليه اليهود . وقد حسب الناس ان ساعتهم قد دنت وآذنت يوم هرب رئيسهم انطون فرعون الى ليفورنو (١٧٨٤) سعياً وراء الامن والاحتراز ليستمتع بثروة تبلغ الملايين . ولكن هذه الحادثة لم تتكرر[1] ولم تفض الى

[1] الشرقيون عامة يتكرهون عادات الاوروبيين ويأنفون من الهجرة .

اي عاقبة .

النبذة الاولى

تجارة الفرنجة في القاهرة

يلي المسيحيون في اتساع المتاجر التجار الاوروبيون ، وهم يُعرفون في المشرق باسم الفرنجة . فللبندقيين في القاهرة مؤسسات منذ عهد قديم يستقدمون اليها السروج والانسجة الحريرية والمرائي واصناف الخرضوات وغيرها . ويساهم الانكليز بتصدير الاجواخ والاسلحة والآنية المعدنية التي ما برحت تحتفظ بشهرة التفوق . بيد ان الفرنسيين الذين يبيعون امثال هذه البضائع بأثمان رخيصة قد حازوا الافضليـــة منذ عشرين سنة ونبذوا منافسيهم . وجاء نهب القافلة السائرة من السويس الى القاهرة في السنة ١٧٦٩[1]

١ تجاوبت اصداء هذا السلب في فرنسا بمناسبة الـــكارثة التي نزلت بالسيد دي سان جرمان M. de Saint Germain واحدثت دوياً بعيداً . لقد كانت القافلة مؤلفة من ضباط ومسافرين بريطانيين وبعض الاسرى الفرنسيين الذين نزلوا في السويس من ظهر سفينتين ، عائدين الى بلادهم عن طريق القاهرة . وبلغ مسامع عرب الطور امر هذه القافلة وما يحتمل ان تنقل من الثروة فعزموا على سلبها، وسلبوها فعلاً عـــلى مسافة خمسة فراسخ من السويس . فجُرِّد الاوروبيون تجريداً وباتوا عراة مثل كف اليد . وشتتهم الخوف فانقسموا عصبتين . ورجع بعضهم الى السويس ، فيا حسب سبعة منهم ان بامكانهم بلوغ القاهرة فتورطوا في الصحراء . ولكن التعب والعطش والجوع وحرارة الشمس ما لبثت ان اهلكتهم الواحد تلو الآخر . وبقي السيد جرمان يغالب الآلام وحده . وتاه في هذه الصحراء العارية القاحلة ثلاثة نهارات وليلتين معرضاً لقر الريح الشمالية ليلا (كان ذلك في شهر كانون الثاني) ولقيظ الشمس نهاراً. ولم يجد ما يستظل به الا عليقة زج رأسه بين اشواكها . والح به العطش فارتوى ببوله . واخيراً في اليوم الثالث لاحت له مياه بركة الحاج ، فجمع قواه حتى يصل اليها . ولكنه سقط ثلاث مرات عياء . ولو لم

يكيل للانكليز الضربة القاضية . ومنذ ذلك الحين لم يبق في هاتين المدينتين اثر لاي عامل ينتسب الى هذه الامة . واساس تجارة الفرنسيين في مصر ، شأنه في سائر المشرق ، الاجواخ الرقيقة المسماة لوندران باب اول ولوندران باب ثان ، وهي من صنع مقاطعة لانغدوك Languedoc .

وهم يبيعون منها كل سنة تسعمائة او الف بالة . وتقدر ارباحهم بخمسة وثلاثين او اربعين من المائة . ولكن ما يسترجعونه من البضاعة يلحق بهم خسارة تجعل صافي ربحهم خمسة عشر من المائة . ويستوردون الحديد والرصاص والابازير ومائة وعشرين برميلاً من القرمز والانسجة وبعض اصناف الخرضوات وانواع العملة . ويأخذون مقابل ذلك بن الجزيرة وصموغ افريقيا وانسجة القنب الغليظة المصنوعة في منوف ويرسلونها الى اميركا ، ثم الجلود

يره احد الجمالين عن بعد لقضي عليه في النقطة الثالثة . ولكن هذا الرجل المحسن نقله الى بيته حيث توفر على معالجته بكل انسانية مدة ثلاثة ايام . وترامى الخبر الى تجار القاهرة فاقبل من نقل السيد جرمان اليها . فوصلها في اسوأ حال . وكان جسده عبارة عن جرح واسع وكأنه نفس جثة ، ولم يبق فيه الا نسمة الحياة . بيد ان عطف السيد شارل ماجالون Charles Magallon الذي تلقاه في منزله وعنايته قد مكناه من استعادة قواه .

لقد تحدث الناس كثيراً في ذلك الوقت عن بربرية العرب ، مع انهم لم يفتكوا بأحد من رجال القافلة . ويجب اليوم لوم الاوروبيين على ما ابدوه من قلة الاحتراز ، لانهم تصرفوا تصرف المجانين . فقد كان يسودهم الشقاق ولم يكن في حوزة احدهم سلاح ناري صالح ، بل كانت جميع اسلحتهم في اسفل الصناديق . ويبدو من جهة اخرى ان العرب لم يقوموا بما قاموا به من تلقاء انفسهم ، فان اهل ثقة يؤكدون ان المسألة دبرت في الاستانة بمسعى شركة الهند الانكليزية التي لم يكن ليروقها ان ينافسها الافراد في تصدير البضائع الى البنغال . وقد دلت الحوادث اللاحقة على صحة هذا القول .

والزعفران وملح الامونياك والارز . ولكن هذه المواد قليلاً ما تفيهم دينهم كله . وتراهم ابداً في حيرة بما يستعيضون به من سلع ، على كون منتجات مصر متعددة ومنها القمح والارز والذرة الصفراء والبيضاء والسمسم والقطن والقنب والسنا وخيار شنبر وقصب السكر والنطرون وملح الامونياك والعسل والشمع . وقد تنتج الحرير والنبيذ . ولكن الصناعة والعمل في جمود لان الزارع في مصر لا يحصد . ويقدر ما يستورده الفرنسيون في السنة العادية ثلاثة ملايين ليرة . وقد كان لفرنسا قنصل بقي حتى السنة ١٧٧٧ ، ولكن النفقات التي استوجبها وجوده حدت بأولي الشأن الى نقله الى الاسكندرية . فلم يعترض التجار على نقله ولم يطلبوا تعويضاً ، ولبثوا في القاهرة على مسؤوليتهم الخاصة . ولم تتبدل وضعيتهم فيها وهي تماثل وضعية الهولنديين في نانكازا كي ، اي انهم محصورون في زقاق واسع يتعايشون ، وقلما كانت لهم صلات بغيرهم . وهم يتحاشون الخروج ما استطاعوا لئلا يتعرضوا لشتائم الشعب الذي يكره اسم الفرنجة ، او لاهانات المماليك الذين يكرهونهم على الترجل عن ظهور الحمير في الازقة . واذ هم في احتباسهم المعتاد ، ترتعد فرائصهم من وباء الطاعون يحصرهم في منازلهم ، او من فتنة تعرض حيهم للنهب والسلب ، او من بلص يفرضه عليهم القائد او البكوات . وفي كل ذلك ما فيه من المخاطر .

وتقلقهم هموم اخرى مماثلة بسبب متاجرهم . فهم مضطرون الى البيع ديناً ، وقلما سددت ديونهم في آجالها . ولا ضمانة للسفاتج امام القضاء ، فالتقاضي شرّ من الافلاس . وتجري المعاملات على اساس الذمة . ولكن هذه الذمة قد تشوهت .

يماطلهم الناس في الدفع سنوات ، وكثيراً ما احجموا عن الرد . والمسيحيون ، اخص عملائهم ، اكثر خيانة للامانة من الاتراك انفسهم . ومن البيّن في السلطنة جميعها ان المسيحيين ينحطون عن المسلمين في الطبائع . وترى من اجل ذلك ان القاهرة اقل اساكل الشرق استقراراً واكثرها استنفاراً . فقد كانت تقوم فيها منذ خمس عشرة سنة تسعة محلات فرنسية لم يبق منها في سنة ١٧٨٥ إلا ثلاثة ، ولا يبعد ان تزول جميعاً منها . فالمسيحيون المقيمون في ليفورنو يتعاملون مع مواطنيهم رأساً ويكيلون لهذه المحلات ضربة قاصمة . اما دوق توسكانا الذي يعتبرهم من رعاياه فهو يدعم تجارتهم بكل سلطانه ويعمل على اتساعها .

الفصل السادس عشر

مدينة القاهرة

القاهرة ، وقد تحدثت عنها كثيراً ، مدينة شهيرة يجدر ان اخصها ببعض التبسط زيادة في التعريف . ان عاصمة مصر هذه لا يعرفها أهل البلاد باسم القاهرة الذي اطلقه عليها مؤسسها . فالعرب يسمونها مصر . وهو اسم لا مفاد معروف له ، وقد يكون الاسم القديم الذي عني به الشرقيون مصر السفلى . تقع هذه المدينة على ضفة النيل الشرقية وعلى مسافة ربع فرسخ منه ، مما يحرمها حسنة كبرى لا تعوض عنها القناة الواصلة بينها وبين النهر ، لان الماء لا يسيل فيها الا في ابان الفيضان . انك اذا سمعت بالقاهرة الكبرى يخيل اليك انها عاصمة شبيهة بعواصمنا على الاقل . ولكن اذا لاحظت ان المدن لم تعرف التجميل عندنا الا من مائتي سنة لم يدهشك ان تكون على هذه الحالة من الهمجية في بلاد كل ما فيها يتسم بطابع القرن العاشر . فليس في القاهرة بنايات فخمة عامة كانت أو خاصة ، او ساحات منتظمة او شوارع مخططة تظهر فيها روائع الفن البنائي . وفي ضواحيها تلال غبراء من الانقاض المتراكمة يوماً بعد يوم ، تقوم حيالها القبور العديدة واقذار الطرقات التي تنفر العين والشم في وقت معاً . والازقة في داخل المدينة ضيقة متعرجة وغير مبلطة ، يزدحم فيها الناس والجمال والحمير والكلاب فيثور فيها غبار مزعج .

وكثيراً ما يرش الافراد الارض امام ابواب منازلهم فيعقب الغبار الوحل والابخرة الكريهة الرائحة . ومنازل القاهرة تتألف من طبقتين او ثلاث خلافاً لما هي العادة في الشرق ، ويعلو طبقتها الاخيرة سطح مبلّط او مطلي بالطين ، واكثرها مـــن الآجر ، وبعضها مبني بحجارة جميلة العروق تقتطع من جبل المقطّم القريب . وتحمل هذه البيوت مسحة السجون لان لا نوافذ لها على الشوارع ، اذ الخطر كل الخطر في ان تكون المنازل مضاءة في تلك البلاد حيث يتخذون الحيطة ليجعلوا مداخل الدور واطئة الاعتاب . وتوزيع الغرف في الداخل رديء . بيـــد انك ترى في منازل العظماء بعض الزينة وشيئاً من وسائل الراحة . وثمة ابهاء واسعة تتدفق المياه في احواضها الرخامية ، وبلاطها المرقش بالرخام والخزف الملوّن مغطّى بالنضائد والحصائر التي تعلوها سجادة ثمينـــة يجلس عليها القوم متربعين . وفي محاذاة الحيطان ارائك عليها الوسائد المنتقلة والمعدّة لتتكىء عليها المرافق والظهور . وعـــلى علو ثماني اقدام مـــن الارض اطار مـــن الصفائح المرصعة بالخزف الصيني والياباني . والحيطان مرقشة بالآيات القرآنية والنقوش الملونة التي تعلو ابواب البكوات ايضاً . وليس للنوافذ زجاج او أُطر متحركة بل عوارض مشبكة قد تزيد اكلاف صنعها على اكلاف المرائي عندنا . وينفذ النور الى الدور من الساحات الداخلية حيث تعكس اشجار الجميز ظلالاً خضراء تروق النظر . وثمة نافذة صوب الشمال او في اعلى السقف تبعث الهواء الرطب . ولكن وجودها يناقض مناقضة غريبة وسائل الدفء التي تكثر في المنازل كملاحف الصوف والفراء . ويزعم الاغنياء ان في هذه الاحتياطات ما يبعد الامراض ،

ولكن رجل الشعب بقميصه الازرق وحصائره الغليظة اقل تعرضاً للزكام .

النبذة الاولى

سكان القاهرة والقطر المصري

كثيراً ما يتساءلون عن عدد سكان القاهرة . فاذا ما اعتمدنا على قول متعهد الجمارك انطون فرعون الذي ذكره البارون دي طوت Le Baron de Tott كان عدد سكانها سبعمائة الف نسمة بما فيه بولاق ، وهي ضاحيتها وميناؤها المنفصلة عن المدينة . بيد ان تعداد السكان في تركيا امر كيفي لان سجلات المواليد والوفيات او الزواج لا وجود لها . فالمسلمون يتطيرون من الاحصاء . اما المسيحيون فيمكن احصاءهم بالاستناد الى اوراق الخراج . والثابت في الامر ان دائرة القاهرة ثلاثة فراسخ وفقاً للمخطط الذي رسمه نيبوهر في السنة ١٧٦١ ، وهي تكاد تضاهي دائرة باريس ضمن خط الجادات . وتقوم في هذا الاطار جنائن وخرائب واراضٍ خالية . فاذا كانت باريس في محيط الجادات لا تحتوي اكثر من سبعمائة الف نسمة على كون منازلها من خمس طبقات ، اصبح من الصعب التصديق ان القاهرة ، ومنازلها ذات طبقتين ، تحتوي اكثر من مائتين وخمسين الف نسمة . وانه لمن المستحيل ايضاً تقدير عدد سكان القطر المصري بكامله . بيد انه لما كان عدد مدنه وقراه لا يجاوز الفين وثلاثمائة [1] على ما هو معروف ،

[1] عرف دانفيل قائمتين عن قرى مصر . فالاولى وهي من القرن الماضي تحتوي الفين وستمائة وست وتسعين مدينة وقرية . والثانية وهي من اواسط القرن الحالي تتضمن

وكان لا يمكن ، عن طريق المعادلة بين الاماكن بما فيها القاهرة نفسها ، ان يزيد عدد سكان المكان الواحد على الف نسمة ، اصبح من الثابت ان عدد السكان الاجمالي لا يجاوز ٢،٣٠٠،٠٠٠ نسمة . ان الاراضي الصالحة للزرع تبلغ ٢١٠٠ فرسخ مربع بحسب قول دانفيل . ففي كل فرسخ مربع والحالة هذه ١١٤٢ نسمة . وهذه النسبة التي هي اعلى منها في فرنسا نفسها تحمل على الاعتقاد ان مصر ليست من ضآلة السكان بقدر ما يتوهمون . ولكن اذا لاحظنا ان الاراضي لا ترتاح قط وانها جميعها خصبة ، تبين لنا ان النسبة ضعيفة جداً متى قيست بما كانت عليه وبما يمكن ان تكون .

وبين الغرائب التي يدهش لها الاجنبي في مصر هذا العدد العجيب من الكلاب الشنيعة التي تطوف بين الازقة ، ومن الحِدآن المحلقة فوق البيوت مرسلة اصواتها المزعجة الفاجعة . والمسلمون لا يقتلونها على ما يعرفون من قذارتها ، بل كثيراً ما يقيتونها بفضلات الموائد . واكثر طعام الكلاب من الطرقات ، ولكن ذلك لا يحول دون تعرضها للجوع والعطش . والغريب انها لا تصاب بداء الكلب . وهذا الداء غير معروف في سوريا ايضاً . ولكن اللغة العربيـــة تنطوي على اسمه ، وما كان اصله اعجمياً .

الفين واربعمائة وخمس وتسعين ، منها تسعمائة وسبع وخمسين في الصعيد والف واربعمائة وتسع وثلاثين في الدلتا ، والموجز الذي بسطته هو من السنة ١٧٨٣ .

الفصل السابع عشر

امراض مصر

النبذة الاولى

العمى

اكثر ما يدهشك في مصر من الامراض العمى وسعة انتشاره. فكثيراً ما كنت اشاهد في تجوالي بين ازقة القاهرة بين مائة شخص عشرين اعمى وعشرة عور وعشرين غيرهم من ذوي العيون الحمراء او المتقيحة او المشوبة بالبقع. ويكاد يكون جميع الناس متقنعين بالعصائب، وهي الدليل على انهم مصابون بالرمد او ناقهون منه. ومثار الدهشة ايضاً رباطة جأشهم التي يقابلون بها هذا الويل العظيم. يقول المسلم: «هذا ما قد كتب»، ويقول المسيحي: الحمد لله، انها مشيئة، فليكن مباركاً». ان هذا التسليم خير ما يتذرع به المرء بعد حصول الداء. ولكنهم يجاوزون الحد في الركون اليه حتى يمتنعوا عن البحث في اسباب الداء، فيصبح تسليمهم احد هذه الاسباب. لقد عالج بعض اطبائنا هذه القضية، ولكنهم طرقوها بصورة مبهمة لجهلهم ما يلابسها من الاحوال. وسأرسم عنها صورة عامة توصلاً لحلّ المعضلة:

١ – ان نزلات العيون ونتائجها ليست خاصة بمصر، بل تحدث

في سوريا حيث هي اقل انتشاراً . ومن الجدير بالذكر انها منحصرة في السواحل البحرية .

٢ - ان القاهرة وهي ملأى بالاقذار ابداً اكثر تعرضاً لها من سائر القطر المصري ، وعامة الشعب اكثر من اهل اليسار ، واهل البلاد اكثر من الاجانب . ويندر ان يصاب بها المماليك . وفلاحو الدلتا اكثر تعرضاً لها من عرب البادية .

٣ - ليس لهذه النزلات فصل معين ، بل هي تقع في كل الشهور ايا كان عمر المصابين .

اما وقد بسطت هذه المسائل فيلوح لي انه لا يجوز التسليم بأن سبب الداء الرياح الجنوبية . والا وجب ان ينتشر الوباء في شهر نيسان وان يتأثر به البدو كالفلاحين . ولا يمكن التسليم ايضاً بان سببه الغبار الدقيق المنتشر في الهواء ، لان الفلاحين هم اكثر تعرضاً له من سكان المدن . وقد تكون عادة النوم على السطوح اكثر ملامسة للحقيقة . ولكن هذا السبب ليس وحيداً ولا مجرداً ، لان هذه العادة مألوفة في النواحي الداخلية النائية عن البحر كوادي بعلبك ، وديار بكر ، وسهول حوران ، وفي الجبال حيث لا تتأثر الابصار بالنوم على السطوح . فاذا كان النوم في الهواء الطلق مؤذياً في القاهرة وسائر بقاع الدلتا ، لزم ان يكون هذا الهواء قد اكتسب من مجاورة البحر خاصة ضارة . وهذه الخاصة هي الرطوبة التي اذا امتزجت بالحرارة تصبح ولا شك مبدأ العلل . وان ما في الهواء من الملوحة ، في الدلتا ، خصوصاً ، يساهم في تغذية الداء بما يحدثه من التهيج والحكاك في العيون كما تبينته بنفسي . وارى في طعام المصريين عاملاً آخر قوياً ، فالجبن واللبن الرائب والعسل والثمار الخضراء

والخضر النيئة التي هي مأكل الشعب تحدث في اسفل البطن تشويشاً يتأثر به البصر ، على ما تبينه اهل الممارسة . وللبصل النيء خصوصاً ميزة في تهييج العين تعلمتها مـــن رهبان سوريا وخبرتها بنفسي . والاجسام التي يكون غذاؤها على هـذه الطريقة تستفيض اخلاطها الفاسدة الساعية للتسرب . واذ كان العرق العادي يحوّل هـذه الاخلاط عن المسالك الباطنية ، فهي تنفذ الى الخارج من المصارف التي هي اقل مقاومة لها . ولا شك انها تؤثر الرأس لان المصريين يحلقونها كل اسبوع ويغطونها بعمامة كثيرة الحرارة تستعرقها بغزارة . فاذا ما كشفت هذه الرأس وتعرضت للبرد ، انقطع عرقها وتحول الى الاسنان او الى العيون باعتبار انهـا اقل مقاومة . فيضعف العضو لدى كل نزلة ، ولا يلبث ان يتلف . وهذا الاستعداد في الجسم ينتقل عن طريق النسل ويصبح سبباً آخر للمرض . وهذا ما يفسر ان اهل البلاد اكثر تعرضاً له من الغرباء . ومما يدلك على ان عرق الرأس عامل قوي في تسبيب الداء هو ان المصريين القدماء الذين كانوا حاسري الرؤوس لم يذكر الاطباء انهم كانوا يصابون بالرمد[1] . وهذا هو شأن عرب البادية الذين قلما اعتموا في الصغر . فهم كذلك خلو من هذا المرض .

النبذة الثانية

الجدري

ان عدداً كبيراً من حوادث العمى في مصر يرجـــع سببه الى

[1] على ان التاريخ يذكر ان بعض الفراعنة ماتوا عمياناً .

عواقب الجدري . فهذا المرض الكثير الفتك في الارواح هناك لا يعالج بحسب الطريقة الصالحة اذ يعطى المصاب في الايام الثلاثة الاولى دبساً وعسلاً وسكراً . ثم يسمح له في اليوم السابع بالالبان وبالسمك المالح كما لو كان في الصحة التامة . ولا يعاطونه مسهلاً قط، ويتحاشون خصوصاً غسل عينيه حتى لو امتلأتا بالقيح وانطبقت جفونه والتصقت. ولا يقومون بهذا العمل الا بعد مرور اربعين يوماً يكون القيح خلالها قد قرّح العين كلها وتآكلها . ولا يعني هذا انهم لا يعرفون التلقيح . ولكنهم قلما توسلوا به . كذلك السوريون وسكان الاناضول، فهم يعرفونه منذ زمن طويل، ولكنهم لا يمارسونه [1] .

ان هذه الطريقة السيئة في العلاج من العوامل التي تساعد على نماء المرض . وما كان المناخ ليفعل فعلها لانه ليس من الرداءة بالمقدار الذي يتوهمون [2] . اما التغذية الرديئة فهي سبب ما ترى من هياكل المتسولين الدميمة المنظر ومن مسحة الشقاء والوهن التي ترتسم على وجوه صبية القاهرة . وما كانت هذه المخلوقات الصغيرة في اي مكان مثلها في هذه المدينة من حيث المظهر الخارجي الفاجع . فكأن هؤلاء البؤساء بأعينهم الجوفاء، وسيماهم الشاحبة المتورمة ، وبطونهم المنتفخة ، واطرافهم المزيلة ، ولونهم الصفراوي يغالبون الموت دائماً وابداً . وتزعم امهاتهم الجاهلات ان عين الحسود الخبيثة فعلت بهم ما فعلت . وهذه الخرافة

١ وطريقتهم في ذلك انهم يدخلون في الجسد خيطاً او هم يتشقون المريض جفافة البثور .

٢ ولنا شاهد بالمماليك الذي يتمتعون بالقوة والنشاط بفضل حسن التغذية وانتظام المعاش .

متأصلة في البلاد التركية . اما السبب الحقيقي لما يعانون فمرده الى التغذية الرديئة . وترى انهم ، على رغم التعاويذ[1] ، يموتون افواجاً وجماعات . وما من عاصمة كالقاهرة تمتاز بهذه الميزة المشؤومة في ابتلاع سكانها .

وثمة مرض كثير الانتشار في القاهرة ، وهو الذي تسميه عامتهم بالمرض المبارك ، ونسميه نحن على غير حق بمرض نابولي . ونصف سكان القاهرة مصابون به . ويعتقد اكثرهم انه متأت من الخوف او السحر او القذارة ، ومنهم من يرتاب في سببه الحقيقي . ولكن هذا السبب ذو علاقة بأمر يتكتمون بشأنه فلا يجرأون على المباهاة به . وهذا المرض المبارك متعسّر البرء . وقلما نجع معه الزئبق او عمل فيه مهما كانت طرق المعالجة . والنباتات المعرّقة في مداواته انفع وان لم تكن اكيدة المفاعيل دائماً . ومن حسن الطالع ان جرثومته قليلة النشاط بالنظر الى غزارة العرق ، طبيعياً كان او مفتعلاً . ولا تعدم ان ترى شيوخاً يرافقهم المرض حتى الثمانين من عمرهم . بيد ان عواقبه الوخيمة تظهر في المواليد الموبوئين . واشد ما يكون خطره على المصابين الذين ينتقلون الى بلاد باردة . فهو ينمو فيها نمواً سريعاً ويعصى شفاؤه بفعل هذا الانتقال . ويتفاقم امره في سوريا ودمشق والجبال حيث الشتاء القارس . فاذا اهمل انتهى الى اعراضه المعروفة وقد شهدت منها مَثَلَين .

[1] كثيراً ما ترى على وجوه الاطفال والرجال في مصر عوذ معلقه من القماش الاحمر او قطع العاج او الزجاج الملون . فهي بحسب زعمهم تحول نظرة الحسود الاولى وتتلقى ضربتها المؤذية .

ويختص مناخ مصر بثورة جلدية تعاود الجسم مسانهة. ففي اواخر حزيران او اوائل تموز تنتشر في الجسم بثور وثآليل كثيرة الازعاج. ولاحظ الاطباء ان هذه الآفة تحدث على اثر تجدد الماء فنسبوا سببها اليه. وحسب الكثيرون ان الماء يفعل فعله بالاجسام بسبب كثرة الرواسب الملحية فيه. ولكن ملوحة هذا الماء غير ثابتة، بما يجعلنا نذهب الى سبب آخر ابسط. فقد سبق وقلت ان مياه النيل تأسن في مجراه عند اواخر شهر نيسان، فتحدث في الاجسام المرتوية منها اخلاطاً رديئة. فعندما تصل المياه الجديدة يحصل في الدم اختمار تنفصل بنتيجته تلك الاخلاط وتطرد نحو الاديم حيث يستحلبها العرق، وهو استنفاض كثير الفائدة.

وفي القاهرة ايضاً داء انتفاخ الخصيتين الذي كثيراً ما يفضي الى قيلة عظيمة [1]. ويلاحظون انه اكثر ما يصيب اليونانيين والاقباط مما جعل الناس يحسبون ان سببه الافراط في تناول الزيت الذي يتعاطاه اولئك طوال ثلثي السنة. ويظنون ايضاً ان الاستحمام بالمياه السخنة احد اسبابه. وللافراط في الاستحمام اضرار اخرى [2]. والاحظ بهذه المناسبة ما عرفته بالاختبار من ان العرق

١ القيلة والادرة انتفاخ في الخصى يسميه العامة الفرق.

٢ للمصريين والاتراك عامة ولع بالحمامات السخنة يصعب تفسيره في هذه البلاد الحارة، واري انه ناشيء عن فرض الشريعة على الرجال الوضوء بعد الفعل الجنسي. اما النساء فلهن فضلا عن ذلك دوافع اخرى، منها ان الحمام هو مكان الاجتماع الوحيد الذي يمكنهن فيه عرض زينتهن واكل البطيخ والفاكهة والحلوى. والاستحمام يولهن تلك البدانة التي يحسبونها جمالا على ما لاحظ بروسبر الپان Prosper Alpin. ولكن آراء الاجانب في هذا النوع من الاستحمام جد مختلفة، وكذلك تحمسهم به، فكما ان

المستقطر من التين او الجميز او التمر او الصبار شديد الاثر في الحصيتين . فاذا تعاطيته ثلاثة ايام او اربعة تورمتا ووجعتاك . فاذا لم تنقطع عن معاطاة هذه الخمرة تحول الداء الى قيلة .

وليس للعرق المستخرج من الزبيب مثل هذه السيئات ، فهو ممزوج بالانيسون دائماً وقوي جداً لانه يستقطر ثلاث مرات على التوالي . ويتعاطاه نصارى سوريا واقباط مصر بكثرة ، حتى ان هؤلاء يحتسونه عند العشاء اكواباً ملأى . وكنت احسب ان في الامر مبالغة حتى شهدته مشاهدة اليقين ، ولكنني ما زلت استغرب كيف ان هذا الافراط لا يقتل صاحبه فوراً او لا يحدث فيه على الاقل اعراض السكر الشديد .

ان الربيع في مصر ، وهو بمثابة الصيف في مناخاتنا ، يؤذن بحميات خبيثة سريعة العاقبة ابداً . وقد لاحظ طبيب فرنسي توافر على معالجتها ان مداواتها بالكينا ، في حالة خمودها ، قد انقذت مرضى اشرفوا على الهلاك[1]. فعند ظهور الداء يجب الاقتصار في المأكل على النباتات الحمضية والامتناع عن اللحم والسمك والبيض بنوع خاص ، لان لها مفعول السم في مصر . وقد دلت الملاحظات في هذا البلد وفي سوريا ان الفصاد يجلب الاذى اكثر من المنفعة حتى في اكثر الحالات موائمة ، لان غذاء الاجسام ، وهو عبارة عن

البعض يرتاحون اليه ، كذلك يرى فيه البعض الآخر ازعاجاً شديداً . وانني من هذه الفئة الاخيرة. فقد حصل لي من جرائه دوار وارتجاف في الركبتين طوال يومين . واعترف ان في تلك المياه المحرقة حقاً وفي ذلك العرق المسبب باختلاجات الرئتين اكثر منه بالحرارة لذة مستغربة جداً. وتراني لا احسد الاتراك على افيونهم او حماماتهم او دلاكيهم المفرطين بالملاطفة.

١ وفي اليوم الثاني كان يعاطي المريض حقنة خلفية لاستفراغ الكينا من جوفه .

طعام رديء كالفاكهة الخضراء والخضر النيئـــة والجبن والزيتون، يكسبها دماً قليلاً واخلاطاً كثيرة، وهي في الاجمال صفراوية كما يستدل من العيون والحواجب السوداء، واللون الاسمر والاجسام الهزيلة. والمرض الشائع هنـــاك مرض المعدة، اذ يشكو معظم الناس من حرافة الحلقوم والقيء الحمضي. ويتداوون لها بالمقيئات والطرطير.

ويحدث ان تصبح الحميات الخبيثة وبائية حتى يحسب الناس انها الطاعون الذي بقي لي ان اتحدث عنه.

النبذة الثالثة

الطاعون

شاء بعضهم ان يحملنا عـلى الظن ان الطاعون ينشأ في مصر. بيد ان الواقع يكذب هذا الرأي القائم على الاظانين المبهمة، اذ يؤكد تجارنا المقيمون في الاسكندرية منـــذ سنوات طويلة ان الطاعون لا يتسرب قط من داخل البلاد[1]، ويوافقهم المصريون على ذلك، بل انه يظهر اولاً على ساحل الاسكندرية، فينفذ منها الى الرشيد، ومن الرشيد الى القاهرة، فالى دمياط، فالى سائر الدلتا. ويلاحظون ان هذا الوباء ينتشر دائماً على اثر وصول احد المراكب المقلعة من ازمير او الاستانة، وانه اذا كان شديداً ابان

[1] بروسبر الپان Frosper Alpin طبيب من البندقية كتب في السنة ١٥٩١ ان منشأ الطاعون ليس في مصر، بل في اليونان وسوريا وبلاد المغرب، وذكر ايضاً ان الحر يقتل الداء.

فصل الصيف في احدى المدن المذكورة كان خطره اشد على المدينة الاخرى في فصل الشتاء الذي يلي . ويبدو من الثابت ان موطنه الحقيقي الاستانة حيث يتأبد بفضل ما يظهر الاتراك من اهمال اعمى اذ تباع امتعة الموتى الموبوئين علانية . ثم تأتي سفن الاسكندرية فتنقل الفراء والاثواب الصوفية المبيعة على النحو المذكور ، وتصرفها في اسواق المدينة حيث تزرع جراثيم الوباء . واليونانيون الذين يتعاطون هذه التجارة هم في الغالب ضحاياها الاولى . ويمتد الوباء شيئاً فشيئاً الى الرشيد حتى ينتهي الى القاهرة متأثراً في مسيره الطريق الذي تسلكه البضائع يومياً . اما التجار الفرنجة فلا يكادون يستشعرون وقوع الداء حتى يعتصموا في « خاناتهم » مع خدمهم ، ويقطعوا كل صلة بالخارج ، فتسلم اليهم اقواتهم عند باب الخان ، فيتسلمها البواب بكلاليب من حديد ، ويضعها في برميل ماء معد لها . فاذا ما شاء احد مكالمتهم ، وقفوا منه على مسافة تحول دون التماس بالثياب او بالنَفَس . وهم بهذه الطريقة يتقون الآفة ما لم يخلوا بقواعد الاحتراس . فقد حدث منذ سنتين ان هراً قفز عن السطوح الى مقر تجارنا ، فنقل الطاعون الى رجلين منهم ما لبث احدهما ان قضى نحبه .

ويمكنك ان تتصور مبلغ الضجر الذي يستولي على هؤلاء القوم في احتباسهم ، وهو يستمر من ثلاثة شهور الى اربعة ، يقتصرون خلالها على التلهي بلعب الورق والتنزه مساءً على السطوح .

ومما يسترعي النظر ان الطاعون يتسلط في الاستانة صيفاً فيما يضؤل او يزول شتاء . وهو بالعكس يسيطر في مصر شتاءً حتى اذا ما اطلّ شهر حزيران اباده . بيد ان هذه الغرابة الظاهرة

تقوم على قاعدة واحدة . فالشتاء يبيد الطاعون في الاستانة لان بردها قارس جداً ، والصيف يذكيه لان الحرارة فيها مشوبة بالرطوبة بسبب جوار البحار والجبال والغابات . وفي مصر يثيره الشتاء بسبب رطوبته واعتداله ، ويمحقه الصيف لانه حار وجاف . ويعمل فيه عمله في اللحوم التي يمنعها من الفساد . وما كانت الحرارة مؤذية إلا بمقدار ما تمتزج بالرطوبة [1] . ان مصر تنكب بالطاعون كل اربع سنوات او خمس . ولكان ما يحدثه من التلف في الارواح خليق بان يجعلها قاعاً صفصفاً لولا ما تعتاض به من الغرباء المقبلين عليها جماعات من سائر ولايات السلطنة .

اما في سوريا فالطاعون نادر جداً ، وقد مضت خمس وعشرون سنة على آخر مرة تفشى في انحائها . ويرجع ذلك الى ندورة السفن المقبلة من الاستانة تواً . فضلاً عن انه لا يتبلد بسهولة في هذه الولاية . فاذا ما نقل من الارخبيل او من دمياط نفسها الى خلجان اللاذقية او صيدا او عكا ، فهو لا يتأصل فيها . ويقتضي له لكي يغزو سوريا بأسرها ان تلابسه احوال اعدادية ويمر بطريق معينة كأنْ يأتي من القاهرة الى دمشق رأساً .

ان التسليم للقدر مضافاً الى همجية الحكومة قد حال حتى اليوم دون الاحتراز من هذا الداء الوبيل . على ان الاتراك تأثروا اخيراً بجدوى الوسائل التي اعتمدها الفرنجة . ويبدو ان الباب العالي اصبح بادي الاهتمام للقضية ، اذا صح انه اصدر في العام

[1] لوحظ في القاهرة ان حملة الماء الذين ترشح عليهم المياه الباردة باستمرار من القرب المنقولة فوق ظهورهم لا يصابون قط بالطاعون ، ولكن الامر هنا اغتسال لا رطوبة .

المنقضي ارادة بانشاء محاجر صحية في ازمير وكنديا والاسكندرية. وسبق لحكومة تونس ان تذرعت بهذا التدبير الرشيد منذ سنوات. على ان فوضى الادارة التركية كفيلة بان ينتهي الامل بهذه المؤسسات الى اخفاق رغم ما لها من الاهمية القصوى للتجارة ولسلامة دول البحر المتوسط [1].

[1] والدليل على ذلك انه الطاعون انتشر السنة الماضية في تونس انتشاراً لم يسبق له مثيل، وكانت قد نقلته اليها مراكب مقبلة من الاستانة تمكن ركابها من رشوة الحراس والدخول خلسة الى البلاد دون التوقف في الكرنتينا.

الفصل الثامن عشر

النبذة الاولى

صورة موجزة عن مصر

ما يزال المجال واسعاً لوجوه البحث عن احوال مصر ، ولكنها وجوه غريبة عن الغرض الذي اتوخاه ، او هي تدخل فيما سأورده عن سوريا . فلن ابسط فيها والحالة هذه .

اذا ذكر المطالع ما قلته عن طبيعة الارض ومنظرها ، وتمثل بلاداً مسطحة مقطعة بالترع ، مغمورة بالميـاه ثلاثة اشهر ، موحلة مخضوضرة ثلاثة اشهر اخرى ، غبراء مشققـة الاديم في سائر ايام السنة ، وتصور على هذه الارض قرى خربة من الطين والآجر ، وفلاحين عراة شاحبي اللون ، وجواميس وجمالاً واشجار جميـز ونخيل ، وبحيرات وحقولاً محروثة وخلاء شاسعاً ، واضاف الى ذلك شمساً ساطعة في زرقـة سماء قلما تشوبها السحب ، ورياحاً تتراوح شدة وليناً وهي في الحالين مستمرة الهبوب ، امكنه ان يكوّن فكرة قريبة من طبيعة البلاد ، وقد تسنى له ان يتعرف باحوال السكان الشخصية بما ذكرته عن تفرقهم اجناساً وشيعاً وبيئات ، وعن نوع حكومتهم التي لا تعترف للاشخاص بملكية او أمان ، وعن السلطة المتناهية الموكول امرها الى طبقة عسكرية متفسخة الاخلاق خشنة المراس ، ويمكن اخيراً تقدير قوة هذه الحكومة

باجمال حالتها العسكرية وقيمة جيوشها والملاحظة انه ليس في مصر او على حدودها اي تحصين او متراس او مدفعية او مهندسون ، وان بحريتها عبارة عن ثمانية وعشرين مركباً يعلو كل واحد منها اربعة مجانيق صدئة ويقودها بحارة لا يعرفون ما البوصلة . فعلى القارىء ان يستخلص لنفسه رأياً عن بلاد كهذه . فاذا رأى انني اصفها له بغير ما وصفها غيري [1] فلا يدهشن من تباين النظرات ، فليس ما هو اقل اجماعاً من احكام الرحالين في امر البلاد التي عاينوها . فهم كثيراً ما يناقض بعضهم بعضاً . فهذا يطري ما خفضه ذاك . وآخر يصف بالجنة مكاناً يراه غيره جدّ عادي . أجل ، يأخذ عليهم الناس هذا التناقض ، ولكن نقّادهم يشاركونهم فيه لانه كائن في طبيعة الاشياء . ومهما يكن من امر فان احكامنا لا تستند الى الخصائص الحقيقية في الاشياء بمقدار ما هي تقوم على تأثراتنا بها او على التأثرات التي تكون فينا عندما نرى هذه الاشياء . ويدل الاختبار اليومي على تداخل الافكار الغريبة في تلك الاحكام بما يجعل ان البلد الواحد الذي يبدو لنا جميلاً في وقت من الاوقات يوحي لنا بالكراهية في وقت آخر . هذا فضلاً عن انه يصعب على المرء ان يتخلص من الوهم الناشىء عن عاداته الاولى . فساكن الجبال يكره الساحل ، وساكن الساحل يحتقر الجبال .

يريد الاسباني سماء محرقة ، فيما يبغي الدانماركي طقساً غائماً . نحن نحب خضرة الغابات ، والاسوجي يؤثر عليها بياض الثلوج .

[1] راجع دي مايه de Maillet .

وقد نُقل احد سكان لابونيا من كوخه المدخّن الى غياض شانتبي فمات من القيظ والكآبة . فلكل ذوقه الذي يحكم بمقتضاه . اني افهم ان تكون مصر في عين المصري اجمل بلاد العالم ، وان لم يكن قد عرف غيرها . ولكنني اذا سمح لي بابداء الرأي كشاهد عيان ، اعترف بانني غير مجاريه في مـــا يرى . انني مقر بسخاء خصبها وتنوع حاصلاتها وافضلية موقعها للتجارة ، ومسلّم بانها غير معرضة لتقلبات الهواء التي تهلك محاصيلنا ، وبان الاعصارات لا تجتاحها كما تجتاح اميركا ، وبان الزلازل التي اكتسحت البرتغال وايطاليا في ايامنا هذه نادرة الحدوث فيها على كونها لم تكن خلواً من ويلاتها [١] . حتى اني اسلم بان الحر الذي يرهق الاوروبيين لا يتضرر منه سكانها ، ولكن ما قولك في هذه الرياح الجنوبية القتـــالة ، وبهذه الريح الشمالية التي تولد الصداع الشديد ، وبهذا العدد العديد من العقارب والبعوض ، وخصوصاً الذباب الذي لا تستطيع ان تتناول طعاماً إلا اوشكت ان تبتلع منه . ومـا من بلد كمصر في عدم تبدل المنظر ، فثمة سهل عارٍ مترامي الاطراف ، وآفاق مسطحة متساوية ، واشجار نخيل تقوم على ساق هزيلة ، واكواخ من الطين على الطرق ، فلا تقع عيناك قط على سناء تلك المناظر التي تسترق الافكار والابصار بتنوع الاشياء والمشاهد والتأثرات . وما من بلد اقل مدعاة للافتتان وانبى عن ريشة الرسامين والشعراء . فلا ترى فيه شيئاً مما يجعل السحر والغنى في تصاويرهم . ومـــن الجدير بالنظر انه لا العرب ولا الاقدمون جاؤوا على ذكر شعراء

١ حدث فيها زلزال شديد سنة ١١١٢ .

مصريين . وفي واقع الحال بأي شيء يغني المصري عـلى قيثارة غيزنر وتيوكريتوس ؟ فليس عنده الجداول الصافية ولا الخمائل الريانـة ولا المغاور المنعزلة . ولا يعرف الاودية ولا السفوح ولا الصخور المدلاّة . ولا يجد تومبسون هناك صفير الرياح في الغابات ولا دحرجة الرعود في الجبـال ولا سكون الجلال في الاحراش القديمة ، ولا روعة العاصفة او ما يعقبها مــن هدوء مهيب ، بل ثمة دائرة ازلية تتعاقب فيها ابداً مشاهد المواشي السمينة ، والحقول الخصبة ، والنهر المعتكر، وبحر المياه العذبة، والقرى المائلة كالجزر . فاذا ما انطلق الفكر الى الافاق التي تشملهـا الابصار جزع ألا يجد غير البواري المتوحشة التي ييأس فيها المسافر التائه الموهون تعباً وظمأ امام الرحائب التي تفصله عن العالم ، فيستصرخ الارض والسماء على غير طائل ، وتضيع صيحاته في سهل اجرد لا يردها اليـه اصدية ولا ترجيعاً . فهو ، وقد عري من كل شيء واحدقت بـه وحدة الكون ، يقضي كمداً ويأساً امام طبيعة كئيبة دون ان يتأسى بدمعة تذرف على مصابه .

ان مجــاورة النقيضين في مصر لمما يزيد ولا شك في محاسن تربتها . فعراء البادية يقابله غزارة النيل ، ومشاهد الحرمان تزيد في عذوبة الاستمتاع ، هذا الاستمتاع الذي كانت موارده كثيرة فيما سلف من الدهر ، وكان بالمستطاع ان يعود الى سابق عهده لو كانت الحكومة صالحة . ولكن ثروة الطبيعة اليوم لا نتاج منها ولا ثمر . وعبثاً يطري الناس حدائق الرشيد والقاهرة ، فالبستنة فن خليق بالشعوب المتحضرة ، ويجهـله الاتراك لانهم لا يأبهون بأمر الحقول والزراعة . وليست البساتين في مجمل ارجاء السلطنة إلا

غياضاً برية القيت فيها الاشجار دون اي عناية حتى انها لا تستحق
ان يقال عنها اشجار فوضى . اما اشجار الليمون والاترج (الكباد)
التي نحيطها بكل ضروب العناية والاتقان فهي في مصر شجيرات
عادية تظلل الاكواخ وتطبع في النفس صور الاهمال والبؤس
والشقاء ، يستلقي التركي في ظلالها مسترخياً مدخناً غليونه دون
ان يجهد نفسه بعناء التفكير . لا شك ان للجهل والحماقة لذاتهما ،
شأنهما بذلك شأن العقل والمعرفة ، ولكنني اعترف انني لا استطيع
ان احسد العبيد على راحتهم ، ولا ان أسمي خمول هذه الآلات
المحركة نعيماً ، حتى اني ما كنت لافهم مصدر حماس الرحالين لمصر
لو لم يدلني الاختبار على اسرار هذا الحماس الخفية .

النبذة الثانية

مبالغات الرحالين

لاحظ الناس منذ زمن بعيد ان في الرحالين ميلاً الى ترويق
ميادين اسفارهم . وادرك اهل الحذق ما في رواياتهم من غلو
ومبالغة ، فأوردوا مثلاً[1] حذروا به من الركون الى كل ما يزعمون .
ولكن المبالغة ما برحت قائمة لانها تمتّ الى اسباب تتجدد ابداً ،
وكل منا يحمل بذورها ، حتى ان اللوم كثيراً ما يجب ان يوجه
الى من صدر عنه . فلنتفحص رحالة مقبلاً من بلاد بعيدة على مجتمع
تسوده البطالة والفضول ، نرَ ان جدة اخباره تلفت النظر اليه

[1] Multum mentitur qui multum vidit من يصدق كثيراً
يكذب كثيراً .

وتجعله مستلطفاً ، فيحبه الناس لانه يفكههم ولان مزاعمه ليست مما يخفل او ينبو . فلا يعتم هو نفسه ان يشعر انه لا يثير الاهتمام إلا بمقدار ما يولد في النفوس تأثيرات جديدة . ويحدو به حرصه على الاستزادة من هذا الاهتمام ان يضيف الى تصاويره كثافة تلوين . فيصور الاشياء اكبر مما هي ليجعلها اكثر روعة وفعالية . ويشجعه ما يصيبه من نجاح حتى يدخل الحماس اليه هو نفسه ، ولا تلبث ان تقوم بين سامعيه وبينه مناظرة بكيل لهم فيها من اسباب الدهشة ما يكافئونه عنه بمظاهر الاعجاب . وهـذا العجب الذي رآه في سفره ينعكس فيه اولاً ، ثم يتدرج الى مستمعيه ، فيروونه عنه بدورهم . والازدهاء الذي يمتزج في كل شيء يصبح احد اسباب هذا الميل الثاوي في كل منا الى تصديق الغرائب او روايتها على الناس . والفكاهة تهمنا اكثر من الاقتباس . وهذا ما يجعل القصاصين في المرتبة الممتازة من تقدير الناس وفي طبقة الكتاب .

ولحماسة الرحالين سبب آخر ، فالمخيلة ، وقد ابتعدت عن الاشياء التي استمتعت بها ، تتلهب من الحرمان ، لان البعد يذكي الرغائب ، وشبع النفس مما حولها يجذبها الى ما ليس في متناولها ، حتى ان الانسان يتأسف على بلد طالما تمنى لو خرج منه . والرحالون الذين يمرون في مصر مروراً ليسوا من هذه الفئة ، بعكس الذين لبثوا فيها زمناً . ويعرف تجارنا ذلك ، اذ لاحظوا ان رهطـاً ممن سئموا الاقامة في مصر لم يرجعوا الى فرنسا حتى امحى كل شيء من حافظتهم ، فاتسمت تذكاراتهم عنها بابهج الالوان . ولم تمض سنتان على رحيلهم عنها حتى لم يبق بالامكان التصور انهم اقاموا فيها يوماً من الايام .

لقد كتب لي احد المقيمين في القاهرة : « ما السبب في انك ما

بوحت تفتكر بنا ، وكيف حفظت الصورة الحقيقيـــة عن مقام الشقاء هذا ، في حين نشعر بان الذين يعودون اليه قد نسوها الى درجة تدهشنا ؟ »

اعترف بان تأثير الاسباب الشاملة الشديدة المفاعيل التي ذكرتها كان من شأنه ان يفعل في نفسي لو لم اتدارکه واتحاشاه بحرصي على الاحتفاظ بتأثيراتي الاولى والمحافظة على الحقيقة . وقد آن لي ان انتقل بالبحث الى مواضيع اجدر بالاهتمام ، ولكن القارىء لا يغتفر لي ان اغادر مصر دون ان احدثه عن الخرائب والاهرام . وسأقول فيها كلمتين .

الفصل التاسع عشر

الخرائب والاهرام

لقد سبق لي وبينت كيف ان صعوبة الاسفار في مصر ، وقد تزايدت في هذه السنوات الاخيرة ، تحول دون البحث عن العاديات . فعند انعدام الوسائل والاحوال المؤاتية يضطر الباحث الى الاقتناع بما رأى الآخرون او نشروا . ولست اراني اذن بحاجة الى تكرار ما ذكره على التوالي بول لوكا ومايبه وسيكار وبوكوك وغريفس ونوردن ونيبوهر وسافاري Paul Lucas, Maillet, Siccard, Pocok, Greaves, Norden, Niebuhr et Savary. بل سأقتصر على بعض النظرات الشاملة .

ان اهرام الجيزة مثلٌ ساطع على ما المعت اليه من صعوبة الملاحظة . فهي وان تكن قائمة على مسافة اربعة فراسخ من القاهرة ، ويزورها عدد عديد من الرحالين ، إلا انهم لم يتفقوا قط على حقيقة مقاييسها . فقد قيس علوها مرات بالطرق الهندسية ، ولكن كل عملية كانت تفضي الى نتيجة مختلفة[1] . ويقتضي حل المسألة قياساً رسمياً يقوم به اناس من ذوي المعرفة . وربما يتم هذا الامر

١ يجب ان يضاف الى قائمة تلك الفوارق التي ذكرها سافاري قياس حديث يكون بموجبه لكل وجه من وجوه الهرم الكبير ستمائة قدم على علو عمودي يبلغ ربعمائة وثمانين قدماً .

يجب ان نقول بخطأ جميع القياسات التي تجعل ارتفاع الهرم الكبير مساوياً لقاعدته ، لان مثلثها بيّن الانبطاح . ويبدو لي ان معرفة هذه القاعدة من الاهمية بمكان ، لاني اعتقد انها ذات علاقة باحد القياسات المربعة عنـــد المصريين . فاذا كان في تقطيع الحجارة قياسات معينة متماثلة ، جاز لنا ان نستدل على مقاييسهم الاخرى .

كثيراً ما يشكو الناس انهم لا يفهمون اوصاف باطن الهرم . وفي واقع الحال انه من الصعب ان يتبين المرء ذلك في الرسم ما لم يكن خبيراً بعلم المخططات . والسبيل الافضل الى تمثل صورته هو اصطناع هرم من الطين بمقاييس مصغرة يكون القيراط فيها مثلاً بمثابة خطوة . فتتجسم امامنا كتلة تكون قاعدتها ثماني اقدام واربعة قراريط ، وعلوها ثماني اقدام ونصف القدم . فاذا قطعناها شقتين من الاعلى الى الاسفل امكن ان نرسم فيهـا القناة الاولى المنحدرة بانحراف ، والنفق الصاعد على النحو ذاته المنتهي الى غرفة المقابر . ان باستطاعة « نوردن » ان يتبسط اكثر في هذه التفاصيل . ولكن هذا العمل يحتاج الى اهل فن متمرسين .

ان سلسلة الصخور التي تقوم عليهـــا الاهرام لا ترتفع عن مستوى السهل اكثر من اربعين قدماً او خمسين . وحجرها كلسي ضارب الى البيــاض . وحجر الاهرام من نوع شبيه به . وقد حسب الناس في مستهل هذا القرن ، بالاستناد الى مـــا ذكره هيرودوتس ، ان موادها نقلت من الخارج . بيد ان الرحالين وقد لاحظوا المشابهة التي ألمعت اليها ، رأوا من الطبيعي ان تكون الاهرام قد بنيت من الحجر نفسه ، فاصبحت رواية هيرودوتس عن نقل الحجارة ضرباً من الخرافة . ويظن ان شكل الصخور

السطح دليلٌ على ان معظم حجارة الاهرام قد استخرج منها ، في حين ان باقيها قد استخرج من مناجم مستترة . على انه اذا كان الرأي القديم بعيداً عن التصديق ، فما كان الرأي الحديث قائماً على غير الافتراض . واذن ، فلا يصح اسناد الحكم في هذا المجال الى القول « انه لا يصدق ان تكون الحجارة قد نقلت من مقالع بعيدة ، وانه من الحماقة ان يكونوا قد تكبدوا هذه النفقات الباهظة الخ ... » ففي المسائل المتعلقة بآراء الاقدمين وحكوماتهم تصعب المقايسة بين الاحتمالات . ومهما بدا الحادث الذي نحن بصدده بعيداً عن المعقول فاننا اذا لاحظنا ان المؤرخ الذي اورده قد استقى معلوماته من الوثائق الاصلية ، وانه شديد الدقة في جميع الحوادث التي اوردها وأمكننا التحقق من صحتها ، وان الصخور الليبية لا ترتفع في اي من الامكنة الارتفاع الذي يفترضونه ، واذا تذكرنا المقالع العظيمة الممتدة من سوادي الى منفاوط على مسافة خمسة وعشرين فرسخاً ، واذا لاحظنا ان حجارتها وهي من النوع نفسه لم تستعمل لأي شيء آخر ، حملنا كل ذلك على التوقف عن البت في الامر ريثما يظهر فيه ما يجلو اليقين .

كذلك سئم بعض الكتاب من الرأي القائل ان الاهرام كانت قبوراً . وهم يرون انها كانت هياكل او مراصد ، لانه من الغرابة في نظرهم ان تبذل الامة الرشيدة مثل هذا الجهد لاشادة مدفن رئيسها ، او ان يكون الملك قد ارهق امته بالسخرة ليحبس رفاتاً من خمس اقدام في جبل من حجارة . بيد اني اكرر القول انهم يخطئون باحكامهم على الاقدمين اذا ما اسندوها الى آرائنا وعاداتنا . فقد تبدو الدوافع التي حملتهم على العمل مستغربة

في نظرنا وفي نظر العقل نفسه ، ولكن ذلك لا يخفف من قوتها ومن فعاليتها . وننسب اليهم التناقض اذ نفترض فيهم حكمة تنطبق على مبادئنا . ثم اننا نفرط في تعليل امورهم بحسب افكارنا نحن لا بحسب افكارهم . وانني ارى بالاعتماد على هذه وتلك ان الاهرام لم تكن يوماً من الايام مراصد فلكية [1]، لان جبل المقطم اكثر منها ارتفاعاً، فضلاً عن انه يحجبها . والمرصد المرتفع لا فائدة منه في مصر ،لان الارض كثيرة التسطيح والابخرة تحجب النجوم عدة درجات فوق الافق ، ولان الصعود على معظم الاهرام امر متعذر مستحيل، واخيراً لانعدام الفائدة من جمع احد عشر مرصداً متقارباً تقارب الاهرام الاحد عشر التي يطل عليها الرائي من الجيزة . ويصح القول اذن ان افلاطون الذي ذهب هذا المذهب لم يعن إلا حالات عارضة ، او ان له في هذا المجال وزن الخطيب البليغ ليس إلا . واذا ما وازن المرء بين شهادات الاقدمين والاحوال المكانية ، وتنبه الى وجود ثلاثين او اربعين أثراً قائمة على مقربة من الاهرام بشكل هرمي ، وعرف ان هذا المكان المجدب البعيد عن مواطن الخصب تتوافر فيه الشروط اللازمة عند المصريين للمدافن ، وان جبانات منفيس كانت تقع في سهل الموميات بالقرب من هذا المكان ، تيقن ان الاهرام ان هي إلا مقابر . ومتى عرف ان الناس في منفيس كانوا الى ما قبل عهد

[1] يسندون هذا الزعم الى كون الاهرام مصوبة الى خوافق السماء الاربعة . على ان الاقدمين كثيراً ما شادوا الرموس على النحو نفسه الذي يتفق مع ما كانوا يرونه من علاقة بين فكرة البعث وعلم الفلك .

موسى يعتقدون برجوع الارواح الى اجسامها بعد انقضاء ستة آلاف سنة ، سهل عليه ان يصدق ان الطغاة الذين سادوا هذا الشعب الموسوس قد صرفوا تلك العناية لجعل رفاتهم في مقر حصين ممتنع الجنبات . وهذا هو السبب الذي جعلهم يحرصون على تحنيط الاجساد والمحافظة على اشكالها بواسطة الاطياب والعصائب والاضرحة . والناووس الذي تراه في الهرم الكبير يدل على ان غرفة الموتى الذي هو فيها ما صلحت يوماً إلا لايواء ميت[1]. وشاء البعض ان يكون في النفق العامودي الذي ينزل الى ما تحت الهرم سر من الاسرار ، وقد نسي ان من عادة الاقدمين جميعهم ان يجعلوا الى داخل اللحود مسالك تمكنهم – في الايام التي تعينها الديانة – من الاحتفالات امام الموتى باراقة السوائل وتقدمة الطعام وغير ذلك . فيجدر بنا والحالة هذه ان نرجح الرأي القديم القائل بان الاهرام مدافن اموات . وتثبت جميع الاحوال ان الاهرام قد اعدت لهذا الغرض . ويثبت ذلك ايضاً اصل الكلمة التي حللتها عن طريق الاشتقاق العلمي ، فجاء مفادها بالحرف الواحد : غرفة الميت .

لم يكن الهرم الكبير الوحيد الذي فتحته يد الناس . فثمة هرم آخر في صقارة ينطوي في داخله على التقاسيم نفسها . وقد حاول احد البكوات منذ بضع سنوات ان يفتح هرماً ثالثاً في الجيزة لينتزع منه كنزاً موهوماً . فعالجه في الناحية التي فتح منها الهرم الكبير وعلى الارتفاع نفسه . وبعد ان هدم اربعمائة حجر على غير

[1] قياسها ثلاث عشرة قدماً طولا، واحدى عشرة قدماً عرضاً، ومثل ذلك علواً.

طائل اقلع عن فكرته الجشعة ، ولكنه تكبد مشقات ونفقات جمة . ليس من يعرف العهد الذي بني فيه معظم الاهرام . ولكن تاريخ بناء الهرم الكبير متفق عليه ولا نزاع في صدده .

يقول هيرودوتس انه شيّد في عهد شيوبس [1] وهو الثاني بعد الملك بروثيا الذي عاصر حرب طروادة . ويستدل من ذلك ان الهرم بني بعد انقضاء ١٤٠ او ١٦٠ سنة على بناء هيكل سليمان اي سنة ٨٦٠ قبل المسيح .

ان ايدي الزمن والبشر التي تداولت على تخريب الآثار القديمة لم تستطع حتى الآن ان تنال من الاهرام منالاً . فان رسوخ بنيانها وضخامة هياكلها قد وقياها الحدثان ، وهما كفيلان بان يتخطيا بها ابد الدهور . وقد تحدث الرحالون عنها بحماسة لا مبالغة فيها ولا مغالاة . ان هذه الجبال المصطنعة تبدو للناظر على مسافة عشرة فراسخ ، ويلوح لك انها تبعد عنك كلما اقتربت منها . وترى ، اذ انت على مسافة فرسخ منها ، إنها تشارفك حتى يخيّل اليك انك اصبحت عند اقدامها . ثم تصل اليها . وهنا لا ارى اي وصف يفي بمختلف المشاعر التي تتولاك ، ففي ارتفاع ذراها وسرعة منحدرها واتساع دائرتها وفخامة قاعدتها ، وفي صورة العصور السالفة التي تذكر بها ، وفي التأمل بالمشقات التي اقتضاها بنيانها ، وبتلك الصخور الهائلة التي هي صنع الرجل الصغير الحقير الزاحف عند اقدامها ، ما يملك القلب والعقل دهشةً ورهبةً واتضاعاً واعجاباً وإجلالاً . ولكن يجب الاقرار ان اندفاع النفس هذا

[1] يقول ان هذا الملك حكم خمسين سنة صرف منها عشرين سنة في بناء الهرم ، وقد سخر ثلث سكان مصر لتقطيع الحجارة ونقلها وبنيانها .

يعقبه شعور آخر . فانك بعد ان تستعظم قدرة الانسان لا تلبث ان تتأمل في وجه استعماله لها ، وتلقي نظرة أسف على صنائعه . ويؤلمك ان تكون امة برمتها تحملت المشاق عشرين سنة لاشادة ضريح لا طائل تحته . وتثيرك المظالم والمغارم التي نتجت عن تسخير الناس لنقل هـذه المقادير من المواد ومعالجتها تقطيعاً وتنضيداً . وتسخط على هذيان الطغاة الذين امروا بتلك الصنائع البربرية . وهـذا الشعور يعاودك مراراً فيما انت تطوف بين عاديات مصر . فهذه الاناويه وهذه الهياكل وهذه الاهرام العظيمة الضخامة لا تدل على عبقرية شعب غني محب للفنون بمقدار ما هي تدل على عبودية امة تكابد ما تكابد من هوى اسيادها . واننا نغفر عندئذ للجشع الذي ينتهك قبورهم ويخيب آمالهم ، ويضعف اشفاقنا على تلك الاخربة . وفيما يتألم رجل الفن اذ يرى ان اعمدة القصور تحز فيها المناشير لتصبح رحى للمطاحن ، لا يتمالك الفيلسوف — وقد زال التأثر الذي يتولاه لزوال كل شيء جميل — ان يبتسم لعدل الاقدار الخفي الذي يعيد الى الشعب ما تكلف من اجله المشقات الكبار ، فيخفض كبرياء هـذا البذخ النافـل ليستعمله في احقر حاجاته .

ان مصلحة الشعب هي التي تملي علينا ولاشك — اكثر مما تمليه مصلحة الآثار — التمني بأن يتولى زمام مصر غير حكامها اليوم . ولكننا ولئن اقتصرنا على ناحية الآثار فحسب ، فالانقلاب أمر لازم الحدوث . فلو كانت تملك مصرَ امةٌ تقدر الفنون الجميلة لتكشفت جاهلية هذه البلاد عن موارد غزيرة يضن بها اي بلد آخر . وقد يساعد الحظ ايضاً على اكتشاف الكتب على ما حدث في دمياط

منذ ثلاث سنوات اذ عثر الباحثون في الارض على مئة مؤلف مكتوبة بلغة غير معروفة أحرقت جميعها للحال بناء على قرار شيخ القاهرة . لم يبق في الدلتا اليوم أخربة تستحق النظر لان السكان قد هدموا كل شيء، إما بسبب الحاجة او بداعي الوسواس . ولكنها ما تزال سليمة في الصعيد في محاذاة البادية حيث يقل تردد الناس وسكناهم . ومن المؤمل ان تكون كثيرة في الواحات ، هذه الجزر التي تفصلها عن المعمور بحار من الرمال لم يتخط اليها اي مسافر فيما وراء الاسكندرية . ان تلك البقاع التي كان لها فيما سلف من الدهر حواضرها وهياكلها لم تصل اليها يد البرابرة بالتخريب . ويجب ان تكون قد احتفظت بصنائعها وابنيتها لان اهليها قد بادوا او انقرضوا . وتلك الصنائع الدفينة في الرمال باقية وكأنها امانة للاجيال المقبلة . والى هذا الزمن الذي لا نحسبه بعيداً نحيل تمنياتنا وآمالنا . فيصبح بالامكان عندئذ ان تُنقب ارض النيل والصحارى الليبية في كل نواحيها ، وان يُفتح الهرم الصغير ويهدم رأساً على عقب بتكاليف لا اعتقد انها تجاوز الخمسين الف ليرة . والى هذا العهد ايضاً يجب التريث لحل الرموز الهيروغليفية وان كنت اعتقد ان حلها اليوم ليس بالامر المتعذر .

حسبنا الخوض في مجال الحدس والاظانين ، فقد آن لنا ان ننتقل بالبحث الى ولاية لا تقل عن مصر جدارة بالاهتمام من حيث عهديها القديم والحديث .

القسم الثالث

سوريا الطبيعية

الفصل العشرون

الجغرافيا والطبيعيات

اذا خرجت من مصر وسلكت البرزخ الفاصل بين افريقيا وآسيا، متتبعاً شاطىء المتوسط، انتهى بك المطاف الى ولاية تركية ثانية تُعرف عندنا باسم سوريا. وهذا الاسم، شأن اسماء اخرى غيره، قد نقله الينا الاغريق محرفاً من كلمة آشور، بعد ان اخضع آشوريو نينوى هذه المقاطعة لسلطانهم. ولم يكن لسوريا عهدئذ اتساعها اليوم، لانها لم تكن مشتملة على فينيقيا وفلسطين. ويجهل العرب تسميتها الاغريقية ويطلقون عليها اسم بر الشام، ومعناه بلاد الشمال. وهم يعنون بذلك البقعة الواقعة بين خطين يتجه احدهما من الاسكندرون الى الفرات، والثاني من غزة تحده صحراء جزيرة العرب شرقاً والبحر المتوسط غرباً.

النبذة الاولى

منظر سوريا

اذا القيت نظرة على خارطة سوريا تبين لك ان هـذه البلاد عبارة عن سلسلة جبال تتشعب يميناً وشمالاً الى كل ناحية . وهذا ما تتبينه من نظرك الى الارض نفسها . فانك سواء اتيتها من البحر او قابلتها من الصحارى الشاسعة ، تكشفت لك ، عن بعد سحيق آفاقٌ ، يحف بها سور غائم ممتد من الشمال الى الجنوب على مدى البصر . وكلما اقتربت منها بدت لك قمم متراكبة تراها طوراً منعزلة ، وتارة متجمعة في سلاسل تنتهي عند خط رئيسي يعلو كل ما حوله . ويسير هذا الخط دون ما انقطاع من الشمال حتى جزيرة العرب . وهو يداني البحر بين الاسكندرون والعاصي ، ثم ينفرج بمرور هذا النهر ، ولا يلبث ان يتبع مسيره جنوباً ، بعد ان ينحرف عن الشاطىء قليلا ، ويمتد قمماً متصلة الحلقات حتى منابع نهر الاردن حيث يقسم شعبتين تكتنفان هـذا النهر وبحيراته الثلاث . وفي طول مسير هذا الخط تتفرع منه شعب عديدة ، وكأنها تتفرع من جذع رئيسي . ويذهب بعضها متلاشياً في الصحراء حيث ينتهي على شكل احواض كحوض دمشق وحوران وغيرهما . ويترامى بعضها صوب البحر في منحدرات كمنحدر الكرمل والناقورة والرأس الابيض ومجمل البقعة الممتدة من بيروت حتى طرابلس ، وهي في الغالب لطيفة الانحدار عند سهول انطاكية وطرابلس وصور وعكا وغيرها .

النبذة الثانية

الجبال

تختلف الجبال شكلاً ومنظراً كلما اختلفت مستوى ومكاناً . فبين الاسكندرون والعاصي تكسوها اشجار الصنوبر والشربين والسنديان والآس والغار والسرو والريحان ، وتضفي عليها بهجة تنبسط لها اسارير المسافر المكتئب لمنظر قبرس العارية . وثمة على بعض السفوح اكواخ تحبط بها شجرات التين والكرمة . وهذا المنظر يلطف من وطأة تعبه في طريق وعرة المسالك تصعد به وتنزل باستمرار من اسفل الوادي الى اعلى الجبل ، ومن اعلى الجبل الى اسفل الوادي . اما فروع الجبال السفلى التي تتجه نحو شمال حلب فهي على العكس صخور عارية لا خضرة فيها ولا تربة ، والتلال القائمة على البحر في جنوبي انطاكية مكسوة بالزيتون والتبغ والكروم[1] . ولكن السفوح والقمم من ناحية الصحراء عبارة عن سلسلة من الصخور البيضاء . والجبال صوب لبنان مرتفعة ، ولكنها وافرة التربة في اماكن عديدة ، وهي تصلح للزرع لكثرة ما تناوبت عليه اليد العاملة . وهناك بين ركام الحصى تقوم بقايا من الارز لم يبق لها الا مسحة من الفخامة[2] . واكثر

[1] يستثنى جبل قسيوس الذي يشارف انطاكية كطود منيف . ولكن بلين Pline يجاوز حد المغالاة اذ يقول ان قمته تشرف على الفجر والاصيل في وقت معاً .

[2] لم يبق منها الا اربع ارزات او خمس تستوقف النظر .

ما تراه الصنوبر والسنديان والتوت والعليق والتين والكروم . والجبال ، فيما جاوز بلاد الدروز ، تنخفض وتصبح اكثر مؤاتاة للحراثة ، ثم تعلو في الجنوب الشرقي من الكرمل وتكتسي باحراش لا بأس بجمال مناظرها ، ثم تتعرى في اتجاه اليهودية وتضيق حول اوديتها وتصبح وعرة حتى تنتهي الى البحر الميت في اركام من الصخور الموحشة الملأى بالكهوف والمهاوي [١] . وفي غربي الاردن والبحيرة ترتفع سلسلة اخرى من الجبال اكثر وعورة وارتفاعاً ، ومرآها كئيب حيثما تلج في الصحراء عند نهاية الارض الآهلة .

يدلك النظر ان لبنان اعلى تلك القنن . فلا تكاد تغادر لارنكا في قبرص حتى تشاهد ، على بعد اربعين فرسخاً ، قمته الغائمة في الافق . ويدلك على ذلك مجرى الانهر ايضاً . فنهر العاصي المنحدر من جبال دمشق الى ما وراء انطاكية ، ونهر القاسمية المتجه من شمالي بعلبك صوب صور ، ونهر الاردن الذي يصب في الجنوب — كلها تثبت ان لبنان يشارف ما حوله . واكثر الذرى نتوءاً بعد لبنان جبل عكار . فانك تراه حالما تترك المعرة ، فيبدو كصومعة عظيمة ، لا تغيب عن نظرك مسافة يومين .

لم يتيسر لاحد حتى اليوم ان يقيس ارتفاع هذه الجبال بواسطة ميزان الهواء ، ولكن هناك مقياساً طبيعياً يجوز الاعتماد عليه ، اعني به الثلج . فهو يكسو جميع القمم شتاء من

١ — يطلق على هذه الارض اسم مغاور عين غدي التي طالما أوى اليها قطاع الطرق . ومن هذه المغاور ما يسع الفا وخمسمائة رجل .

الاسكندرون حتى القدس . ولا يحل شهر آذار حتى يذوب الا في لبنان . فهو يبقى في منعرجاته العالية بمأمن من رياح البحر ومن فعل الشمس . وقد شاهدته في اواخر شهر آب ١٧٨٤ فيما كنت اختنق من الحر في وادي بعلبك . ولما كان من المعروف ان الثلج يتطلب في هذه الدرجة من خط الاستواء ارتفاعاً يراوح بين الف وخمسمائة خطوة والف وستمائة ، تبين لنا ان لبنان يبلغ هذا الارتفاع ، وانه اذن ادنى من جبال الالب وحتى من جبال البرانس .

ان لبنان المشتمل على سلسلة كسروان وبلاد الدروز يظهر بمظهر الجبال العظيمة . ففي كل خطوة ترى تلك المشاهد التي تبسط فيها الطبيعة الحسن والعظمة حيناً ، والغرابة حيناً آخر ، والتنوع ابداً . فاذا وصلت بحراً ونزلت الى اليابسة ، شخص امامك هذا السور الشاهق ، وكأنه اطبق على الارض ، وتلك الكتل الجبارة المنطلقة في الرفيع ، وفرضت عليك الدهشة والاجلال . فاذا انتقل المراقب الى تلك القمم التي كانت تحجب نظره ، تكشفت له فلوات شاسعة تصبح مثاراً آخر لاعجابه . ولكنه لكي يستكمل متعته بجلال هذه المناظر يجب ان يستوي على ذرى لبنان نفسه او على صنين . فهناك تمتد الآفاق في كل النواحي الى ما لا حد له . واذا كان الجو صافياً تاهت الابصار في الصحراء المتاخمة خليج العجم من جهة وفي البحر الغاسل شواطىء اوروبا من جهة اخرى ، فتشعر النفس وكأنها تحتضن العالم . وتترامى النواظر على سلسلة الجبال المتعاقبة ، وتحمل الفكر بلمحة بصر من انطاكية حتى القدس ، ثم تتقرب الى محيطها القريب فتغوص في عمق

الشاطىء البعيد. واخيراً ينحصر الانتباه في اشياء مختلفة، فتتفحص الصخور والاحراش والسواقي والتلال والقرى والمدن، فتتولاك لذة خفية في ان ترى هذه الاشياء متناهية في الصغر بعد ان رأيتها متناهية في الكبر. وتنظر بارتياح الى الوادي المغمور بالسحب العاصفة، وتبتسم اذ تسمع تحت خطاك هذا الرعد الذي طالما هدر فوق رأسك، وتحب ان ترى تحت قدميك هذه الرواسي والشامخات وقد اصبحت في انخفاضها عنك شبيهة باتلام الحقول او ادراج المدارج. ويروقك ان تكون قد اصبحت اعلى نقطة بين هذا التعدد من الاشياء فتنظر اليها بارتياح اكبر.

عندما يجتاز المسافر تلك الجبال يرتعب بادىء ذي بدء من وعورة السبل وشدة انحدار السفوح وعمق المهاوي. ولكنه لا يلبث ان يطمئن الى رشاقة البغال، فيتلهى بما يمر به من مختلف المشاهد مرتاحاً. وهنا كما في جبال الالب يسير اياماً كاملة حتى يصل الى مكان هو نصب عينيه منذ ساعة انطلاقه. فيدور ويهبط ويتسلق. وتتبدل حوله المرئيات باستمرار كأن قوة سحرية تغيّر في كل خطوة تلاوين المناظر. فهي تارة قرى على اهبة الانزلاق على منحدرات هاوية ومرتبة على نظام يخيل اليك معه ان السطوح في صف من البيوت هي طريق للصف الذي يشارفها، وتارة دير على قنة منفردة، كدير مار يوحنا في وادي النمر. وهنا صخرة ثقبها التيار فاصبحت قنطرة طبيعية، على ما ترى في نهر اللبن [1].

[1] ان نهر اللبن، ويسمى ايضاً نهر بيروت، يصب في نهر الصليب. ان قياس القنطرة المذكورة هو مائة وستون قدماً طولاً على خمس وثمانين قدماً عرضاً وما يقارب المئتي قدم ارتفاعاً فوق الساقية.

وهناك صخرة منحوتة شاهقة كأنها السور العظيم . وكثيراً ما تشاهد على التلال ركاماً من الحجارة عرّتها المياه وعزلتها ، فاصبحت وكأنها اخربة ساهم الفن في تنضيدها . وترى في اماكن عديدة ان المياه اذ تمر في طبقة منحنية قد احتفرت الارض وكونت المَغُر كما حدث في نهر الكلب على مقربة من عينطورا . وقد فتحت لها في اماكن اخرى خلجاناً تحت ارضية . وهذا ما يشاهد في مار الياس الروم وفي مار يوحنا[1] . وقد حدث في بعض الاحيان ان هذه العوارض الطبيعية قد كانت سبباً في نزول الفجائع اذ تتهيّر الارض وتنحدر الصخور على المنازل المجاورة وتقتل اهليها على ما حدث منذ عشرين سنة لقرية كانت تقوم بالقرب من مار جرجس وزالت معالمها تماماً . ومن عهد قريب حدث في جوار المكان نفسه ان زحلت ربوة فيها التوت والكروم وانطلقت كسفينة تُرسل في البحر ، حتى استقرت قطعة كاملة في اسفل الوادي . فنتجت عن ذلك قضية حقوقية غريبة بين صاحبي القطعتين رفعت الى محكمة الامير يوسف ، فقضى بالتعويض عن الخسائر . وقد يلوح لك ان هذه الحوادث تبعث

[1] ان هذه الجداول تحت الارض كثيرة في سوريا ، فمنها ما هو عند منابع العاصي والاردن . والذي تراه قرب دير مار يوحنا ذو فوهة تسمى البالوعة ، وهي ثغرة عرضها عشر اقدام تقريباً واقعة في منخفض على شكل قمع تنزل في العمق حتى خمس عشرة قدماً وفي جانب اسفلها هوة كثيرة العمق . وقد ردمها الاهلون منذ سنوات لان جثة القيت فيها اخفاءً لجناية، وجاء الشتاء واستجمعت المياه فكونت بحيرة عميقة ، ثم تسربت بين الحصى فجرفت طينها الرابط بينها، وما لبث المياه ان تفجرت بدوي شبيه بقصف الرعد وترامت بفعل ضغط الهواء الى مسافة مئتي متر واقتلعت ما في طريقها من الاشجار .

على التهرب من سكنى الجبال ، ولكنها في الحق حوادث نادرة فضلا عن ان الاقامة في الجبال افضل من الاستمتاع في اخصب السهول ، لان المرء فيها يأمن من ارهاق الاتراك . وهذا الامن الذي يعده الاهلون من اثمن الهبات جعلهم يبذلون من الكد والعمل في صخورهم ما تحاول عبثاً ان تجده عند غيرهم . فقد اكرهوا هذه الارض الصخرية على الخصب بفضل ما ابدوه من فن وعناية . فاذا شاؤوا الافادة من المياه استجروها على السفوح في الف منعرج ، او اقاموا دونها السدود في الاودية . واذا اوشكت الاتربة على الانهيار سندوها بالجدر والاسوار حتى ان الجبال لتبدو لك وكأنها ادراج مسرح متراكبة ، تنتظم فيها اشجار التوت والكرمة صفوفاً قد تبلغ من اسفل الوادي الى قمة الربوة مئة او مئة وعشرين صفاً .

النبذة الثالثة

طبيعة الجبال

اذا بحثت في كيان هذه الجبال وجدت انها من الصخور الكلسية الصلبة الضاربة الى البياض ، وهي رنانة كالصلصال . وهذا النوع من الحجر هو نفسه في مجمل انحاء سوريا ، فهو تارة اجرد يشبه منظره منظر الصخور القائمة على شواطىء بروفنسيا ، على ما ترى في السلسلة المحاذية للطريق الواصل بين انطاكية وحلب ، تلك السلسلة التي تحتضن جدول هذه المدينة عند مجراه الاعلى .

ولقرية ارمناز الواقعة بين سرخين وقفطين مضيق يشبه غام

المشابهة المضايق التي تمر بها بين مرسيليا وطولون . فاذا سرت من حلب الى حماه رأيت عروق الصخر نفسه ممتدة في السهل ، فيما ترى على الجبال القائمة عن يمينه ركاماً منه يمثل اخربة عظيمة من المدائن والقصور . وهذا هو نوع الصخر الذي تتركب منه انضاد لبنان وانتيلبنان وجبل الدروز والجليل والكرمل ، ويمتد حتى جنوبي البحر الميت . فالسكان في جميع هذه الامكنة يشيدون منه المباني ويستخرجون الكلس . ولم ارَ او اسمع قط ان تلك الحجارة تحتوي على اصداف متحجرة في اعالي لبنان . بيد ان بين البترون وجبيل مقلعاً من الصفائح تحمل شفراتها رسوم النباتات والاسماك والاصداف والعنصل البحري بنوع خاص . ومسيل عسقلان في فلسطين يجري على حجر خشن مالح ذي مسام ، يحتوي على اصداف من المتوسط عثر بوكوك على امثالها في الصخور المحيطة بالبحر الميت .

ولا يكثر من المعادن فيها الا الحديد ، فجبال كسروان والدروز ملأى به . ويستخرجه السكان في الصيف . الا انه يمتزج بالتراب . ويبدو ان في الجليل مثل تلك المعادن ، لان موسى قد وجد فيه منذ ثلاثة آلاف سنة بعض حجارة من حديد . ويتحدث الناس حديثاً مبهماً عن منجم للنحاس قرب حلب . وقد ذكر لي الدروز انه على اثر انهيار ذلك الجبل الذي المعت اليه قد عثر على معدن ظهر انه من الفضة والرصاص ، ولكن الناس سرعان ما اخفوا معالم هذا الاكتشاف الذي كان من شأنه ان يحول اليهم نظر الاتراك .

النبذة الرابعة

البراكين والزلازل

ان جنوبي سوريا – حوض الاردن – بقعة بركانية . فينابيع بحر لوط الكبريتية ، والحجارة الاسفنجية الملقاة على شواطئه ، وحمامات طبريا الحارة انما تدل على ان هذا الوادي كان مقراً لنيران لم تطفأ حتى اليوم . وكثيراً ما تتصاعد من البحيرة السنة من الدخان ، وتتفلع الارض على جوانبها . ولو لم تكن الافتراضات في مثل هذا الموضوع عرضة للابهام لصح الظن ان جميع هذا الوادي قد تكوّن من انخساف الارض التي كانت تصب الاردن في المتوسط . ومن الثابت على الاقل ان المدن الخمس التي دمرتها النار قد خربت بفعل بركان ثائر . يقول استرابون صراحة : « ان التقليد السائر بين السكان (اي اليهود) يشير الى ان هذا الوادي كانت تقوم فيه ثلاث عشرة مدينة زاهرة غمرتها نيران بركان . » يعزز هذه الرواية ما يراه المسافر من انقاض على شاطىء البحيرة الغربي . ان ثورة البراكين قد خمدت منذ امد بعيد . بيد ان الزلازل ما برحت تهز هذه المقاطعة من وقت الى آخر . والشواطىء معرضة لها بوجه عام على ما يدل التاريخ . والامثلة جاءت متعددة في انطاكية واللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وغيرها . وحدث في السنة ١٧٥٩ زلزال عظيم انزل الخراب والدمار في البلاد . ويزعمون ان وادي بعلبك مني بخسارة عشرين الف نسمة . وتعاقبت الهزات خلال

ثلاثة اشهر فقلق اهل لبنان واضطربوا وهجروا المنازل مستعيضين عنها بخيام نصبوها في الهواء الطلق . وفي اليوم الرابع عشر من شهر كانون الاول ١٧٨٣ ، فيما كنتُ في حلب ، حصل زلزال بلغ من الشدة مبلغاً عظيماً ، حتى قرع الجرس المعلق فوق بيت القنصل الفرنسي . ويلاحظون في سوريا ان الزلازل اكثر ما تحصل في الشتاء على اثر امطار الخريف . وهذه الملاحظة التي تؤيد ما عاينه الدكتور « شا Shaw » في بلاد المغرب تدل على ان فعل المياه في الارض الجافة يساهم في حركات الارتجاج هذه .

النبذة الخامسة

الجراد

تشترك سوريا ومصر والعجم ومعظم آسيا الجنوبية بآفة لا تقل هولاً عن الزلازل ، عنيت بها ارجال الجراد التي تحدّث عنها الرحالون . ان مقادير هذه الحشرات لا يصدق امرها إلا من شاهدها بنفسه عياناً . فهي تغطي الارض على مدى عدة فراسخ . ويسمع لها ، من بعيد اذ ترمّ العشب والشجر ، حفيفٌ يذكرك بجيش يعمل النهب في الخفاء . فخير للقوم مجابهة التتر من مكابدة هذه الحيوانات الهدامة التي تزحف وكأن النار في اعقابها . وحيثما تحل كتائبها تمحي الخضرة من الحقول كستار يطوى . فتعرى الاشجار والاغراس من اوراقها ، وتصبح اغصاناً جرداء وجذوعاً . وبلمحة بصر تزول مشاهد الربيع الغنية ليعقبها منظر الشتاء المسيخ . وعندما تنطلق هذه الارجال طائرة لكي تجاوز عقبة من العقبات او تسرع في اجتياز مكان جديب ، يمكن القول حرفياً ان السماء

قد اظلمت . ومن حسن الطالع ان هذه الآفة لا يتكرر نزولها كثيراً ، اذ ليس من نازلة مثلها في احلال المجاعة الاكيدة وما يلحقها من اوبئة . ويلاحظ سكان سوريا بحق ان الجراد لا يُقبل على البلاد إلا بعد فصول الشتاء الكثيرة الاعتدال ، وانه يقبل دائماً من بادية جزيرة العرب . وتفسر لنا هذه الملاحظة كيف يبقي البرد المعتدل على بيوض هذه الحشرات فتنمو بسرعة ، وكيف تضمحل الاعشاب في تلك السهول الشاسعة ، فترحل عنها اوجال الجراد الهائلة .

عندما يظهر الجراد على حدود البلاد المزروعة يجتهد السكان بتحويله عنها بدفعات كثيفة من الدخان . فاذا ما اعوزهم الحشيش اليابس والتبن ، احتفروا الخنادق ودفنوا فيها عدداً عديداً من الجراد . بيد ان اجدى العوامل ضد هذه الحشرات انما هو الريح الجنوبية من جهة والطائر المسمى بالسمرمر من جهة ثانية . فهذا الطائر الشبيه بالصُفارية تتجمع منه اسراب كالزرازير وتلاحق الجراد فتلتهم منه قسماً وتقتل ما تستطيع قتله . والفلاحون يضنون بهذا الطائر فلا يسمحون قط باصطياده . اما الرياح الجنوبية والجنوبية الشرقية فانها تطرد غيوم الجراد بشدة صوب البحر المتوسط ، فتغرق منه مقادير هائلة . فاذا ما دفعت هيا كلها على الشاطىء انتنت وافسدت الهواء بضعة ايام على مسافة بعيدة .

ومن المعلوم ان طبيعة الارض في هذه الاصقاع السورية المترامية الاطراف تختلف باختلاف الامكنة : فالارض الجبلية وعرة ، في حين ان تربة السهول مريعة وافرة الخصب . وهي بين حلب وانطاكية كالآجرّ المسحون الدقيق ، او كأنها تبغ اسبانيا . على ان مياه

العاصي التي تجتاز هذه المنطقة مصبوغة بلون ابيض بسبب الاتربة البيضاء التي تنقلها من جوار منابعها . وتكاد تكون سائر الارض في غير هـــذه الامكنة سمراء تشبه مزيجاً من التراب والسماد . ويندر وجود الحصى في سهول حوران وغزة وبعلبك . فاذا ما حل فصل الشتاء توحلت الارض حتى اغوارها ، فـــاذا رجع الصيف تشققت صدوعاً واسعة عميقة .

النبذة السادسة

الانهر والبحيرات

لقد عودتنا المغالاة في التصوّر ، واذا شئت ، فالصور المضخمة التي يسم بها التاريخ والروايات الاشياء النائية ، ان نتكلم عن مياه سوريا باجلال يفتن المخيلة . فيلذ لنا ان نقول نهر الاردن ونهر العاصي ونهر ادونيس . بيد اننا لو شئنا ان نحفظ للاسماء معناها المعتاد لما وجدنا في هذه البلاد غير الجداول . فان العاصي والاردن ، وهما اعظم مجاري تلك النواحي ، لا تجاوز سعة مصبها ستين قدماً [1] . وما سواهما من المسايل لا يستحق الذكر ، لانها اذا تضخمت قليلاً في الشتاء بفعل ذوبان الثلوج ، فانت لا تتبيّن امكنتها في سائر ايام السنة لولا الحصى المستديرة والكتل الصخرية التي تملأ مجاريها . وان هي إلا سواقي ذات شلالات تنبع من جبال هي على قيد خطى قليلة من البحر بحيث لا يتيسر لامواهها الوقت للاستجماع في اودية طويلة لتتحول فيها الى انهر . وتشخص هذه الجبال نفسها حوائل دون نفاذ المياه في اماكن عديدة فتتكوّن البحيرات ، ومنها بحيرات انطاكية وحلب ودمشق والحولة وطبرية والبحيرة المسماة بالبحر الميت او البحيرة الاسفلتية . ومياه تلك البحيرات ، باستثناء الاخيرة ، مياه عذبة تحتوي اسماكاً تختلف اجناسها عما نعرفه [2] .

١ صحيح ان الاردن عميق ، ولولا ما يعترض العاصي من الحواجز المدبدة ، لبقي جافاً طوال الصيف .

٢ يكثر في بحيرة انطاكية الانكليس وضرب من السمك الاحمر رديء

وتنفرد البحيرة الاسفلتية في انها لا تحتوي اي حي او نابت . فلا ترى خضرة على ضفافها او سمكاً في مياهها . وزعموا خطأً ان جوها فاسد حتى ان الطيور التي تجتازه معرضة للهلاك . فلا يندر ان ترى السنونو ترف وجه مائها لتأخذ منه القطرات اللازمة لبناء اعشاشها . امـا السبب الحقيقي في انعدام الحيوان والنبات فهو تلك الملوحة الحادة في مياهها ، وهي اشد حرافة من مياه البحر بمقدار عظيم . والارض المحيطة بها مشربة بتلك الملوحة ايضاً ، وتمتنع على الاغراس . والهواء مثقل منها بالتبخر فضلاً عما يتلقاه من الجرة الكبريت والحُمر مما يجعله غير مؤاتٍ لنمو النبات . وهذا ما يجعل المنظر مَواتاً حول البحيرة ، والميـاه صافية وغير قابلة للفساد بسبب ملوحتها . ومنبت هذا الملح لا لبس فيه ولا غموض ، لان في الشاطىء الجنوبي الغربي مناجم من الملح المعدني حملتُ منه بعض القطع . وموقع تلك المناجم في سفح الجبال التي تشارف هذه الجهة . ويستثمرها عرب تلك النواحي منـذ اقدم العصور . كذلك سكان القدس . وعلى تلك الضفاف ايضاً قطع من القير والكبريت يتّجر بها العربان . وثمّة ينابيع حارة وصدوع عميقة تدلك عليها عن بعد اهرامٌ صغيرة بنيت على جنباتها . وتعثر هناك على نوع من الحجر تنبعث منه بالاحتكاك رائحة كريهة ، وهـو يلتهب كالقير ويُصقل كالرخام الابيض ، ويستعمل لتبليط الساحات . وانك تجد اخيراً كتلاً مشوهة يتراءى لك انها تماثيل محطومة ، ويحسب الحجاج الجهلة الموسوسون انها اثر من حادثـة

الجنس ، وبحيرة طبرية اغنى منها بالاسماك وبالسراطين بنوع خاص .

امرأة لوط، في حين انه لم يقل ان هذه المرأة قد تحولت الى حجر كما حدث لنيوبا [1]، بل الى ملح قد اضمحلّ ولا شك بالذوبان في الشتاء التالي.

وقد حار بعض علماء الطبيعيات في مآل المياه التي يصبها الاردن باستمرار في البحيرة، حتى ذهبوا الى الافتراض بان ثمة نفقاً تحت الارض ينفذ بها الى البحر المتوسط، ولكنه فضلاً عن فقدان الدليل على وجود هذا النفق، فقد أثبت «هالس» Hales بالحسابات الدقيقة ان التبخّر يستنفد مياه النهر. وهذا التبخّر يكثف حتى تراه بالعين المجردة، اذ يتراكم الضباب عند بزوغ الشمس فوق البحيرة، ثم لا يلبث ان ينقشع عنها بفعل الحرارة.

النبذة السابعة

المناخ

يسود الاعتقاد ان سوريا بلاد شديدة الحر. على ان هذا القول يقتضي شيئاً من الايضاح، اذ تختلف درجات الحرارة من قصوى الى دنيا على مسافة مئة وخمسين فرسخاً عن خط الاستواء عرضاً. وثمة اعتبار آخر ناشىء عن طبيعة الارض، فهي إما واطئة مسطحة، او مرتفعة جبلية. وتقسيمها على هذا الوجه يحدث فروقاً محسوسة، لان ميزان ريومور Réaumur يبلغ على الساحل ٢٥ او ٢٦ درجة، فيما لا يجاوز في الجبال ٢٠ او ٢١ درجة [2]. كذلك يكسو

١ امراة اسطورية تحولت الى حجر. — المعرب.

٢ ادنى درجات ميزان الحرارة شتاء على ساحل سوريا وفي طرابلس خاصة تسع او ثمان فوق الجليد. وترتفع صيفاً حتى ٢٥ درجة او ٢٦ في الغرف المحكمة الاقفال.

الثلج سلسلة الجبال شتاءً ، في حين ان الاراضي الوسطى لا تعرفه قط ، واذا عرفته فلحين قصير .

فهناك والحالة هذه مناخان : احدهما شديد الحرارة في الساحل والسهول الداخليــة كبعلبك وانطاكيــة وطرابلس وعكا وغزة وحوران الخ ... والآخر معتدل يكاد يشبه المناخ عندنا ، وهو يسود الجبال ، خصوصاً متى بلغت بعض الارتفاع . ان صيف سنة ١٧٨٤ قد اعتبره الدروز احرّ ما عرفوا منذ عهد بعيد . على اني لم اجد فيه وجهاً للمقابلة بقيظ صيدا وبيروت .

تتعاقب الفصول في هذا المناخ مثل تعاقبها في اواسط فرنسا . فالشتاء يستمرّ من تشرين الثاني الى اذار ، وهو شديد قارس . فلا تنقضي سنة بلا ثلج . وكثيراً مـا يغطي الارض شهوراً كاملة ويعلو اقداماً عديدة . والربيع لطيف كالخريف ، وليس في الصيف ما يفوق الاحتمال .

ويحصل العكس في السهول ، اذ حالما تعود الشمس الى خط الاستواء يصبح القيظ مرهقاً ويستمر حتى عيد جميع القديسين . والشتاء ، مقابل ذلك ، هو من الاعتدال بحيث ان البرتقـــال والنخيل والموز وغيرها من الاغراس اللطيفة لا تبرح على نمائها في الارض . وانه لمنظر شائق يستمتع به الاوروبي اذ يرى ، تحت نافذته في طرابلس خلال شهر كانون الثاني ، اشجار البرتقال مثقلة بالزهر والثمر ، فيما يكون الثلج والصقيع فوق رأسه على ذرى لبنان . على انه من الجدير بالملاحظة ان الشتاء في النواحي الشمالية

اما ميزان الهواء فمن الغريب انه يستقر عند الثامنة والعشرين قيراطاً في الايام الاخيرة من ايار ، ولا يتحول عنها حتى شهر تشرين الاول .

وفي شرقي الجبال اشد صقيعاً دون ان يكون الصيف اخف قيظاً . فلا يمر شتاء في انطاكية وحلب ودمشق الا والجليد والثلج على الارض بضعة اسابيع . وهذا امر مردّه الى زحول الارض اكثر منه الى نسبة مواقعها من خط الاستواء . فالسهل المنبسط شرقي الجبال بقعة شديدة الارتفاع عن مستوى البحر ، منفتحة للرياح الجافة الهابّة من الشمال والشمال الشرقي ، ومحجوبة عن الرياح الغربية والجنوبية الغربية الرطبة . اما انطاكية وحلب المقابلتان لجبال الاسكندرون فهما تتلقيان هواءً لاذعاً من ثلوجها .

ان سوريا ، وهذا هيكلها ، تجمع تحت السماء الواحدة مناخات مختلفة ، وتحشد في إطار ضيّق من ضروب الاستمتاع ما وزعته الطبيعة ، في اي مكان آخر ، على مسافات بعيدة من الازمنة والامكنة . فهي عندنا ، مثلاً ، قد فصلت الفصول بالاشهر ، في حين يصح القول انها هنا منفصلة بالساعات . هل ضايقتك في صيدا او طرابلس حرارة تموز ؟ ان مسير ست ساعات ينقلك الى طقس اذار في الجبال المجاورة . وهل ، على العكس ، تألمت من صقيع كانون في بشراي ؟ حسبك نهاراً واحداً لتعود الى الساحل بين زهور ايار [١] . فقد جاء في قول شعراء العرب ان صنين يحمل الشتاء على رأسه ، والربيع على كتفيه ، والخريف في صدره ، فيما يرقد الصيف عند اقدامه .

لقد خبرت بنفسي حقيقة هذا المجاز طوال ثمانية اشهر قضيتها

١ ان العديد من سكان هذه المنطقة يقضون الشتاء في جوار طرابلس، فيما تكون منازلهم دفينة في الثلوج .

في دير مار يوحنا [1] على سبعة فراسخ من بيروت . فقد غادرت طرابلس في اواخر شباط والبقول في ملء نمائها ، والزهور في تفتحها . وبلغت عينطورا [2] ، فاذا الاعشاب في بدء نبتها . اما في مار يوحنا فكان كل شيء في غمرة الثلج ، ذلك الثلج الذي لم يتعرَّ منه صنين قبل آخر نيسان اذ تفتقت براعم الورد في واديه . وكانت بواكير التين قد انقطعت عن بيروت عندما كنا نأكل ثمراته الاولى ، ودود القز فيها اصبح فيالج حين لم يكن الناس بيننا قد ورّقوا نصف شجر التوت .

الى هذه الميزة الاولى التي تؤبّد الملاذّ بتعاقبها ، تضاف ميزة اخرى تتضاعف معها تلك الملاذ بتنوّع المحاصيل . فلو أعان الفن الطبيعة لأمكن ان تنحصر في مسافة عشرين فرسخاً محاصيل اكثر النواحي تباعداً . ففي الحالة الراهنة ، وعلى رغم همجية الحكومة التي تناهض كل نشاط وكل صناعة ، يدهشك ما تراه من تعدّد المنتجات في هذه الولاية . فانه فضلاً عن انواع الحنطة والشعير والفول والقطن التي تزرع في كل مكان ، توجد عدة اصناف اخرى مفيدة او لذيذة الطعم ، وهي تختص بامكنة مختلفة . فالسمسم الذي يستحلب منه الزيت ، والذرة [3] الشبيهة بذرة مصر يكثران في فلسطين [4] ، والذرة الصفراء تتوافر في ارض بعلبك ،

١ مار يوحنا الشوير قائم قرب القرية . يقع هذا الدير في واد مصخر ينصب مسيله في نهر الكلب . رهبانه ملكيون كاثوليك من رهبانية القديس باسيليوس . وسأستوفي الكلام عنهم فيما يلي .

٢ معهد كان قبلا لليسوعيين ويشغله الآن العازريون .

٣ ضرب من الحبوب يشبه العدس تقوم اغراسه على ساق من قصب .

٤ لم ار قط الحنطة السوداء في سوريا . والشوفان فيها قليل . اما الحبول فعلفها

والارز يخصب في بطاح الحولة . ولم ينتبه الناس الى زراعة قصب السكر الا في الاونة الاخيرة . فقد نما في بساتين صيدا وبيروت نموه في حدائق الدلتا . وينمو العظلم على ضفاف الاردن في بلاد بيسان ، ولكنه يحتاج الى العناية . وتنتج اللاذقية اصناف التبغ الذي يصدر الى دمياط والقاهرة . وزراعة التبغ منتشرة في الجبال كافة . والزيتون ينمو في انطاكية والرملة ويرتفع ارتفاع شجر الزان . والتوت ثروة بلاد الدروز بما ينتجه من الحرير الجميل . والكرمة تعطي خمرة بالامكان ان تعادل خمور بوردو . وفي يافا الليمون والبطيخ . وهذا الاخير يفضل مثله في برولس . وفي غزة التمر والرمان . وفي طرابلس البرتقال . وفي بيروت التين والموز . وتختص حلب بالفستق . وفي دمشق جميع اثمار نواحينا . فتربتها تصلح لتفاح نورمنديا ، وخوخ لاتورين ، ودراق باريس . وفيها من المشمش عشرون نوعاً ، واللوزي منه يرغبه الناس في كل تركيا . وهناك شجر القرمز الذي يكثر في السواحل . ولعله يحمل هذه الحشرة الثمينة كما في المكسيك وسان دومينكز [1] . واذا لاحظنا ان جبال اليمن المكسوة بشجيرات البن الفاخر انما هي تتمة لجبال سوريا ، وان التربة والحرارة في كلا البلدين تكادان

الشعير والتبن .

[1] لقد ساد الاعتقاد زمناً طويلا ان دودة القرمز خاصة بالمكسيك فحسب . وهذا ما جعل الاسبان يضنون بملكيتها محظرين تصديرها حية تحت طائل عقوبة الاعدام . على ان المسيو تياري Thierri توصل الى نقلها سنة ١٧٧١ الى سان دومينكز . ولكنه تبين ان صبار هذه الجزيرة كان يحتوي الحشرة المذكورة قبل وصوله . وهذا دليل على ان الطبيعة لا تفصل الحشرات عن الاغراس المخصوصة بها .

تتعادلان [1] ، امكننا القول ان اليهودية بنوع خاص تصلح لانتاج هذا المحصول الخاص بجزيرة العرب . فلا عجب اذن ان تكون سوريا مع ما فيها من حسنات الارض والمناخ بلد الرغد على مر الازمنة ، وان يكون الرومانيون واليونانيون قد احلوها في مصاف اجمل ولاياتهم حتى انها عادلت مصر في نظرهم . وقد سئل احد الباشاوات الذي يعرف البلدين عن ايهما المفضل عنده ، فقال : لا شك ان مصر مزرعة ممتازة ، ولكن سوريا مصيف ساحر [2].

١ الارض في اليمن وتهامة كثيرة الشبه بارض سوريا ، على ما لاحظه نيبوهر . راجع رحلته الى جزيرة العرب .

٢ ان في سوريا جميع حيواناتنا الداجنة . وفيها فضلا عن ذلك الجاموس والجمل ، ومنفعتها عظيمة . وتجد في سهولها الغزلان ، وفي الجبال والغياض خنازير برية اصغر قواماً واقل شراسة من خنازيرنا . ولا وجود فيها للظباء والايائل . وقلما عثرت على الذئب والثعلب الحقيقي . وثمة عدد عجيب من فصيلة ابن آوى (يسمونه في سوريا « واوي » تمثلا بعوائه ، ويطلقون عليه في مصر اسم « ديب »). تجتمع بنات آوى اسرابا في ضواحي المدن حيث تقتات بجيفها . وهي لا تعتدي على احد ، والهرب وسيلتها الوحيدة للدفاع عن النفس . وتتنادى كل مساء باصوات مزعجة مشؤمة . وقد يستمر عواؤها ربع ساعة احيانا . وهناك في الاماكن المنعزلة ، الضباع والنموس التي ينعتونها خطأ بالنمورة.واخص المناطق التي تأوي اليها هذه الوحوش لبنان وبلاد الدروز ونابلس وجبل الكرمل وضواحي الاسكندرون . وليس في تلك البلاد اسود او دببة . والطرائد المائية كثيرة . اما الطرائد البرية فتكثر او تقل بحسب الاقاليم ، واهمها الارنب البري والحجل الاحمر . والارنب نادر الوجود . وفي ارض صيدا نوع من الطير يسمى ابو الذباب colibri . ان السيد ادنسون Adanson الذي كان ترجمانا في هذه المدينة اهدى الى شقيقه عضو الاكاديمية واحداً منها . وهذا الطائر مع البجع هو الوحيد الذي يلفت النظر في سوريا .

النبذة الثامنة

خصائص الهواء

لا يجوز ان يفوتني التحدث عن خصائص الهواء والمياه ، تلك العناصر التي لها في سوريا اعراض جديرة بالنظر . ففي الجبال والسهول المرتفعة الممتدة شرقيها تحسّ الهواء خفيفاً صافياً جافاً، وهو، بالعكس على الساحل، رطب ثقيل ، خصوصاً بين الاسكندرون ويافا . وهذا ما يجعل سوريا ، في مدى طولها منقسمة منطقتين مختلفتين تفصل بينهما سلسلة جبال هي في الوقت نفسه سبب هذا الاختلاف ، لانها بارتفاعها تقف حائلاً دون الرياح الغربية وتسبب هذا الركام من الابخرة الصاعدة من البحر والمتجمعة في الاودية . وبما ان الهواء لا يكون خفيفاً إلا بمقدار نقائه ، فهو لا يستطيع تسلق هذا السور حتى قمته وتخطّيه إلا بعد تخلصه من كل ثقل غريب . وينتج عن ذلك ان هواء الصحراء والجبال يوائم الصدور المتينة ، فيما هو خطر على الصدور الواهية . والاوروبيون المهددون بداء الصدر يرسلون من حلب الى اللاذقية او صيدا . ولكن هذه الحسنة في هواء الساحل يقابلها سيئات، منها انه يسبب الحميات ونزلات العيون التي المعت اليها في معرض حديثي عن الدلتا . فالندى الليلي والنوم على السطوح يؤديان الى حوادث مَرَضية تقلّ بمقدار ما يبتعد المرء عن البحر الى الجبال . وهذا ما يؤيد قولي السابق بهذا الصدد .

النبذة التاسعة

خصائص المياه

وللمياه وجه اختلاف آخر . فمياه الينابيع في الجبال عذبة سيّغة ، ولكنها في السهل ، شرقاً وغرباً ، أجاج حيثما تفتقر الامكنة الى ينابيع . وهي رديئة كلما توغلت في البادية . وهذا ما يجعل الامطار ثمينة في نظر سكان الحدود ، فيختزنونها في آبار وركايا محكمة الاقفال . والبئر اول شيء يبدو لناظرك بين الخرائب الداثرة .

ان حالة السماء في سوريا ، وبالاخص في الساحل والصحراء ، اكثر ثباتاً وانتظاماً مما هي عليه في مناخاتنا ، اذ قلما تُحجب الشمس يومين متواليين . وتندر الغيوم صيفاً ، وكذلك الامطار فهي لا تسقط قبل اواخر تشرين الاول ، ولا تكون عندئذ طويلة الامد او غزيرة الهطول . وهذه الامطار يرغبها الفلاحون ليبذروا في الارض ما يسمونه غلة الشتاء وهي الحنطة والشعير ، ثم تغزر وتكثر في شهري كانون الاول والثاني ، وكثيراً ما تستحيل ثلجاً في الاماكن المرتفعة . امــا في شهري اذار ونيسان فتهطل بعض الامطار وهي تؤاتي زروع الصيف كالسمسم والذرة والتبغ والقطن والفـول والبطيخ . والطقس في سائر ايام السنة متساو يشكو فيه الناس الجفاف اكثر من الرطوبة .

النبذة العاشرة

في الرياح

تسير الرياح ، شأنها في مصر ، سيراً دورياً ذا علاقة بكل فصل من الفصول . فتبدأ الرياح الشمالية الغربية بالهبوب حوالى الاعتدال الخريفي . فيصبح الهواء جافاً صافياً ولاذعاً . ومن الجدير بالنظر ان هذه الرياح تحدث الصداع في الساحل كما تحدثه في مصر الريح الشمالية الشرقية . ويحصل ذلك في القسم الشمالى من البلاد اكثر من حصوله في قسمها الجنوبي . وهو لا يحصل قط في الجبال . ويلاحظ ايضاً ان هذه الرياح تستمر ثلاثة ايام متوالية على غرار الريح الجنوبية والجنوبية الشرقية في ابان الاعتدال الآخر . وهي تستمر حتى تشرين الثاني اي ما يقارب خمسين يوماً تتعاقب خلالها على الهبوب مع الريح الشرقية بنوع خاص . وتعقبها الرياح الشمالية الغربية والغربية ، ثم الجنوبية الغربية بين تشرين الثاني وشباط . ويقول العرب ان هذين الشهرين « فحول الشتاء » . وفي شهر آذار تظهر الرياح الجنوبية المؤذية بنفس الاحوال التي تظهر فيها في مصر . وتخف وتلطف كلما تقدمت نحو الشمال . وهي اكثر احتمالاً في الجبال منها في السهول . وتستمر عادة اربعاً وعشرين ساعة او ثلاثة ايام . اما الريح الشرقية التي تحل محلها فهي تستمر حتى شهر حزيران حيث تهب الريح الشمالية التي تؤاتي انطلاق الاشرعة على الساحل ذهاباً واياباً . ويحدث في هذا الفصل ان الريح تدور كل يوم دورة الآفاق وترافق الشمس في مسيرها من الشرق الى الجنوب ومن الجنوب

الى الغرب لنعود الى سابق دورتها ذهاباً من الشمال . وتتسلط على الساحل ليلاً ريح مكانية تسمى ريح البر . فهي لا تهب الا بعد مغيب الشمس ، وتستمر حتى شروقها ، ولا تمتد الى اكثر من فرسخين او ثلاثة في البحر .

ان اسباب هذه العوارض من القضايا المثيرة للاهتمام التي تتعلق بالفيزياء . وهي تستحق ان تبحث حلولها . وما من بلد كسوريا في مؤاتاة طبيعتها لمثل هذه الملاحظات . فكأن هذه الطبيعة قد هيأت فيها جميع الوسائل لدرس اعراضها .

اما عندنا نحن فيندر ان يتسنى لنا متابعة التبدلات العظيمة التي تطرأ على الهواء ، بسبب مناخاتنا الضبابية حيث تغتمرنا القارات الواسعة . فالافق الضيق الذي يحجب ابصارنا انما يحجب فكرنا في الوقت نفسه . فلا يتكشف امامنا إلا مشهد قصير المدى بحيث ان العوارض الحادثة فيه لا تبدو إلا وهي مشوّهة باحوال متعددة .

اما هنا فثمة مشهد واسع الجنبات ينفتح امام النواظر . فتظهر فيه العوامل الطبيعية الكبرى متقاربة في مجال يكون فيه تفاعلها قريب المتناول .

ففي المغرب ينبسط سهل المتوسط المائع الفسيح . وفي المشرق سهل البادية الذي يضاهي الاول باتساعه ويختلف عنه بجفافه . وبين هذين المسطحين ترتفع الجبال التي تبدو ذراها وكأنها مراصد تنطلق منها النواظر الى ثلاثين فرسخاً . فبامكان اربعة رُصّاد ان تحتضن ابصارهم جميع سوريا في مدى طولها ، بحيث انهم يستطيعون من قمم قسيوس ولبنان وتابور ان يطلقوا النظر الى

افق متماد غير متناهي ، ويلاحظوا كيف ان ناحية البحر الصافية الاديم ، اولاً ، تستجمع فيها الابخرة تتوزع شيئاً فشيئاً ، ثم تتسلق الجبال وتعلوها ، وكيف ان ناحية الصحراء ، وهي شفافة ابداً ، لا تولّد الغيوم قط ، ولا تحمل منها إلا ما تقبله من البحر .

ويصبح بامكانهم عندئذ ان يجيبوا على سؤال ميخائيليس [1] « هل ان الصحراء تولد الندى » ، بان الصحراء ، اذ كانت لا تحتوي على الماء إلا بعد امطار الشتاء ، فهي لا تستطيع توليد الابخرة في غير ذلك الفصل .

واذا ما سرحوا الطرف في وادي بعلبك اللاهب من القيظ ، فيما يلتمع بياض الجليد والثلج في ذرى لبنان ، تجلّت لهم حقيقة تلك القواعد الثابتة ، وهي ان الحرارة تتزايد بمقدار القرب من مخطط الارض ، وتتناقص بمقدار البعد عنها ، بحيث يلوح انها ليست سوى نتيجة فعل الاشعة الشمسية في الارض .

ويكون في مقدورهم اخيراً ان يقوموا بمحاولات ناجحة لحل معظم القضايا المتعلقة بفيزياء الكرة الفلكية .

[1] راجع اسئلة ميخائيليس التي عرضها على رحالي ملك الدنمارك .

الفصل الحادى والعشرون

نظرة في عوارض الرياح والغيوم والامطار والضباب والصواعق

الى ان يباشر هذا العمل مَنْ يتبسط بتفاصيله سأتعرض بالمجاز لبعض الفكر التي ولدها فيّ منظر الاشياء .

لقد تحدثت عن علاقات الرياح بالفصول ، وأشرت الى ان الشمس ، بتوافق سيرها السنوي مع العوارض الناشئة عن هذه وتلك ، تبدو وكأنها العامل الرئيسي في هذه العوارض ، وكأن فعلها في الهواء الذي يغطي الارض انما هو السبب الاول في ما يدور فوق رؤوسنا من الحركات العظيمة .

فيجدر بنا ، لكي نتفهم نظامها بجلاء ، ان نستعرض سلسلة الافكار من مبدئها ، ونتبصر خصائص عنصرها العامل .

اولاً : من المعروف ان الهواء سائل متعادل الاجزاء متحركها ، وهي تنزع دائماً ، كالماء ، الى المستوى الواحد ، بحيث لو ادخلنا الهواء الى غرفة مساحتها ست اقدام مثلاً ، في كل الجهات ، لملأها بالتساوي .

ثانياً : ومن خصائص الهواء التمدد او الانقباض ، اي انه يشغل مدى اوسع او اضيق بكمية منه واحدة .

ففي مثل الغرفة المفترضة ، اذا افرغنا ثلثي كمية الهواء التي

تحتويها ، انتشر الثلث الباقي مكانهما وملأها في كامل سعتها . واذا نحن ، بدلاً من ان نفرغ الهواء ، اضفنا اليه ضعفاً او اضعافاً وَسِعَتْه الغرفة ايضاً ، وهذا ما لا يحدث للماء .

ان النار تزيد خاصة التمدد فعالية ، بحيث ان الهواء الساخن يجمع من الاجزاء ، في مدى معين ، اقل ما يجمعه فيه الهواء البارد ، فيصبح اخف منه ويندفع الى اعلى .

فاذا ادخلنا الى الغرفة المفترضة مدفأة ملأى بالنار ، ارتفع الهواء الذي يمسها الى السقف ، وحل محله الهواء المجاور له الذي لا يلبث ان يتأثر بفعل التأثير نفسه . ويقوم عندئذ مجرى من اسفل الى اعلى بفضل تدافع الهواء الجانبي . ويصبح الهواء الاكثر حرارة في القسم الاعلى ، فيما يكون اقله حرارة في قسمها الادنى وفيما يستمر الهواءان في السعي الى التوازي بفعل قاعدة السائلية [١] .

والآن ، اذا نقلنا هذه المفاعيل الى ما يجري على مدى واسع ، في الكرة الارضية ، لالفيناها تفسر معظم عوارض الرياح .

يمكن اعتبار الهواء الذي يغطي الارض اوقيانوساً كثير الميعان تحتل قعره ، ويقوم سطحه على ارتفاع مجهول . فبمقتضى الناموس الاول ، واعني السائلية ، يميل هذا الاوقيانوس الى التوازن والاستنقاع . بيد ان الشمس التي تحرك ناموس التمدد تثير فيه

١ وثمة جهد الهواء المتمدد دون الحواجز التي تحجبه،ولكن هذا المفعول لا يؤثر في غرضنا .

اضطراباً يجعل جميع اجزائه في ترجرج مستمر .

والاشعة الشمسية بتسلطها على سطح الارض تحدث فيها مفاعيل المدفأة المفترضة في الغرفة ، وتجعل فيها حرارة يتمدد معها الهواء المجاور ويصعد الى الطبقة العليا . فاذا كانت هذه الحرارة هي اياها نفسها في كل مكان لجاءت المفاعيل العامة متماثلة ، ولكنها تتبدل بتأثير احوال متعددة تصبح السبب فيما نلاحظ من وجوه التفاوت .

ومن الثابت ان الارض تسخن بمقدار ما تقرب من عامود الشمس ، والحرارة اذن معدومة في القطب ، فيا هي في درجتها القصوى تحت الخط . وهذا ما يفسر ان مناخاتنا شديده الصقيع في الشتاء ، وحارة في الصيف . وهذا ما يفسر ايضاً ان الحرارة ، في مكان واحد قائم في عرض واحد بالنسبة الى خط الاستواء ، تختلف اختلافاً كبيراً بحسب ما تكون الارض مائلة صوب الشمال او صوب الجنوب ، ويكون سطحه كثير الانحراف او قليله عن اشعة الشمس [1] .

ومن الثابت ايضاً ان سطح المياه اقل من سطح الارض توليداً للحرارة ، فالهواء فوق البحر والبحيرات والانهر اخف سخونة مما هو ، في العرض نفسه ، فوق اليابسة .

وترى ان الرطوبة مصدر اعتدال الهواء ، وهو السبب في ان البلاد المكسوة بالغابات ، والكثيرة الغدران ، اشد صقيعاً مما لو جففت غدرانها وقطعت اشجارها [2] .

١ وهذا ما جعل مونتسكيو يلاحظ بصواب ان بلاد التتر الواقعة في دائرة متوازية لخط الاستواء بالنسبة لانكلترا وفرنسا هي اكثر منها تعرضاً للصقيع .

٢ وهذا ما يفسر كيف ان غاليا La Gaule كانت اشد برودة مما هي عليه اليوم .

ثالثاً : وثمة ملاحظة هامة هي ان الحرارة تتناقص بمقدار الارتفاع فوق مخطط الارض العام . يدلك على ذلك ان الجبال الشامخة تحمل الثلوج على ذراها ، ولو كانت واقعة تحت خط الاستواء . وهذا ما يثبت ديمومة البرد في الطبقات العليا من الرقيع .

واذا ما لمسنا المفاعيل المشتركة الناشئة عن الاحوال المختلفة تبين لنا انها تفسر معظم الحوادث التي نتولى تفصيلها .

ولما كان هواء المناطق القطبية ابرد واوزن بما هو عليه في منطقة الاعتدال ، وجب ان يحدث ، بفعل ناموس التوازن ، ضغطٌ على الهواء يسوقه من القطبين صوب خط الاستواء . وهنا يقوم التعليل على الوقائع ، لان جميع الرحالين قد تبينوا ان الرياح في نصفي الكرة الشمالي والجنوبي تنطلق من دائرة الافق التي يقع القطب في وسطها ، اي من الناحية الواقعة بين الشمال الغربي والشمال الشرقي . ويماثل هذا ما يحدث في البحر المتوسط بوجه خاص .

لقد اشرت ، في معرض حديثي عن مصر ، ان دائرة الرياح الشمالية اكثر تسلطاً من غيرها على ذلك البحر . وتفسير هذا الحادث هو ان الشمس في ساحل بلاد المغرب تلهب الهواء الذي يغطيه . فيرتفع هذا الهواء المتمدد او يتجه صوب اليابسة . واذ يجد هواء البحر ضعف المقاومة من هذه الجهة فهو ينطلق نحوها للحال . ولكنه يسخن بدوره ويتبع الهواء الاول . وهكذا دواليك حتى يفرغ المتوسط من الهواء .

واذ يفتقر الهواء الجاثم فوق اوروبا الى سند من هذه الجهة فهو ينساق فيها ، ولا يلبث ان يسير في هذا الاتجاه مجرى شامل

تزداد شدته بمقدار برودة الهواء الشمالي . وهـذا هو سبب الرياح الهوجاء التي تهب في الشتاء اكثر من هبوبها في الصيف . وتخف شدته بمقدار ما تتعادل اهوية تلك المناطق . وهـــذا هو سبب الرياح المعتدلة في الفصل الجميل ، تلك الرياح التي تفضي خلال تموز وآب الى سكون شامل ، اذ تكون الشمس اكثر مجاورة لنا وتلقي الدفء بدرجات تكاد تكون متعادلة في مجمل نصف الكرة حتى القطب .

ان هـذا المجرى الثابت المتماثل الذي تسلكه الريح الشمالية الغربية خلال حزيران متأت من ان الشمس بتقربها من موازاة اصوان والجزر الخالدات Canaries تحـدث مـا وراء الاطلس حركة استنشاق منتظمة . ان لعودة الرياح الشرقية بصورة دورية عـــلى اثر الاعتدال الخريفي او الربيعي سبباً آخر جغرافياً . ولـكي نتبين هذا السبب وجب ان يكون في متناولنا صورة شاملة لما يجري في الامكنة الاخرى من القارة ، وانه لامر يفوتني ، كما واني اجهل سبباً لاستمرار الرياح الجنوبية والشمالية ثلاثة ايام في ابان الاعتدالات .

وثمة اختلاف في سير الرياح الواحدة ينشأ عن طبيعة الارض، بمعنى ان الريح اذا انتهت الى واد سارت في اتجاهه عـلى غرار المجاري البحرية . وهذا ولا شك ما يفسر لنا ان ساحل الخليج الادرياتيكي يكاد لا يعرف من الرياح الا الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية ، لان هذا الساعد الممتد في البحر يسير في ذلك الاتجاه . ولسبب كهذا تتحول جميع الرياح على البحر الاحمر الى شمالية او جنوبية .

واذا كانت الريح الشمالية الغربية كثيرة الهبوب في مقاطعة بروفنسيا ، فما كان ذلك الا لان مجاري الهواء الهابطة من جبال سيفان والالب مكرهة على ان تنتحي « الرون » في واديه .

ولكن ما هو مصير الركام الهوائي الذي يجذبه الساحل الافريقي والمنطقة الحارة ؟ على هذا السؤال جوابان :

الاول :

عند وصول الهواء الى درجات العرض هذه يحدث مجرى ريح شرقية تهب من دائرة الانقلاب وتتسلط من الجزر الخالدات حتى اميركا[1] ، فاذا ما بلغت القارة واعترضتها الجبال ، تحولت عن وجهتها الاولى واصبحت غربية في موازاة كندا .

الثاني :

ان الهواء المندفع من البحر المتوسط الى افريقيا يتمدد بفعل الحرارة ويرتفع الى الطبقة العليا . ولكنه اذا بلغ بعض الارتفاع يكثف وينقلص حجمه . وقد يقال عندئذ انه يجب ان

[1] لقد حسب السيد فرنكلان ان سبب هذه الريح دوران الارض ، ولكن اذا صح ذلك ، لمَ لا تكون الريح الشرقية دائمة ، وكيف نفسر عندئذ طلوع الريحين الدوريتين الهابتين على الهند والمتعاقبتين عليها قبل مرور الشمس في خط الاستواء وبعده ، بمعنى ان الرياح الغربية والجنوبية تسودها طوال الستة الاشهر التي تقضيها الشمس في المنطقة الشمالية ، والرياح الشرقية والشمالية تسيطر فيها مدة الستة الاشهر الاخرى التي تكون فيها الشمس في المنطقة الجنوبية .

الا تدل هذه العلاقة على ان اعراض الرياح مردها الى فعل الشمس في جو القارة والى هذا الفعل فقط ؟ ويجوز ان يكون القمر مفعول على الرياح كمفعوله على الاوقيانوس ، ولكن تأثير سائر الكواكب عليها ضرب من الاوهام خليق بفلكيات الاقدمين ...

يهبط الى اسفل بسبب انه استعاد وزنه . ولكنه فضلاً عن انه لو اقترب من الارض لاسترجع الحرارة وعاد الى التمدد ، فهو يكابد من الهواء الاسفل جهداً شديداً متواصلاً يسنده . فهاتان الطبقتان من الهواء الاعلى البارد والهواء الاسفل المتمدد في صراع مستمر ، فاذا ما اختل التوازن بينهما ، سقط الهواء الاعلى بضغط ثقله على المنطقة السفلى حتى الارض .

ان تلك الاعراض هي التي تكون سبباً في ما نشاهده من الاعصارات التي يلوح انها تسقط من السماء وتنقل، في اكثر الفصول حرارة الى اكثر المناطق قيظاً ، برودة المناطق القطبية وقرها . فاذا ما قاومها الهواء المحيط بها اقتصر فعلها على مدى معين محدود . اما اذا صادفت مجاري وتيارات سابقة لها فهي تزيد في شدتها وتستحيل عواصف تستمر ساعات طوالاً .

وتكون هذه العواصف جافة الريح اذا كان الهواء صافياً ، اما اذا كان مثقلاً بالغيوم فيوافقها سيل عرم من الامطار والبَرَد الذي يتجمد عند سقوطه بفعل الهواء البارد .

وقد يحدث في مكان الاختلال الذي المعتُ اليه سقوط امطار متواصل تنضم اليها السحب المحيطة بها ، فتنتج عن امتزاجها تلك العواميد المائية المسماة بالاعاصير والزوابع . وما كانت هذه الاعاصير نادرة على ساحل سوريا . ويلاحظ انها اكثر ما تحصل في جو عاصف كثيف الغيوم .

وكثيراً ما يحدث هذا في الجبال التي تبلغ بعض الارتفاع . فعندما تكسو الثلوج ذراها تهب فيها عواصف جارفة يسميها البحارة الرياح الثلجية ، ويقولون عندئذ ان الجبال تدافع عن

نفسها ، لان تلك الرياح تدفع من يقاربها من اية ناحية اتاها .

ان خليج ليون وخليج الاسكندرون على المتوسط مشهوران بما يحدث فيهما من هذه الاعراض .

والرياح التي تهب على السواحل ويسميها العامة رياح البرّ يستند الناس بتفسيرها الى القواعد نفسها . ويلاحظ الملاحون في المتوسط انها تهب نهاراً من البحر وليلاً من البر ، وانها شديدة في السواحل المرتفعة ، فيما هي اخف على السواحل المنخفضة . والسبب في ذلك ان الهواء الذي يتمدد تارة بفعل حرارة النهار ، ويكثف تارة اخرى بتأثير برد الليل ، يتعاقب على الصعود والهبوط من الارض الى البحر ومنه اليها .

ان ما عاينته في سوريا من هذا القبيل ملموس حسي . فان وجه لبنان المقابل للبحر تغمره الشمس طوال النهار ابتداء من الظهيرة بنوع خاص وتثير فيه حرارة تمدد الهواء الذي يغطي السفح . واذ يصبح هذا الهواء خفيفاً يختل ما بينه وبين هواء البحر من توازن ، فيزحمه هذا ويطرده الى اعلى . ولكن الهواء الذي يحتل مكانه يسخن بدوره ويجري في اثره . وهكذا دواليك حتى يتكون تيار شبيه بالذي نعاينه في انابيب المدافىء والمداخن . فاذا ما غابت الشمس توقف هذا العمل ، وبرد الجبل وكثف هواؤه ، واصبح بتكاثفه اثقل واوزن ، فيهبط ويتكون منه تيار ينحدر من السفح الى البحر ، حتى اذا طلع الصباح زال بطلول الشمس في الافق ، وعاد الى سيرته بالامس . وهو لا يتخطى البحر الى ابعد من فرسخين او ثلاثة لان اندفاعه هابطاً يتلاشى بمقاومة الركام الهوائي الذي يقابله .

اما استمرار الهواء في البرّ فمرده الى علو مهابطه وانحدارها، ومداه اكثر اتساعاً عند اقدام لبنان وسلسلة الجبال الشمالية، لان الجبال في ذلك القسم اكثر ارتفاعاً واشد انحداراً والصق جواراً بالبحر .

وتهب عند مصب نهر القاسمية رياح هوج مفاجئة [1]، لان الهواء يستجمع في وادي البقاع العميق وينطلق من مجراه الضيق انطلاقه من فوهة الانابيب . وهو اخف على الساحل الفلسطيني لان الجبال هناك اقل ارتفاعاً، بفصلها عن البحر سهل يراوح عرضه بين اربعة فراسخ وخمسة . وهو منعدم في غزة وعلى الساحل المصري حيث لا تجد في الارض انحداراً بادياً . وهو شديد في الصيف واضعف في الشتاء، لان الهواء قلما انتابه التمدد في هذا الفصل .

ان حالتي الهواء البري والبحري هما السبب في احد الاعراض الذي يلاحظه الناس منذ زمن بعيد، عنيت به خاصة الارض بوجه عام والجبال بنوع خاص، في اجتذاب الغيوم . فالذي تسنى له ان يراقب السواحل المتعددة يرى ان الغيوم، وهي تتكون دائماً في البحر، تزحف بعدئذ صوب اليابسة في سير مستمر، ثم ترقى اعلى جبالها .

لقد شاء نفر من الفيزيين ان يفسروا هذه الظاهرة، فاسندوها الى خاصة اجتذاب . بيد ان هذا «السبب الخفي» لم يكن يوماً من الايام اوضح من «سالف الارتعاب من الفراغ» . ففي

[1] تبلغ هذه الرياح حداً من العنف تنقلب معه السفن مما كدت اختبره بنفسي .

قضيتنا من العوامل المادية ما يجلي سبب العارض الذي نحن في صدده ، عنيت مبادىء توازن السوائل التي يدفع بموجبها ركام الهواء الثقيل ركام الهواء الخفيف الى اعلى . وفي الواقع ، لما كانت القارة اشد سخونة من البحر ، ولو تعادلا مستوى ، كان لا بد ان يقوم بينهما تيار ينقل الهواء (والغيوم) من البحر الى الارض . وتكثف هذه الغيوم بمقدار حرارة الجبال ومبلغ قابليتها للاستنشاق . فاذا صادفت ارضاً سهلة متساوية فهي تنزلق عليها دون ان تتوقف ، لان هذه الارض حارة ايضاً ولا تقوم فيها عقبة تعترض الغيوم وتكثفها .

وهذا هو السبب في انعدام المطر او ندورته صيفاً في مصر وفي البادية العربية وافريقيا . ان هواء تلك المناطق حار متمدد يطرد الغيوم لانها بخار ، ولان كل بخار يرتفع الى اعلى بفعل الهواء الحار .

تسبح هذه الغيوم في المنطقة الوسطى حيث يدفعها التيار الى اقسام القارة المرتفعة . وتبرد هناك وتكثف ثم تستحيل اجزاؤها امطاراً او ثلوجاً . وفي الشتاء تخفض الغيوم حتى الحضيض بسبب برودة الارض وتنتشر عليها بشكل ضباب .

ونلاحظ في هذه البلاد ان السحب والضباب تقترب من الارض ليلاً فيما تبتعد عنها نهاراً ، ذلك ان الشمس ما تزال تثير حرارة تدفعها . وقد خبرت ذلك في القاهرة في شهري تموز وآب من سنة ١٧٨٣ . فكثيراً ما كنا نشاهد الضباب عند بزوغ الشمس اذ درجة الحرارة سبع عشرة . وبعد انقضاء ساعتين ، عند ارتفاع الحرارة الى اربع وعشرين درجة ، كانت السحب تملأ

صفحة السماء وتنطلق صوب الجنوب .

وفي الفترة نفسها ، اذ كنت عائداً من السويس بين الرابع والعشرين من تموز والسادس والعشرين منه ، غمرنا الضباب سحابة ليلتين قضيناهما في الصحراء . ولكننا ما كدنا نشارف وادي مصر عند انبثاق الفجر حتى رأيته غارقاً في بحر من ضباب ساكن ما لبث ان تحرك وتعالى عند التماع النهار . وما بلغت الساعة الثامنة حتى تكشفت الارض جميعها وتبعثرت في الهواء غيوم شتيتة كانت تصعد من الوادي .

وفي السنة التالية لاحظت الاعراض نفسها في بلاد الدروز ، فقد تسلطت الغيوم في اواخر حزيران ، وعزا السكان تكاثرها الى فيضان النيل في مصر . وكانت في الواقع تقبل من تلك الناحية في اتجاه الشمال الشرقي .

وعقبت هذه الطفرة طفرة أخرى من الغيوم في اواخر تموز وخلال آب . فكانت السماء تتشح بالغيوم كل يوم حوالى الساعة الحادية عشرة من النهار وتحجب الشمس ، وتغمر السحب ذروة صنين ، فيما كان بعضها يتسلق السفوح ويتراكض بين حقول الكرمة واحراش الصنوبر . وكثيراً ما احاط بي ضباب ابيض رطب ، وفاتر كثيف كان يفوتني معه منظر الاشياء على قيد اربع خطوات . وعند الساعة العاشرة او الحادية عشرة ليلاً كانت السماء تنزع قناعها فتأتلق نجومها ويصفو اديمها الى ان تطلع الشمس ساطعة متوهجة ، ثم تأزف ساعة الظهيرة فتعود الحالة الى ما كانت عليه بالامس .

وقد اقلقني هذا التكرار الذي كنت اجهل معه مصير

الركام من الغيوم . اجـــل ، ان قسماً منها كان يتخطى سلسلة صنين ، وكان مـن حقي الافتراض انه ينتهي الى انتيلبنان او البـــادية .

ولكن الغيوم التي كانت تسير على السفح عند مغيب الشمس ، اي مصير هو مصيرها ، ونعرف انها لا تتلاشى في مطر او ندى ؟

لقد بدا لي ان استقصي السبب ، فرقيت قمة مجاورة ، واطلقت بصري في الوادي وفي البحر متتبعاً خطاً منحرفاً يطول الى خمسة فراسخ ، ولبثت اترقب مـا سيحدث . فلم أرَ بادىء ذي بـدء الا بحيرة من الابخرة فوق المياه . وكان هـــذا الافق البحري غامضاً ، في حين ان افق الجبال كان جلياً واضحاً . وكانت اشعة الشمس تضيء هذا الضباب شيئاً فشيئاً فارى الغيوم تنفصل من هذا الركام وتصعد صوب الجبال لتعلوها طوال النهار .

وافترضت عندئذ ان هذه الغيوم التي رأيتها ترقى على هـذه الصورة ، هي ، في قسمها الاكبر ، غيوم الامس التي توقفت عن الصعود اذ جمدهـــا الهواء البارد ودفعتها ريح البر الى البحر . وفكرت انها استوقفت هناك طوال الليل ، حتى اذا هبت الريح البحرية ساقتها صوب الجبـل وحملت معظمها فوق الذروة لتذوب اندية في الصحراء او تضمحل في هوائها الجاف .

قلت ان هذه الغيوم لا تأتي بالندى ، وقد لاحظت ان السماء الغائمة اشح به من السماء الصافية . والندى في كل وقت وحـال اقل في الجبال منه على الساحل وفي مصر . وتفسير ذلك ان الهواء لا يستطيع ان يرفع الى ذلك العلو ما يحمله مـن رطوبة زائدة ، لان الندى انما هو تلك الرطوبة الزائدة التي يذيبها الهواء

الساخن نهاراً ثم تجمدها برودة المساء فتهمي بغزارة تزيد بمقدار القرب من البحر[1]. وهذا هو السبب في ان الرطوبة شديدة في الدلتا واخف منها في داخل الصحراء على ما قيل لي. واذا كانت الرطوبة لا تهمي عند احتجاب السماء فلأنها اتخذت شكل الغيوم او لان الغيوم تحول دونها.

وفي احوال اخرى، اذ السماء صافية، ترى غيوماً تتفرق وتتلاشى كالدخان، او تتجمع رقعاً في نقطة معينة حتى تصبح كتلاً عظيمة. وهذا ما يحدث بنوع خاص على ذرى لبنان. والغيم يعلو تلك الذرى دليل للملاحين على ريح غريبة وشيكة الهبوب.

وكثيراً ما رأيت عند مغيب الشمس تلك الابخرة تعلق في صخور نهر الكلب وتتكاثف شيئاً فشيئاً حتى تملأ الوادي وكأنها بحيرة فيه. ويقول السكان ان تلك الابخرة تتولد من الوادي. والواقع ان هذا الوادي المُصخر المفتقر الى المياه او يكاد، لا يولد هذه الابخرة التي يصح الظن انها تسقط من الفلك، عند هبوط الليل، مطراً خفياً يتراكم حتى يصبح بحيرة غائمة.

ان الضباب تفسره المبادىء نفسها. فلا ضباب في البلاد

[1] وهذا الامر يحل قضية طرحت علي في يافا، وهي تنحصر في هذا السؤال: لماذا يعرق الناس في يافا على شاطىء البحر اكثر منهم في الرملة التي هي على مسافة ثلاثة فراسخ في البر ؟

سبب ذلك ان هواء يافا المثقل بالرطوبة لا يمتص افرازات الجسم الا ببطء، فيا هو اكثر نهماً في الرملة حيث يمتص تلك الافرازات بسرعة. وهذا ما يفسر ايضاً ان ابخرة التنفس مرئية في مناخاتنا شتاء لا صيفاً.

الحارة النائية عن البحر ، او في فصول الصيف الجافة لان الهواء عندئذ لا يحمل رطوبة زائدة ، ولكنه يظهر في الخريف عقيب الامطار ، حتى انـه يبدو في الصيف عـلى اثر الامطار العاصفة ، اذ تكون الارض قـد تلقت مادة للتبخر واصبحت في درجة من البرودة توائم التجمد .

وفي مناخاتنا يعلو الضباب الحقول، وقلما الف الاراضي المحروثة. ولا يندر ان ترى عند مغيب الشمس ستاراً دخانياً على الاعشاب لا يلبث ان ينتشر صعوداً واتساعاً . وسبب ذلك ان الاماكن الرطبة البليلة تجمع من الميزات لتكثيف الابخرة الهامية ما لا يتوافر في الاماكن الغبارية .

وثمة اعتبارات عديدة تتعلق بتكوين هذه الابخرة وطبيعتها ، تلك الابخرة التي هي هي نفسها وان سميت فوق الارض ضباباً وفي الرقيع غيوماً ... وهي مسألة مـن اختصاص الكيمياء لا يسعني ان اتطرق اليها في هـذا البحث . وسأقصر درسي عـلى ملاحظة اخيرة تتعلق بالرعد .

يحدث الرعد في الدلتا كما يحدث في سوريا ، مع الفرق انه في الدلتا وسهل فلسطين نادر في الصيف كثير في الشتاء ، في حين انه عـلى الجبال قليل في الشتاء كثير في الصيف . وهو في كلا البلدين يقصف في فصول الامطار التي ترافق مواعيد الاعتـدالات واخصها الاعتدال الخريفي . ومن الجدير بالنظر انه لا يُقبل قط من اجواء اليابسة بل من البحر .

وتطلع الزوابع عـلى الدلتا وسوريا مـن البحر المتوسط [1] .

[1] اجهل ما يحدث في الصعيد من هذا القبيل . اما الدلتا فالرعد والغيوم تطالعها من

ومواقيتها المفضلة المساء والصباح [1] . وترافقها سيول غزيرة ، وفي بعض الاحيان ، زخات من البَرَد تغطي الحقول ببحيرات صغيرة في سحابة ساعة من الزمن . فهذه الاحوال، واخصها التلازم بين الغيوم والرعد ، تؤول بنا الى التعليل التالي :

اذا كان الرعد ينشأ دائماً مع الغيوم ، وكان بحاجة مطلقة الى واسطتها ليظهر، فهو ناتج، والحالة هذه، من بعض عناصرها . واذن كيف تتكون الغيوم؟ انها تتكون من تبخر المياه . وكيف يحصل التبخر؟ انه يحصل من وجود عنصر النار .

ليس للماء بحد ذاته قابلية التبخر ، بل يقتضي تبخره وجود عامل ، وهذا العامل هو النار . وهذا ما يؤيد القول « ان التبخر يكون بنسبة تفاعل الحرارة والماء» . فكل ذرة ماء تبخرها ذرة نار تمتزج بهما ولا شك ذرة هواء . والغيوم ، وهذا تركيبها ، تسبح في الهواء حتى تطرأ عليها احوال خاصة تذيبها . فاذا اعترضها عامل من شأنه ان يفكك تمازج ذراتها فجأة ، تفجرت بدوي وبرق . فتضمحل منها مادة النار فوراً ولا يبقى من الاجزاء المتمازجة الا الماء ، فيسقط من العلو الذي ارتفع اليه . وهذا ما يفسر تلك الامطار الشديدة التي تعقب قصف الرعود وتهطل عادة عند انتهاء الزوابع وتلاشي مادة النار .

البحر الاحمر احياناً . ويوم غادرت القاهرة في السادس والعشرين من شهر ايلول سنة ١٧٨٣ ، هبت علينا عند هبوط الليل زوبعة من الجنوب الشرقي ترافقها الرعود ، ثم هطل بَرَد شديد من الحجم الكبير المستدير، طوال عشر دقائق او اثنتي عشرة . فتسنى لي مع الرفاق ان نملأ منه كوبين واسعين ونقول اننا حسونا الجليد في مصر .

[1] وقد لاحظ نيبوهر في موكا وبومباي ان الزوابع تطلع من البحر دائماً .

وقد تمتزج مادة النار بالهواء وحده فتحدث تلك البروق التي نسميها نيران الافق . ولكن هل ان مادة النار هذه تتميز عن المادة الكهربائية ؟ وهل يخضع امتزاجها وتفجرها الى نواميس خاصة ؟ هذا ما لا احاول بحثه ، لان هذه الابحاث لا تؤاتيها روايات السفر . وحسبي ان اكون قد اقتصرت على الوقائع واستخلصت منها الشروح التي اقتضتها طبيعة الحال [1] .

١ يبدو ان النيازك مزيج ناري من نوع خاص . لقد اكد لي موارنة « مار الياس » ان احد تلك النيازك سقط منذ ثلاث سنوات على بغلتي الدير فقتلها ، واحدث انفجاراً يشبه انفجار المدارة .

القسم الرابع

الحالة السياسية في سوريا

الفصل الثاني والعشرون

سكان سوريا

تعرضت سوريا منذ غابر الازمان لاضطرابات ادت الى تمازج اجناس سكانها . وتعاقبت عليها في خلال الفين وخمسمائة سنة عشرة فتوحات دخلت معها على التوالى شعوب غريبة اولها آشوريو نينوى الذين عبروا الفرات حوالى السنة ٧٥٠ قبل المسيح واستولوا على مجمل البلاد الواقعة شمالي اليهودية . وعقبهم كلدانيو بابل بحق السيف وافتتحوا سائر سوريا ما خلا مدينة صور . ثم تعاقب على البلاد فرس كسرى ، فمقدونيو الاسكندر .

ولاح عندئذ ان سوريا ستعتق من عبودية الاجانب وانها ستنعم بحكومة خاصة يفرضها حقها الطبيعي . بيد ان الشعوب ، التي لم تجد في السلوقيين الا طغاة قساة ، رأت ، وقد فرضت عليها الانيار ، ان تختار اخفها وطأة ، فاصبحت بقوة سلاح بومبايوس احدى ولايات الامبراطورية الرومانية .

وبعد انقضاء خمسة قرون ، اذ تقاسم ابناء ثيودوسيوس تراثهم المترامي الاطراف ، ضمت سوريا الى امبراطورية القسطنطينية . وكانت هذه حالها عندما فتحها العرب تحت راية محمد . ومزقتها

منذ ذلك العهد الحروب الاهلية التي ثارت في عهد الامويين والفاطميين . ثم تنازعها على التوالي الصليبيون والمماليك والتتر ، حتى استقرت اخيراً في يد الاتراك العثمانيين الذين هم اسيادها منذ مائتين وثماني وستين سنة .

ونجم عن تلك الاضطرابات المتتالية ان سوريا لم يبق فيها الا رواسب من الناس المختلفي العناصر ، بنوع انه لا يجوز النظر اليها كأمة واحدة بل كمزيج امم مختلفة .

ويمكن تقسيم تلك الشعوب طبقات ثلاثاً :

١ – ذراري الشعب الذي سبق فتح العرب وهم الروم .

٢ – ذراري العرب الفاتحين .

٣ – الشعب المسيطر الآن وهم الاتراك العثمانيون .

ويجدر ان يقسم اهل الطبقة الاولى الى :

١ – روم منشقين اي منفصلين عن شراكة رومه .

٢ – روم لاتين متحدين برومه .

٣ – موارنة من اتباع الراهب مارون ، كانوا مستقلين عن الفئتين السابقتين وانضموا الآن الى الثانية .

ويجب ان يقسم العرب الى :

١ – ذراري الفاتحين وهم القسم الاكبر .

٢ – المتاولة ويختلفون عنهم بمذهبهم الديني .

٣ – الدروز المتميزون بمذهب خاص .

٤ – النصيريين وهم متفرعون ايضاً من العرب .

وثمة شعوب ثلاثة من الرعاة الرحل هم التركمان والاكراد وعرب البادية .

هذه هي اجناس الشعوب المنتشرة في البقاع الممتدة بين البحر والصحراء من غزة حتى الاسكندرون .

والجدير بالنظر انه لم تبق من الشعوب القديمة سمات بارزة ، فقد اختلطت ميزاتهم بميزات الروم الذين استقروا في البلاد منذ عهد الاسكندر وامتزجوا بطول الزمن بسكان البلاد امتزاجاً شديداً . فقد احتفظت الارض وحدها ، فضلاً عن بقايا عادات واخلاق ، بآثار العصور الغابرة .

ان سوريا لم توصد ، شأن مصر ، ابوابها دون الامم الغريبة ، فقد امتزجت بالغرباء ، دماً وطباعاً . وجرى هذا التجنيس وفق النواميس التي سيرته في جنوبي اوروبا في ما عدا الفوارق الناجمة عن طبيعة المناخ الذي يجعل سكان السهول الجنوبية اشد سمرة من اهل الجبال .

ولا يختلف لون الوجه في لبنان وبلاد الدروز عنه في الولايات الفرنسية الوسطى . يطري النـاس كثيراً بياض نساء دمشق وطرابلس وقسماتهن المتناسقة . ونحن من هذا القبيل نصدق الامر بالاعتماد على التواتر ، لان الحجاب الذين يتبرقعن به يحول دون التثبت والملاحظة . والقرويات في بعض المقاطعات اقل توسوساً من الأول ، ولسن دونهن عفة واحتشاماً . ففي فلسطين مثلاً تبدو المتزوجات سوافر . بيد ان الشقاء والشظف قد محيا مسحة الحسن عن سيمائهن ولم يبقيا الا على جمال العيون . وثيابهن الفضفاضة لا تحول دون تميز الرائي حركات اجسادهن التي تدل على شكل القوام ، فهو تعوزه الرشاقة على كونه متناسب الاعضـاء . ولا اذكر اني شاهدت في سوريا وحتى في مصر احدبين اثنين او

مسيحيين .

بيد انه من النادر ان ترى هناك القامات المشيقة التي نرغب فيها ، لانها غير مستحبة في الشرق حيث تلجأ الفتيات منذ الحداثة الى وصفات غريبة تكسبهن البدانة ، وذلك برأي امهاتهن . على ان الطبيعة تضع لحسن الطالع حداً لهوى الانفس وتقاومه ، فنلاحظ ان الاجسام في سوريا حيث لا يُشد القوام ليست اضخم منها في فرنسا حيث يبالغون في شده وتضييقه .

ان السوريين معتدلو القامات عامة ، وهم شأن سكان البلاد الحارة دون سكان الشمال بدانة . على انك تجد بين سكان المدن من الناس من تدل ضخامة بطونهم على ان الغذاء يوازن المناخ .

وليس في سوريا مرض خاص بها الا حبة حلب التي سأتكلم عنها فيما ابحث شؤون هذه المدينة . امـــا الادواء الاخرى فهي الزحار والحميات الناشئة عن تعاطي الثمار الرديئة التي يأكلهـــا الشعب بنهم . وهناك الجدري وغالباً ما يكون كثير الفتـــك بالارواح . امـــا الداء الشامل المعتاد فهو مرض المعدة . وسببه الافراط في اكل الاثمار الفجة والخضار النيئة ، فضلاً عن العسل والجبن والزيتون والزيت واللبن الرائب والخبز الرديء الاختمار ، وهي المآكل العادية التي يقتات بها الجميع . ومن سيئاتها انهـــا تولد احماضاً تؤدي الى حرافة الفم والقيء وافراز الصفراء .

واللغة المألوفة في سوريا هي العربية . وقد ذكر نيبوهر ، بالاستناد الى ما سمع ، ان اللغة السريانية مـا برحت تستعمل في بعض قرى الجبل . على اني لم اتثبت في هذا الامر ، على كوني استفهمته بعض الرهبان الذين يعرفون البلاد معرفة تامة . غير انه

قيل لي ان سكان معلولة وصيدنايا الواقعتين على مقربة من دمشق يستعملون لغة فاسدة يصعب على المستمع فهمها . ولكن ذلك لا يعني شيئاً ، لان اللهجات في سوريا وفي سائر البلاد العربية تختلف من محل الى آخر . ويصح القول اذاً ان اللغة السريانيـة اصبحت ميتة بالنسبة الى هذه المقاطعات . ان الموارنة الذين احتفظوا بها في طقسياتهم لا يفهم معظمهم منها شيئاً فيما يقرأونها . وهذا هو شأن اللغة اليونانية . فالرهبان والكهنة ، منشقين كانوا او كاثوليكيين ، لا يفهمها منهم الا الذين درسوها دراسة خاصة في جزر الارخبيل . ومن المعلوم ان اليونانية الحديثة قد تشوّهت الى حد انه لا تكفي معرفتها لمن يريد ان يقرأ ديموستين ، كما ان اللغة الايطالية لا تلقي نوراً على لغة شيشرون .

اما اللغة التركية فلا يستعملها في سوريا الا رجـــال الحرب والحكومة والقبائل التركمانية ، ويتعلمها بعض سكان البلاد لحاجة متاجرهم كما يتعلم الاتراك اللغة العربية . على ان بين هاتين اللغتين من التنافر من حيث اللفظ والنبرات مـا يجعلهما غريبتين الواحـدة عن الاخرى . فلفظ الاتراك ترافقه غنة وجزالة . وهم من اجل ذلك يجدون صعوبة في تقليد اللغة العربية باجراسهـا الحادة واستنشاقاتها الشديدة . ففي هذه اللغة من الاحرف المصوّتة والحلقية مـــا اذا سمعته لاول مرة خيل اليك ان هناك قوماً يتغرغرون . وهذه الميزة تجعلها شاقة المتناول على الاوروبيين . على اننـــا لو شكونا الى العرب خشونة لغتهم لاتهمونا باننا نفتقر الى اذن صادقة . واللغة الايطالية هي المفضلة عندهم . وهم يشبهون اللغة الافرنسية بالتركية والانكليزية بالفارسية . ولهجاتهم مختلفة . فاللغة العربية في سوريا

اكثر خشونة منها في مصر . فاللفظ عند اهل الشريعة في القاهرة مثال السهولة والاناقة . على ان نبيوهر لاحظ ان لفظ سكان اليمن والشاطىء الجنوبي اكثر عـذوبة ، وهو يضفي على اللغة العربية سلاسة وانسجاماً .

لقد شاء البعض ان يجد علاقة بين المنـــاخات واللهجات . فيقولون مثلاً ان سكان الشمال اكثر من اهل الجنوب الحاحــاً على الشفاه والاسنان في مخارج الحروف . وقد يكون ذلك صحيحاً اذا اقتصرنا على بعض اجزاء القـارة ، لان التعميم في هذا الحكم يقتضي ملاحظات اكثر شمولاً واتساعاً . فالتحفظ اجدر عند اطلاق الحكم على اللغات وميزاتهـــا لان المرء محمول على تعليـل الامور بالاستناد الى لغته وبالتـالي الى وهم ناشىء عن العـادة يضير بصحة التفكير والتعليل .

ان بين سكان سوريا الذين تحدثت عنهم من هم منتشرون في مختلف انحائها ، فيما نجد شعوباً منهم محصورة في اماكن معينة يتعيّن علينا تحديدها. فالروم والاتراك والعرب القرويون يدخلون في الفئة الاولى ، مع الفرق ان الاتراك لا يقيمـون الا في المدن حيث يمارسون شؤون الحرب والقضاء والصناعة . اما العرب والروم فهم يقطنون القرى حيث تتألف منهم طبقة الحرّاث في الارياف وطبقة السوقة في المدن . واكثر القرى المأهولة بالاروام تقع في ولاية دمشق .

اما الروم الملكيون التابعون لروما فهم اقل عدداً من الروم المنشقين ويقطنون المدن حيث يمارسون الصناعة والتجــارة وقد احرزوا في كلتيهما تفوقاً ظاهراً بفضل حماية الفرنجة لهم في الاماكن

التي تقوم فيها المكاتب التجارية الاوروبية .

ويؤلف الموارنة امة تكاد تستأثر بجمل البلاد الواقعة بين نهر الكلب والنهر البارد من قمم الجبال شرقاً حتى البحر المتوسط غرباً .

ويجاورهم الدروز المنتشرون من نهر الكلب حتى ضواحي صور بين وادي البقاع والبحر .

وكانت بلاد المتاولة تشتمل فيما قبل على وادي البقاع حتى صور . على ان هذا الشعب قد كابد من الاضطرابات ما اضعف شأنه . اما النصيريون فهم منتشرون في الجبال من نهر عكار حتى انطاكية . ومنهم شيع مختلفة كالكلبية والقدموسية والشمسية . وليس للتركمان والاكراد والبدو مقرّات ثابتة . فهم متشردون ابداً بخيامهم ومواشيهم في مناطق معينة يعتبرونها ملكاً لهم .

فالتركمان يخيّمون عادة في سهول انطاكية ، والاكراد في الجبال القائمة بين الاسكندرون والفرات ، والعرب على التخوم السورية الملاصقة لصحرائهم ، حتى انك تجدهم في السهول الداخلية كسهول فلسطين والبقاع والجليل .

ولكي نكوّن لنا فكرة اكثر وضوحاً عن هذه الشعوب نرى ان نتبسّط في شؤون كل منها .

الفصل الثالث والعشرون

الشعوب الرعاة او الرحل

النبذة الاولى

التركمان

التركمان طائفة من التتر نزحوا من شرقي بحر قزوين في ابان الثورات الكبرى التي هزّت دولة الخلفاء ، وانتشروا في سهول ارمينيا وآسيا الصغرى .

ان لغتهم لغة الاتراك نفسها ، وطريقة معاشهم تكاد تشبه طريقة عرب البادية . فهم رعاة مثلهم يقطعون المسافات والفلوات سعياً وراء المراعي . بيد ان الاراضي التي ينزلونها وافرة الخصب والكلأ . وهم من اجل ذلك اقل شتاتاً من قبائل الصحراء .

ولكل عشيرة عندهم رئيس لا تستند سلطته الى الانظمة ، بل الى مألوف العادة والاحوال . وقلما كان هذا الرئيس مستبداً لان جماعاتهم منضامة يسود اعضاءها شيء من المساواة . وكل رجل يستطيع حمل السلاح يحمله ، لان اعتباره وأمنه يقومان على قوته . وثروتهم جميعها في المواشي من إبل وجواميس وماعز واغنام . وغذاؤهم الالبان والزبدة واللحوم الوفيرة . وهم يبيعون ما يفيض عن حاجاتهم في المدن والقرى ، ويقايضون عليها بالاسلحة والالبسة

والدراهم والحبوب . ونساؤهم يغزلن الصوف وينسجن السجاد ، وهي صناعة يمارسنها منذ القدم .

اما الرجال فتنحصر مشاغلهم في تدخين الغلايين وحراسة المواشي . فتراهم ابداً على صهوات الجياد ، رمح على الكتف ، وسيف معقوف الى الجنب ، وغدّارة في النطاق : فرسان اشداء ورجال حرب ذوو بأس وشكيمة . كثيراً ما ينشب النزاع بينهم وبين الاتراك الذين يرهبون جانبهم . ولكن تخاذل قبائلهم يقف حائلاً دون تفوقهم ، ذلك التفوق الذي كان مضموناً لهم لو تألبت قواتهم متحدة .

وثمة ثلاثون الف تركماني موزعون بين ولايتي حلب ودمشق ، وهما الولايتان الوحيدتان اللتان يترددون اليهما . وينزح معظم قبائلهم في الصيف الى ارمينية وقرمانية حيث يتوافر الكلأ ، ثم يعودون في الشتاء الى مناطقهم المعتادة .

والتركمان يدينون بالاسلام ، ولكنهم قلما حفلوا بالدين . اما اخلاقهم فلا يعرف امرها الا من تسنى له ان يعايشهم . ولكن الشائع عنهم انهم كالعرب في الكرم والضيافة . وهم في كفاف من الرزق على غير غنى واسع ، متمرسون بالشدائد والحروب وفي مأمن من فساد اهل المدن وذل سكان القرى .

النبذة الثانية

الاكراد

الاكراد جيل من الناس منتشرون قبائل في آسيا السفلى . اما موطنهم الاصلي فالجبال التي تنبجس منها فروع دجلة ، تلك

الجبال المحدقة بشطر نهر الزاب الاعلى والممتدة جنوباً حتى تخوم العراق الفارسي . وفي اصطلاح الجغرافيا الحديثة تسمى تلك البلاد كردستان . وقد ورد ذكرها في اقدم التواريخ والاساطير الشرقية التي جعلتها ساحة للحوادث الميثولوجية المتعددة .

روى بيروز الكلداني ومريابا الارمني اللذان ورد ذكرهما في تاريخ موسى الخوريني ان كزيسوتروس الذي نجا من الطوفان قد استقر على جبال غورداوي . وموقع هذه الجبال من البلاد يدل على ان كلمة غورد او كورد مشتقة من اسمها .

وذكر المؤرخ كزينوفون ان هؤلاء الاكراد على كونهم محاطين بامبراطورية الفرس من كل النواحي قد استطاعوا كبح جماح جنود « الملك الاكبر » ، ولم يتبدل مراسهم مع الزمن لانهم قلما حفظوا حرمة السلطان والباشاوات . ويخبرنا نيبوهر الذي زار بلادهم في سنة ١٧٦٩ ان حكومتهم اقطاعية ، ولعلها على غرار حكومة الدروز . فلكل قرية رئيس ، والامة منقسمة احزاباً رئيسية ثلاثة مستقلة ادت المنازعات بينها الى حالة فوضى انفصل معها من الشعب عدد كبير من القبائل والعشائر اختارت حياة الترحل التي ألفها العرب والتركمانيون ، وانتشرت في ديار بكر وسهول ارضروم وأريفان وسيواس وحلب ودمشق .

ويقدرون عدد خيامهم بمائة واربعين الفاً ينطلق منها مائة واربعون الف مقاتل . والاكراد كالتركمانيين رعاة رحّل ، ولكنهم يختلفون عنهم في بعض نواحي العادات . فالتركمان يمهرون بناتهم عند زواجهن . اما الاكراد فلا يسلمونهن الا لقاء مهر . ولا يعترف التركمانيون بطبقة الاشراف ، فيما يجلّها الاكراد الاجلال

كله . والتركمانيون لا يعرفون اللصوصية . اما الاكراد فمن المأثور انهم قطّاع طرق ، ويرهب جانبهم من اجل ذلك سكان حلب وانطاكية لانهم منتشرون هناك في الجبال القائمة شرقي بيلان حتى كلس حيث يعرفون باسم « البغدشلية » . ويبلغ عدد خيامهم واكواخهم في هذه الولاية وفي ولاية حلب عشرين الفاً ، ويعتبرون اسلاماً على كونهم لا يحفلون بمراسم الديانة .

وثمة شيعة منهم تعرف باليزيدية يؤثر عنها انها تكرم الشيطان ، وهي فكرة شائعة في ديار بكر وعند تخوم فارس . ولعلها اثر من الطريقة القديمة القائمة على مبدأي الخير والشر التي ما برحت تسود هذه الاصقاع .

واللغة الكردية تحتمل ثلاث لهجات ، وليس فيها كالعربية حروف حلقية ، ويقولون انها لا تشبه الفارسية ، فهي اذن قائمة بذاتها . ولكن اذا القينا نظرة على جاهلية هذا الشعب وعلاقته بالاشوريين والفرس وغيرهم ، حملنا ذلك على الاعتقاد بان معرفة هذه اللغة قد تلقي بعض الضياء على التاريخ القديم في هذه البلاد .

النبذة الثالثة

عرب البادية

هؤلاء القوم الرحل في سوريا ، سبق لي ان صادفتهم في مصر ، والمعت اليهم الماعاً لطيفاً في حديثي عن هذه الولاية لانني عرفتهم فيها معرفة عابر سبيل يجهل لغتهم . اما في سوريا فقد تسنى لي ان انزل خيامهم قرب غزة حيث عايشتهم بعض الزمن واستطعت

ان اعرف من امورهم ما سأتبسط فيه الآن .

اذا تكلمت عن العرب وجب ان تميز بين الفلاحين والرعاة ، لان الفرق في نمط المعيشة بين كلا الفئتين يجعل بينهما فارقاً اكبر في الاخلاق والسجايا تصبحان معه غريبتين الواحدة عن الاخرى او تكادان .

اما اصحاب الفئة الاولى فأهل اقامة متعلقون بالارض ومرتبطون بحكومات نظامية ، وحالتهم الاجتماعية تشبه في كثير من الوجوه ما نحن فيه ، ومنهم اهل اليمن ، وانسال الفاتحين القدماء الذين يتألف منهم او من معظمهم سكان سوريا ومصر وبلاد المغرب .

واهل الفئة الثانية لا تربطهم بالارض الا مصلحة عابرة ، فهم ابداً في تنقل مع خيامهم ، ولا تعصمهم شريعة او نظام . وانهم في وضع لا يصح القول معه انهم متحضرون او متوحشون . هؤلاء هم البدو النازلون الصحارى المترامية الاطراف الممتدة من تخوم فارس حتى شواطئ مراكش . وعلى كونهم منقسمين جماعات او قبائل مستقلة كثيراً ما تكون متعادية ، فهم امة واحدة . وتماثلُ لغاتهم دليل راهن على اروميتهم الواحدة . الا ان قبائل افريقيا احدث عهداً من شقيقتها لانها نشأت بعد الفتوحات التي تولاها خلفاء محمد ، في حين ان قبائل جزيرة العرب تمتد اصولها في القدم الى ابعد العصور . وستكون هذه الاخيرة بنوع خاص موضوعاً لبحثي ، لانها اقرب منه ولان اسم « العرب » مخصوص بها لكونها اقدم جماعاتهم عداً واصفاها نسباً .

ويضيفون الى هذا الاسم مرادفاً فيقولون « بدوي » اي ساكن البادية . وهو مرادف صحيح لان لفظة « عرب » في لغاتهم القديمة

كانت تعني الفلاة او البادية .

وما كانت مباهاة اهل البادية بطهارة العنصر ونقاء الارومة مجردة عن الدليل . فهم لم يستخذوا يوماً لفاتح ولا اختلطوا بغيرهم فاتحين ، لان الفتوحات التي اقترنت باسمهم يعود شرف القيام بها الى قبائل الحجاز واليمن . اما قبائل الداخل فلم يتبع النبي منها الا نفر قليل دأبه الطمع . لذلك ينعت النبي في القرآن عرب البادية بالعصاة الكفرة . وهم الآن هم ، على مر الزمن ، محتفظون باستقلالهم ، محافظون على سذاجتهم الاولى . وما ذكرته التواريخ القديمة عن عاداتهم واخلاقهم ولغاتهم واوهامهم ما برح يصح فيهم اليوم . فاذا اضفنا الى ذلك تلك الوحدة في الطبع التي استمرت في ابعاد الازمنة وتستمر الآن في ابعاد الامكنة بمعنى ان القبائل على رغم تباعدها ما برحت متماثلة متشابهة ، تبينت لنا الفائدة من درس الظروف التي لابست هذه الحالة المعنوية الخاصة .

يصعب علينا في اوروبا ، وفي فرنسا بوجه خاص ، حيث لا نرى شعوباً متشردة ، ان نتصور ما يحمل الناس على هذا النمط من المعيشة ، حتى اننا نتصور بصعوبة ما هي الصحراء ، وكيف تأهل الارض الجدباء .

ان هناك عاملين يدفعان بعض الشعوب الاسيوية الى الترحل . فالعامل الاول طبيعة الارض التي لا تصلح للزراعة ، مما يضطر الناس الى اعتماد الحيوانات التي تقنع بالحشائش البرية . فاذا كانت الحشائش موزعة متفرقة استهلكها الحيوان الواحد في بقعة واسعة وقضت الضرورة عندئذ ان تجوب المواشي

واسعات الفلوات . تلك هي حـالة العربان في صحراء الجزيرة وفي صحراء افريقيا .

اما العامل الثاني فمنشأه العادات ، لان الارض صالحة للزراعة وخصبة في كثير من الاماكن عند تخوم سوريا وفي ديار بكر ومعظم المناطق التي يتردد اليها الاتراك والتركمان ، ولكن تلك العادات هي نفسها ناشئة عن الحالة السياسية التي تسود البـلاد ، بحيث يصح القول ان الحكومة هي علة العلل . وهذا مـا تثبته الوقائع اليومية . فان العشائر والقبائل المترحلة اذا وقعت عـلى بقعة تنعم بالسلم والسكينة مضـاقتين الى كفاف الرزق ، فهي تلبث فيها وتُعمل المحراث . وانك ترى بالعكس ان الحكومة اذا الحت بالجور على سكان قرية من القرى هجروها الى الجبال او تشردوا في السهول محاذرين ان يستقروا في مكان قد يفجأون فيه .

ويحدث كثيراً ان نفراً من الناس الهـاربين من متناول الشرائع او المظالم يصبحون لصوصاً ، فيتضـامون عصابات مسلحة ويتكاثرون حتى تتألف منهم « اورضات » او قبائل جديدة ، ويصدق القول اذن ان حياة الترحل عن الاراضي الخصبة سببهـا فساد الحكم ، لان الانسان ينزع بطبيعته الى الاستقرار واستغـلال الارض .

ويبدو ان العرب كتب عليهم التشرد بسبب طبيعة صحرائهم . فلنتمثل تحت سماء صـافية لاهبة سهولاً شاسعة تضل الابصار في فلواتها ولا تقع على شجر او جداول او منازل او جبال ، وقد تتوه العين في آفاقها المنبسطة كالبحار . وثمة اماكن تنحني فيهـا

الارض بتموجات او تشخص بينها الصخور او ركام الحصى . وهي ارض جرداء تتخلل عراءهـــا نباتات متفرقة وشجيرات عوسجية مبعثرة هنا وهناك . وقلمـــا اقلقت عزلتها الغزلان والارانب او الجراد او الجرذان .

تلـــك هي البلاد الممتدة من حلب حتى جزيرة العرب ومن مصر حتى خليج العجم على مسافة ستمائة فرسخ طولاً على ثلاثمائة فرسخ عرضاً . وليست التربة واحدة في هـذه البقاع الفسيحة ، بل هي خصبة غضرة عند التخوم السورية وفي شواطىء الفرات ، وجيرية بيضاء في الناحية الداخلية الجنوبية ، وصخرية في صحارى التيه والحجاز ، ورملية في الجانب الشرقي من اليمن .

ان هذه الفروق في خصائص الارض تلاقي مثلها في حـــالة البدو . فنرى مثلاً ان القبائل ضئيلة العدد متباعـدة المضارب في النواحي المجدبة كصحراء السويس والبحر الاحمر والقسم الداخلي من الصحراء الواسعة المسماة بنجد . والقبائل اكثر عدداً وتدانياً حيث الارض اكثف كساء ، وهي كذلك بين دمشق والفرات . وفي المناطق الصالحة للزراعة كولاية حلب وحوران وغزة تكثر المخيمات وتتقارب . فالبدو في الحالتين الاولين رعاة صرف يقتاتون من نتاج مواشيهم وشيء من التمر فضلاً عن اللحوم الطازجة او المجففة التي يسحنونها طحيناً . وهم في الحالة الثانية يعنون بالزراعة ويضيفون الى مآكل اللحم واللبن القمح والشعير وحتى الارز .

وهذا القحط في الصحراء ناجم عن افتقارهـــا الى الينابيع والانهر . والحاجة الى الماء ناشئة عن طبيعة الارض ، فهي مسطحة تتزلق الغيوم على وجههـا الحار كما تتزلق عن مصر . ولا تستقر

فوقها الا في الشتاء عندما تحول برودة الجو دون ارتفاعها اليه وتحوّلها الى مطر . وعراء هذه الارض سبب جفافها ، فلو كسيت باحراش الصنوبر لتبدل فيها الحال والمناخ .

ومن حسنات الامطار انها تيسر امر الزراعة شتاء في الاراضي التي تؤاتيها . ولكن الامطار لا تكوّن الينابيع ولا الجداول ، فاذا اقبل الصيف رجع الجفاف الى سابق حاله . وقـد حاول السكان ان يتلافوا هذه المحاذير فاحتفروا الآبار والركايا ليختزنوا فيها مؤونة السنة من الماء ، ولكن تلك الانشاءات تقتضي اموالاً واعمالاً ، فضلاً عن تعرضها لشتى المخاطر . فقد تتلف الحرب في يوم واحد عمل اشهر طويلة وموارد السنة جميعـاً . واذا حل الجفاف ، وكثيراً مـا يحل ، ذهب بالغلال وعم القحط ونضب الماء . صحيح انك اذا حفرت الارض على اعماق معينة ، رأيت الماء ينبجس تحت قدميك ، ولكنه ماء اجاج شأنه في مجمل صحارى جزيرة العرب وافريقيا[1] ، وكثيراً ما ينضب فيتلاقى الظمأ والمجاعة . ولولا مساعدة الحكومة في هذا الصدد لاقفرت القرى .

من البين ان الزراعة في بلاد كهذه محدودة المحاصيل ، وانه من الاضمن لسكان يعيشون في ظل الحكومة التركية ان يعيشوا رُحّلاً لا زرّاعاً مقيمين . وفي المناطق الصخرية او الرملية كالتيه والحجاز ونجد تُنعش الامطار العوسج والشيح والحوذان ، وينمو القصب والاعشاب الهائجة في المستنقعات ، فيكتسي السهل حلة بهجة

[1] ان ملوحة الماء ناجمة عن طبيعة الارض وهي تنتقل الى النبات ، ولكن مقدار هذه الملوحة ينقص كلما اقتربت الارض من الجبال ، ولا تلبث ان تضمحل .

خضراء ، فينعم القطعان والرعاة بالفيض والخير زمناً ، حتى يعود القيظ ، فيجف كل شيء ، وتعود الارض غبراء ناعمـــة لا تظهر فوقها الا جذوع يابسة قاسية لا تقوى عـــلى رمّها الخيول ولا الابقار حتى ولا الماعز .

وتصبح الصحراء عندئذ غير صالحة للسكن ويتحتم هجرها ، لو لم تقيض لهـــا الطبيعة حيواناً يضاهي بصلابته وقناعته عقوق الارض وجدبها ، عنيت الجمل . فما من حيوان مثله يتوافق مزاجه ومناخها . فكأن الطبيعة كيّفته باحوال البادية وميزاتها ، فأحلته في بقاعها المجدبة ، وكونته على وجه يستطيع معه مكابدة المشاق وتحمل الجوع والظمأ . فلم تعطه شكل البقرة ولا طبيعة الخيل او الفيلة ، بل جعلت له رأساً صغيرة تعلو عنقاً طويلة لا لحم فيها ، وجردت قوائمه من كل عضل لا يساعده على الحركة ، وحبته فكاً قوية يسحق فيها أصلب الطعام ، وحاذرت ان يأكل كثيراً فضيقت معدته واجبرته على الاجترار . وكست قدمه بكتلة من اللحم تعرضه للانزلاق على الوحول وتحول دون تسلقه اي مرتفع بحيث لا يمكنه ان يسلك الا ارضاً جافة رملية مستوية الاديم كأرض جزيرة العرب . وكأنها اعدته للعبودية فمنعت عنه الانياب وجردته من وسائل الدفاع . فما جعلت له قرن الثور ولا حافر الفرس ولا سن الفيل ولا خفة الايل ، فاي شيء يستطيعه الجمل اذن لمقاومة الاسد او النمر او الذئب ؟

ونرى من اجل ذلك ان الطبيعـة وارته ، محافظة عـلى بقاء جنسه ، في قلب الصحارى الواسعـة حيث يحول انعدام النبات دون اقبال الطرائد ، ويحول انعدام الطرائد دون اقتراب الضواري

المفترسة .

ولولا عصا الظالمين التي طردت الانسان من الارض الآهلة لما فقد الجمل حريته ، ولكنه دجن واصبح الواسطة لسكنى اجدب الاراضي واعقها . فهو يسد حاجات اسياده جميعاً . فحليب الناقة يغذي البدوي وعيـــاله ، فمن لبن رائب الى جبن الى زبـدة . وكثيراً ما ينحرون الجمل التماساً للحمه ، ويصطنعون من جلده النعال والاسرجة ، ومن وبره الملابس والاخبية ، وينقلون عـــلى ظهره اثقل الاحمال . واذا ضنت الارض بالعلف على فرس البدوي العزيزة عليه لم تضن عليه النـاقة باللبن ، دون ان تطلب عوضاً الا بعض العوسج والشيح وشيئاً من النوى المسحوقة .

تلك هي اهمية الجمل الذي لولاه لمـــا اهلت البادية بأنسي . وتلك هي الاحوال التي هيأتها الطبيعة للبدو لتجعل منهم جنساً بشرياً متميزاً بطبائعـه ، وتجعل السوريين ينظرون اليهم نظرتهم الى قوم غير عاديين . ومن هؤلاء قبائل عنزة وخيبر وطي المتغلغلة في البادية في منأى عن المدن ، وهي لا تقرب منها قط .

وفي ايام عمر الضاهر وصـل بعض فرسانهم الى عكا فاثاروا من الفضول بين السكان ما كان قد اثار مثله عندنا متوحشو اميركا . فكان الناس ينظرون بدهشة الى اولئك الرجال وهم اخف بنية وانحل جسماً واشد سواداً من اي بدوي عرفوه ، فثمـة سيقان جافة دقيقة ، وعراقيب دون ربلات ، وبطون لاصقة بالاصلاب ، وشعر كشعر الزنوج مجعد . اما هم فكان كل شيء يدهشهم ، ولم يكن باستطاعتهم ان يدركوا كيف ان البيوت والمآذن تبقى منتصبة ، وكيف يتجرأ الناس على السكنى تحت سقوفها ، مستقرين

ابداً في المكان الواحد. ولكن الذي اذهلهم بوجه خاص منظر البحر، هذه «الصحراء المائية» التي جاوزت افهامهم. وعبثاً حدثهم الناس عن الجوامع والصلاة والوضوء، فكانوا يسألون ما يعني كل هذا، وما عسى ان يكون موسى والمسيح ومحمد، ولمَ لا يكون السكان قبائل متفرقة واتباع زعماء متناهضين.

بيد ان عرب الحدود ليسوا بهذا المقدار من قلة الاختبار. فثمة عشائر وادي البقاع ووادي الاردن وفلسطين التي تعيش في قلب البلاد لا تختلف حالها عن حال الفلاحين. ولكن عرب الصحراء يحتقرون هؤلاء على انهم غير اقحاح وعبيد للاتراك.

والبدو عامة صغار القامات، نحاف الابدان، مسفعو الوجوه. ولكن هذه الميزات اكثر وضوحاً فيهم في قلب الصحراء منها في جوار البلاد المحروثة. وهنا ايضاً تراها ابرز فيهم مما هي في جيرانهم الفلاحين. حتى انك تجد هذا الفرق نفسه في نزلاء المخيم الواحد. ولاحظت ان المشائخ وخدمهم اكثر بدانة واطول قواماً من غيرهم. ومرد ذلك الى وفرة الغذاء عند اهل الفئة الاولى وقلته عند اهل الفئة الثانية[1]. ويصح القول ان البدوي العادي يعيش في شقاء وشظف متمادين، وقد لا يُصدَّق عندنا ان ما يتناوله البدوي من الطعام يومياً لا تجاوز زنته مائة وثلاثة وثمانين غراماً. وهذا التقشف يبلغ حده عند قبائل نجد والحجاز، حيث يقنع الرجل بست تمرات او سبع مغموسة بالسمن المسيَّح وبعض اللبن

[1] وهذا السبب يظهر مفعوله ايضاً في المقابلة بين الجمال العربية والجمال التركمانية. فهذه الاخيرة تعيش في بقاع خصبة غنية بالمراعي مما جعلها اقوى عضلات واكثر لحماً من الاولى.

الحلو او الرائب قوتاً ليومه . ويحسب نفسه سعيداً اذا اضاف اليها بعض الدقيق الخشن او كتلة صغيرة من الارز .

وهم يحتفظون باللحم للاعياد الكبرى ، ولا ينحرون الجداء الا في الاعراس او المآتم . ومن حق المشايخ الاثرياء ذوي السماح وحدهم ان يذبحوا صغار النوق ويأكلوا الارز مطبوخاً باللحم . والبدوي لا يستنكف ايام القحط عن احقر الطعام . ومن هنا نشأت عادته في التهام الجراد والجرذان والجراذين والحيات مشوية ، وفي التعدي على الحقول المزروعة وسلب المارة .

وهذا الغذاء الضئيل هو السبب في نحافة بنيتهم وهزال اجسامهم التي هي اقرب الى الرشاقة منها الى الصلابة . وفي مزاجهم ما يستوقف نظر الطبيب . فاجسادهم قليلة الافراز حتى في العرق ، ودمهم يفتقر الى المصالة ، فلولا الحر الشديد لعدم سائليته . وهم مع ذلك صحاح الابدان ، واقل تعرضاً للامراض من سكان الحضر .

ومن البديهي اذن ان تلك القناعة في المعاش ليست فضيلة محض اختيارية او ناجمة عن المناخ . لا شك ان الحرارة القصوى التي فيها يعيشون تحدّ من نشاط المعدة وتجعل هذا الزهد شيئاً مستطاعاً ميسوراً ولا شك ايضاً ان اعتيادهم القحط يحول دون عدد المعدة ويصبح وسيلة لهم لمكابدته . بيد ان العامل الرئيسي في تلك العادة هو ، شأنه عند غيرهم من الناس ، إما الضرورات التي تفرضها عليهم طبيعة الارض ، على ما ذكرت ، وإما الحالة الاجتماعية التي هم فيها على ما سأذكر .

قد مر بنا ان عرب البادية منقسمون قبائل ، فلكل قبيلة ارض تتملكها . وهم لا يختلفون من هـذا القبيل عن الشعوب

الزراعية الا بكون هذه الارض تمتد الى مدى اوسع يقتضيه رعي القطعان على مدار السنة . ولكل قبيلة مخيم او مخيمات موزعة في تلك البقاع التي يجوب العربان اجزاءها تباعاً كلما جفت المراعي . فلا يأهل من تلك الفلوات الا رقع تتبدل من يوم الى آخر ، ولكن القبيلة تجتازها في كل مداها استنفاداً لمواردها طوال السنة . فمن تطاول على حدودها عُدّ منتهكاً لحق الملكية . وهذا ما لا يختلف عندهم عن شرعية الحقوق بين الامم . فاذا دخلت قبيلة ارض غيرها عوملت معاملة اللص والعدو ، ونشبت الحرب . ولما كان بعض القبائل مترابطاً بالنسب او الحلف فالحرب تشملها عُصَباً واحلافاً .

وهذه طريقة الحرب عندهم : اذا بلغ الاعتداء مسامع القبيلة ، امتطى رجالها صهوات الجياد وثأروا المعتدي . فاذا ما التقوه فاوضوه ، وكثيراً ما تسالموا ، والا تهاجموا رجالة او فرساناً ، وتقابلوا بالرماح المشرعة وتراموا بها على كونها طويلة الساق . وقلّما تنازعوا الغلبة طويلاً ، فهي بنت الصدمة الاولى ، اذ يطلق المغلوبون العنان لخيولهم ويدبرون في سهول البادية حتى يواريهم الظلام .

اما القبيلة المغلوبة فهي تنزع مضاربها وتبتعد في سير حثيث سعياً الى ملاذ لدى بعض احلافها . فيسوق الظافرون قطعانها وينصرفون ، ولا تلبث ان تعود بعد الهزيمة الى مرابعها . بيد ان القتال والتقتيل تمتد نتائجها في ما يعقبها من احقاد تستمر معها المنازعات . فثمة شريعة الثأر التي تفرض افتداء دم القتيل بدم القاتل ، وهو حق يؤول الى الصق الناس بالميت نسباً . فان

اهمل الاخذ بالثأر لحق به العار ، وهو من اجل ذلك يترصد الفرص للانتقام ، ولا يرضيه ان يهلك خصمه بفعل غيره ، فيتحول بانتقامه الى اقرب الناس من ذلك الخصم . وتنتقل هذه الاحقاد كالارث من الاب الى الابناء ، ولا تخمد الا بانقراض احد المتنازعين او توافقهما على قتل المجرم او على فدية من المال او الماشية . وفيما خلا هذه الترضية فلا صلح ولا مهادنة ولا مصاهرة بينهما . وقد يمتد التقاطع الى قبيلتيهما ، فلا تعرض قضية او مسألة حتى تتعايران ان « بينهما دم » ، وهذا الكلام بمثابة السدّ المنيع .

وتتعدد الحوادث على توالي الزمن ، فينتقل النزاع الى معظم القبائل حتى يصح القول انها في حالة حرب معتادة . وهذه الحال ، بالاضافة الى نمط معيشة البدو ، تجعل منهم شعباً حربياً ، على كونهم لا يتقنون فنون القتال .

وتقوم مخيماتهم في شبه حلقة غير منتظمة تتعاقب حولها خيامهم على خط واحد وفي ابعاد متفاوتة . وهي تنسج من وبر الماعز او الابل . وألوانها سوداء او غبراء بخلاف اخبية التركمان الضاربة الى البياض . وتنصب على ثلاثة اوتاد او خمسة لا يزيد علوها عن خمس اقدام او ست ، بما يجعلها مفطّحة الشكل . وتبدو هذه المخيمات على البعد وكأنها بقع سوداء . ولكن البدوي ببصره النافذ لا يخطئها ولا يفوته تمييزها .

فكل عيلة تقيم في خيمة يشطرها حجاب فاصل بين جزئيها ، واحدهما خاص بالنساء . وثمة فسحة تقوم في حواشي الحلقة تُحظر فيها الماشية كل مساء . وليس هناك متاريس تعصم المخيم ، فحرّاسه الكلاب ، وهي العسس ايضاً . وتبقى الخيول مسرجة معدة

للركوب لدى اول نذير . ولكن حالة المحبهات فوضى، فلا نظام فيها ولا توزيع مهام ، فتسهل مفاجأتها على من يهاجمها . ويؤدي ذلك الى ان كل يوم يشهد حوادث السلب والخطف التي هي شغل العرب الشاغل .

والحالة عند القبائل المجاورة للاتراك اشد قلقاً واضطراباً ، لان هؤلاء الغرباء يدعون ملكية البلاد بحق الفتح وينظرون الى العرب نظرهم الى الاتباع المتمردين او الاعداء المقلقين الخطرين ، فيثيرون في وجههم حرباً صامتة او معلنة . ولا يعدم الباشاوات وسيلة لاقلاقهم ، فتارة ينازعونهم ارضاً مستأجرة ، وتارة يكرهونهم على اداء جزية غير واجبة . واذا تخاصم شيخان على امر ، ظاهروا احدهما ثم الآخر حتى يقضيا على الاثنين معاً . واذا رهبوا جانب زعيم شجاع او حكيم اوقعوا به عن طريق السم او الخنجر ولو كان من احلافهم .

والعرب يعدون الاتراك مغتصبين خونة ، ويسعون ابداً الى ايذائهم . ولكن الابرياء يتحملون دون المذنبين سوء المآل . ويدفع الفلاحون غالباً ثمن ما جناه رجال الحرب ، اذ لا يكاد ينشب القتال حتى تتلف زروعهم، وتنهب مواشيهم ، وتقطع سبلهم ، ويقضى على تجارتهم . فيصيح الفلاحون : الى اللصوص ! وهم على صواب . ويطالب البدو بحق الحرب ، وقد لا يكونون ملومين . ومهما يكن من امر ، فما كانت هذه التعديات الا لتجعل بين البدو والمزارعين تباعداً تستحكم معه العداوة .

تلك هي حالة العرب في خارج بواديهم . فهي عرضة لشتى الطوارىء والاحداث بحسب ما يكون مسلك زعمائهم حسناً او

رديئاً . وقد يحدث ان قبيلة ضعيفة الشأن يعظم شأنها وتنمو ، فيما تنخفض قبيلة مرهوبة الجانب حتى يؤول امرها الى التلاشي ، ليس بانقراض افرادها بل باندماجهم في قبيلة اخرى .

وتتألف القبيلة من بطن او بطون رئيسية يحمل افرادها لقب الشيخ او السيد . وهي من هذا القبيل بمثابة اعيان رومـــا في الامس ، واشراف اوروبا اليوم . ويسودهم صاحب المقام الاول فيهم ، ويلي جميع امورهم ، وقد يلقب بالامير . وكلما ازداد عدد اقربائه واولاده واحلافه قويت شوكته وعلا قدره . ويلتحق به عدد من الخدم يصبحون عالة عليه . وقد تنضم اليه افخاذ اخرى ضئيلة المقام تفتقر الى حماية وملاذ . ويسمى هـذا التضامّ قبيلة ، فيميزونها من غيرها باسم رئيسها وباسم العشيرة السائدة فيها . واذا اشاروا الى افرادها نادوهم « اولاد فلان » وان لم يكونوا مـن دمه وكان قد توفي منذ زمن بعيـد . فيقولون : بني تميم ، واولاد طي . وقد انتقل هذا الضرب من الكلام الى اسماء البلدان على سبيل المجاز ، فقالوا اولاد مصر واولاد الشام ، وقد يقولون اولاد فرنسا واولاد موسكو . وما كان هذا الامر خالياً من الاهميـة لمن توخى الايغال في التاريخ القديم .

ان الحكم الذي يسود تلك الجماعة جمهوري واريستقراطي حتى واستبدادي في وقت معاً . ولا يصح الجزم انه هـذا او ذاك . فهو جمهوري لان الشعب صاحب الكلمة الاولى في جميع القضايا ، فلا يقضى بشيء الا برضى الغالبية وموافقتها . وهو اريستقراطي لان اسرة المشائخ تنعم بامتيازات تستنـــد الى القوة . وهو استبدادي لان للشيخ سلطة متناهية تكاد تكون مطلقـة . فاذا

كان شديد المراس استطاع ان يتجاوزها . ولكن هذا التعسف يقف عند حدود تضيّقها . فاذا اتى الشيخ مظلمة ، كأنْ يقتل عربياً ، فلا مفر له من العقاب ، ولا تحول رفعة مقامه دون تطبيق شريعة الثأر عليه . فاذا تمنع عن اداء فدية الدم قتل حتماً ، وهو امر يسهل على من يباشره .

واذا ارهق الشيخ رعاياه بقسوته تخلوا عنه الى قبيلة غيره . ويفيد اقرباؤه من اخطائه فيخلعوه ليخلفوه . فلا يستطيع ان يستنفر عليهم الغرباء ، او ان يفرقهم شيعاً واحزاباً باغرائهم او رشوتهم . فهو لا يتقاضى القبيلة مكوساً او ضرائب ، لان معظم رجالها في عسر حال ، في حين ان ما يملكه زهيد مثقل بالنفقات .

اجل ، ان الشيخ يدفع نفقات الذهاب والاياب ويستقبل الزائرين من حلفاء واصحاب مهمات ، ويقوم على مقربة من خيمته مضرب واسع ينزل فيه الغرباء وعابرو السبيل ، وتعقد فيه اجتماعات المشايخ بالاعيان للتفاوض في الرحيل او الاقامة ، وفي الصلح او الحرب ، وفي امر المشاكل مع الاتراك ، وفي فصل القضايا والمنازعات بين الافراد . وتقدم لهذه الوفود القهوة والخبز والارز ، وفي بعض الاحيان الجدي او الجمل مشوياً . وخلاصة القول ، على الشيخ ان يكون واسع الدار ، مبسوط السماط . وتفرض عليه هذا الكرم ضرورةُ المحافظة على نفوذه وسلطانه ، فهما منوطان بمبلغ سخائه وسماحه . والبدوي الجائع يضع في رأس الفضائل فضيلة الكرم التي توفر له الغذاء . وما كان هذا الاعتقاد باطلاً ، فقد اثبت الاختبار ان المشائخ الاسخياء لم يكونوا

يوما بعيدي النظر ، وهذا ما يبرر قولهم : « كف منقبضة وقلب مغلق » .

وليس للشيخ ، لسد هذه النفقات ، الا قطعانه وبعض الحقول المزروعة ، وغنائمه من الغزوات ، وبعض اتاوى يتقاضاها عابري السبيل . وهو ريع محدود ضئيل على ما ترى . ان الشيخ الذي قصدتُ اليه في غزه في اواخر سنة ١٧٨٤ كان يحسب اعظم مشائخ تلك الانحاء شوكة وجاهاً . على اني لم اتبين ان نفقاته تزيد على نفقات مزارع كبير . وكانت منقولاته عبارة عن اعبئة وسجاد واسلحة وخيول وإبل لا تجاوز قيمتها خمسين الف ليرة[1] ، مع الملاحظة ان ثمن الجمل الواحد عشر ذهبات فرنسية ، وثمن الخيول الاصيلة الاربعة التي كانت له ستة الاف ليرة . فاذا تحدثنا عن البدو ، والحالة هذه ، وجب الا تضلنا كلمة « الامير » او « المولى » . فمدلولها عندهم اقرب الى الحقيقة اذا قابلنا مشائخهم بمزارعي الجبال السليمي الطوية الذين يماثلونهم في بساطة الملبس والحياة المنزلية والاخلاق .

ورب شيخ يقود خمسمائة فارس لا يستنكف من ان يسرج فرسه ويلجمها بنفسه او يقدم لها العلف تبناً وشعيراً . وامرأته ، في خبائه ، تعد القهوة ، وتعجن وتطهي ، وبناته وقريباته يغسلن الثياب ،ويذهبن الى العين متحجبات ، ويحملن قلل الماء على رؤوسهن ، كأنهن الصورة التي رسمها هوميروس والتوراة في قصة ابرهيم . وهي صورة يصعب على المرء ان يتمثلها ما لم يشاهدها عياناً .

١ لا ندري ما هي قيمة الليرة في ذلك الزمان، ولعلها قيمة الفرنك . — المعرب .

يقاس فقر البدوي بفقر رئيسه . وكل ما تملكه العشيرة ينحصر عادة بما يأتي : بعض الجمال والنوق والماعز والدجاج ، والفرس مع سرجها ، والخيمة ، ورمح طوله ست عشرة قدم ، وسيف معقوف ، وبارودة صدئة بقداحة او اكرة ، وغليون ، ومطحنة نقالة ، وقدر ، ونحي من جلد ، ومحمصة للبن ، وحصيرة ، وبعض الالبسة ، ورداء من الصوف الاسود . وثمة بعض الخلاخل الزجاجية او الفضية تحملها النساء في الذراع او الساق . فاذا توافر هذا كله كانت العشيرة في سعة من العيش .

ان ما يعوز البدوي في الدرجة الاولى الفرس ، فهي وسيلة رزقه في الغزوات وقطع السبل ، وهي مفضلة عنده على الجواد لانها لا تصهل ، وانها اكثر طواعية منه ، فضلاً عما تدره لفارسها من لبن يرتوي به عند الحاجة او يتخذه طعاماً .

والبدو بسبب ضيق معاشهم لا يتقنون الصناعات ، فهي بنسبة حاجاتهم . وكل ما يعرفون منها نسج الاخبية والحصائر ، واستخراج السمن . وتقتصر متاجرهم على مقايضة الجمال والماعز والاحصنة والالبان بالاسلحة والالبسة وبعض الارز او القمح ، وشيء من النقود يطمرونه . وليس عندهم علوم ، ولا يلمون اي المام بعلم الفلك او الجبر او الطب . ولا كتب عندهم قط . واندر ما يعرفونه القراءة ، حتى الشيوخ منهم . ومدار البيان عندهم رواية القصص والاخبار كقصة الف ليلة وليلة مثلاً . ولهم شغف خاص بتلك الاقاصيص ، فهي تملأ معظم اوقات الفراغ عندهم ، واوقات الفراغ عندهم طويلة .

وفي المساء يجلسون على الارض عند باب الخباء ، او تحته اذا

كان الهواء بارداً . فيجتمعون على شكل حلقة حول نار من الروث المجفف ، والغلايين في افواههم . ويسترسلون بادىء ذي بدء في احلامهم صامتين . ثم يقطع احدهم السكوت فجأة ، فيبدأ بهذا الكلام : « في ذلك الزمان وسالف العصر والاوان ... » حتى يأتي على آخر قصة شيخ فتي وبدوية نضرة ، فيخبر كيف لمحها الفتى للمرة الاولى خلسة وشغف بها . ثم يصف الجميلة بجميع قسماتها ، ويطري عينيها السوداوين الواسعتين الناعستين كعيني الغزالة ، ونظرها الكئيب المشتاق ، وحاجبيها المنحنيين وكأنهما قوسان من الآبنوس ، وقوامها اللدن المستطيل كالرمح . ولا ينسى مشيتها الرشيقة ، في كالمهر الفتي ، وحدقتيها المسوّدتين بالكحل ، وشفتيها الموشومتين ، واظافرها المصبوغة بخضاب ذهبي ، وصدرها المثقل برمانتين ، وكلامها وهو قطرات العسل .

ويذكر كيف تفعل الاشواق فعلها في الفتى الولهان فتضني جسده حتى يصبح ظلاً هزيلاً . ثم يتبسط في تفاصيل محاولاته ليحظى برؤيتها ، وتمنع اهلها ، وأسرها واسره ، حتى ينتهي الى الجمع بينهما سعيدين في خبائه .

وتقابله عندئذ اصوات السامعين : « ما شاء الله ! »

وللبدو اغنيات غرامية هي اقرب للطبع والشعور من اغنيات الترك واهل الحضر . ذلك ان اولئك اعفاء يعرفون الحب ، فيما يستهلك هؤلاء للشهوات فلا يعرفون الا الاستمتاع . وكثيراً ما قابلت بين حالة البدو القاطنين في الصحراء بنوع خاص ، وحالة هنود اميركا ، فرأيت بين كلتيهما مشابهة من عدة وجوه ، وقلت في نفسي : لماذا لا نرى عند العربان شراسة هنود اميركا ؟ ولماذا لا

نجد عندهم هذا الميل لأكل اللحوم البشرية ، في حين انهم يكابدون القحط والمجاعات ؟ وما هو السبب في ان اخلاقهم اقرب الى السلامة والامتزاج بالمجتمع ؟

واليكم الاسباب التي استخلصتها من واقع الحال :

ان اميركا غنية بالمراعي والبحيرات والغابات ، وما كان احراها ان تكون بلاد الرعاة . ولكن غاباتها ملاذ الحيوانات ، فهي تعتصم فيها بعيدة عن سلطة الانسان . والهندي من اجل ذلك مسوق بطبيعة الارض الى الطراد والقنص ، فهو صياد لا راع . وقد ساهمت جميع عاداته الملازمة لحالته في صيرورته رجلاً جافياً خشن الطباع ، واكسبت مشقاتُ القنص جسمه صلابة وخشونة . وينتابه جوع شديد يسدّه فجأة بفيض من لحم الطرائد فيصبح نهماً لهماً . وقد تعود سفك الدماء وتمزيق الطريدة فألف القتل ومشهد الالم . فاذا عضّه الجوع اشتهى اللحم . واذ يرى لحم قريبه في متناوله يأكله بسائق طبعه . وتبعت تجربته الاولى عادة تأصلت فيه ، حتى اصبح سفاكاً شرساً ، وانتقلت الى نفسه غلاظة اعضائه .

اما حالة العربي فهي جد مختلفة ، لان الاقدار رمته في سهول واسعة عارية لا ماء فيها ولا غاب . فلم يكن له ان يصبح صياداً لانعدام الطرائد في كل ما جاوره . وحمله الجمل على اعتياد حياة الرعاة التي تألفت منها عناصر مزاجه . ورأى في متناوله طعاماً كافياً مستمراً على كونه يسيراً ، فتعود القناعة . واكتفى باللبن والتمر فلم يشته اللحم ولا سفك الدم . وما تعودت يداه القتل ، ولا ارتاحت اذناه الى انين الوجع ، واحتفظ بقلبه الانساني الرقيق .

ولما عرف هذا الراعي الهمجي كيف يستخدم الفرس تغيرت حاله بعض الشيء، وسهل عليه ان يقطع واسع الفلوات بسرعة فاصبح متشرداً. وبعد ان كان جشعاً بسبب القحط اصبح لصاً بسبب الطمع. وعلى هذه الصورة استقر طبعه، فهو نهاب اكثر منه محارباً. وما كانت شجاعته دموية، لانه لا يهاجم الا ليسلب. فان لقي مقاومة لا يرى في الغنيمة ما يبرر المخاطرة بحياته. ولا يهيجه الا سفك دمه. فتراه عندئذ مقداماً على الانتقام ببأس يضاهي حرصه السابق على تجنب الخطر.

وكثيراً ما نعوا على العربان ميلهم الى الغزو. واني وان كنت لا اعذرهم عليه اري انهم لا يغزون الا الغريب الذي يعتبرونه عدواً. فالغزو يرتكز اذن الى سنن مألوفة عند معظم الامم.

اما المجتمع عندهم فيسوده من الثقة والتجرد والكرم ما يشرف اعرق الناس في الحضارة. فاي شيء هو انبل من حق الضيافة الذي تقدسه جميع قبائلهم؟ اذا جاءهم غريب، ولو كان عدواً، ومس خيمة البدوي، اصبح في حرز حريز. ومن العار والدناءة ان يثأر الاعرابي من ضيفه، واذا رضي البدوي ان يؤاكل ضيفه «الخبز والملح» كان ذلك ميثاقاً على انه لا يخونه، فيحفظ عهده ولا يتحول عنه.

ان السلطان، على صولته وشوكته، قد لا يستطيع استرداد لاجيء في قبيلة[1] ما لم يفنِ القبيلة عن بكرة ابيها. ان هذا

[1] ضيوف العرب فئتان، فنهم المستجير، وهو الذي يستعين حمايتهم، ومنهم المطانب، وهو من يشد اطناب خيمته في جوار خيامهم، فكأنه جارهم.

البدوي الجشع خارج مخيمه ، ما ان تطأ قدماه حي قبيلته حتى يصبح جواداً سخياً . ومهما يكن مـا يملكه زهيداً فهو يقاسم غيره عليه . وفيه من رقة الشمائل ما يدفعه الى هذا السماح دون ما طلب . فاذا جلس الى الطعـام ، لم يجلس الا عند مدخل خيمته ليدعو عابري السبيل . وهو صـادق في كرمه فلا يحسبه فضيلة يحمد عليها ، بل واجباً مفروضاً عليه . وتراه ، من اجل ذلك ، يأخذ من مال الآخرين ما خولهم من حق على مـاله ، حتى تحسب ان طريقة المعيشة عند العرب يسودهـا نظام الشراكة في المقتنيات . بيد انهم يعرفون الملكية ، ولكنها لا تخضع عندهم لتلك الصرامة التي تتسم بها عند القوم المزارعين بسبب اتساع حاجـات الترف . وهم مدينون بتلك القناعة الى تعذر تنعمهم بكل ضروب الاستمتاع . على انه وان تكن فضائل الجمهور عند العرب وليدة الضرورات والاحوال ، فما كانوا من اجل ذلك اقل جدارة بالتقدير والاعجاب . فحسبهم نعيماً ان تكون تلك الضرورات قد اقامت عندهم طريقة حكم يرى عقلاء المشترعين انها افضل طرائقه ، عنيت بها تلك المساواة في اقتسام المال وتوزيع المراتب بين الطبقات . فهم ، وقد حرمتهم الطبيعـة وجوه الاستمتاع التي جادت بهـا على غيرهم ، اقل تعرضاً لعوامل الفساد والمهانة ، حتى ليصعب على مشائخهم ان يجزّبوا من الجماعة نفراً يعمل على استعبادها واضعافها . واذ كان باستطاعة الفرد ان يكفي نفسه مؤونتها ، فهو يحتفظ بطابعـه واستقلاله ، حتى يصح القول انه يجد في الفقر مصدر حريته العامة وضمانتها .

ان هذه الحرية تشمل الشؤون الدينية نفسها . فبين اهل الحضارة والبداوة من هذا القبيل فارق جدير بالنظر ، اذ بينما يكابد الاولون نيرين من الاستبداد السياسي والديني ، نرى ان الآخرين ُمعتقين من كليهما .

من البيّن ان البدو المتاخمين للاتراك ما برحوا ، من باب السياسة ، يحتفظون ببعض المظاهر المذهبية ، ولكن تمسكهم بها يشوبه التراخي وقلة الاعتداد ، بما يجعلهم في نظر سواهم كفاراً لا شريعة لهم ولا انبياء . وهم يقولون دون محاباة « ان الدين لم يسن لامثالنا ، اذ كيف يتهيأ لنا الوضوء ولا ماء عندنا ؟ وكيف نؤدي الزكاة ولا مال لنا ؟ ولِمَ نصوم رمضان ونحن نقضي السنة صياماً ؟ ولِمَ نحج الى مكة والله في كل مكان ؟ »

وكل منهم يتصرف بحسب هواه ويفكر وفق مشيئته . ويسودهم التسامح التام ، على ما تبينت من حديث كان لي مع الشيخ احمد بن بكر زعيم العشيرة الواحدية .

فقد قال لي ذلك الشيخ : « لماذا تنوي الرجوع الى الفرنجة ما دمت لا تنفر من عاداتنا ، وتعرف معالجة الرمح ، وركوب الخيل ؟ فامكث عندنا ، نعطك عباء وخباء ، ونزوجك بدوية ذات حسن وحشمة ، ونهبك فرساً اصيلة ، وننزلك ربعنا على الرحب والسعة . »

فقلت له : ألا تعلم اني ولدت بين الفرنجة ونشأت على دينهم ؟ فما عسى ان يظن العرب في رجل كافر جاحد ؟

فقال :

ــ ألا ترى ان العرب لا يأبهون لامور الدين ، واننا نتبع

طريق الضمير والوجدان ، فالاعمال للناس والدين لله .

وحدث ان شيخا آخر كنت في حديث معه وجه اليّ هذه العبارة دون ان يتعمدها . قال : اسمع وصلِّ على النبي . فعوضاً عن ان اجيبه الجواب المعتاد : صليت ، قلت له مبتسماً : انني مصغٍ اليك .

فأدرك الشيخ خطأه وتبسم هو ايضاً . وكان يسمع الحديث تركي من القدس ، فقال وجدّ في كلامه :

– ايها الشيخ ، كيف توجه الى كافر كلاماً لا يوجه الى غير المؤمنين ؟

فأجابه الشيخ :

– هي زلة لسان . ولكن القلب سليم . اما انت الذي تعرف عادات العرب فكيف يجوز لك ان تهين غريباً آكلناه الخبز والملح ؟

ثم انثنى اليّ وقال :

– هل ان شعوب « فرنكستان » الذين حدثتني عنهم ، والخارجين على دين الرسول ، هم اكثر عدداً من المسلمين ؟

فقلت : انهم ستة اضعاف المسلمين بما فيهم البدو ...

فقال : تعالى ربك العادل ، فهو يزن الاعمال في موازينه .

يجب الاقرار ان الامم المتحضرة قلما تعرفت الى خلقيات كخلقيات عرب البادية الجديرة بالاعجاب . وانك تجد الفضائل نفسها بين التركمان والاكراد ، ولعلها من خصائص حياة الرعاة .

ومن الغريب ان هؤلاء القوم قلما اعتدوا بمراسم الدين الخارجية ،

فلا كهان ولا معابد ولا عبادة منتظمة عنـد البدو والتركمان والاكراد .

وقد آن لنا الآن ان ننصرف الى وصف سائر الشعوب النازلة بلاد سوريا ، ونعالج حالة اجتماعية اخرى جد مختلفة .

الفهرس

القسم الاول

طبيعة مصر

القسم الثاني

حالة مصر السياسية

القسم الثالث

سوريا الطبيعية

القسم الرابع

الحالة السياسية في سوريا

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع نصار
في اليوم الاول من تشرين الثاني
سنة تسع واربعين وتسعماية والف .

